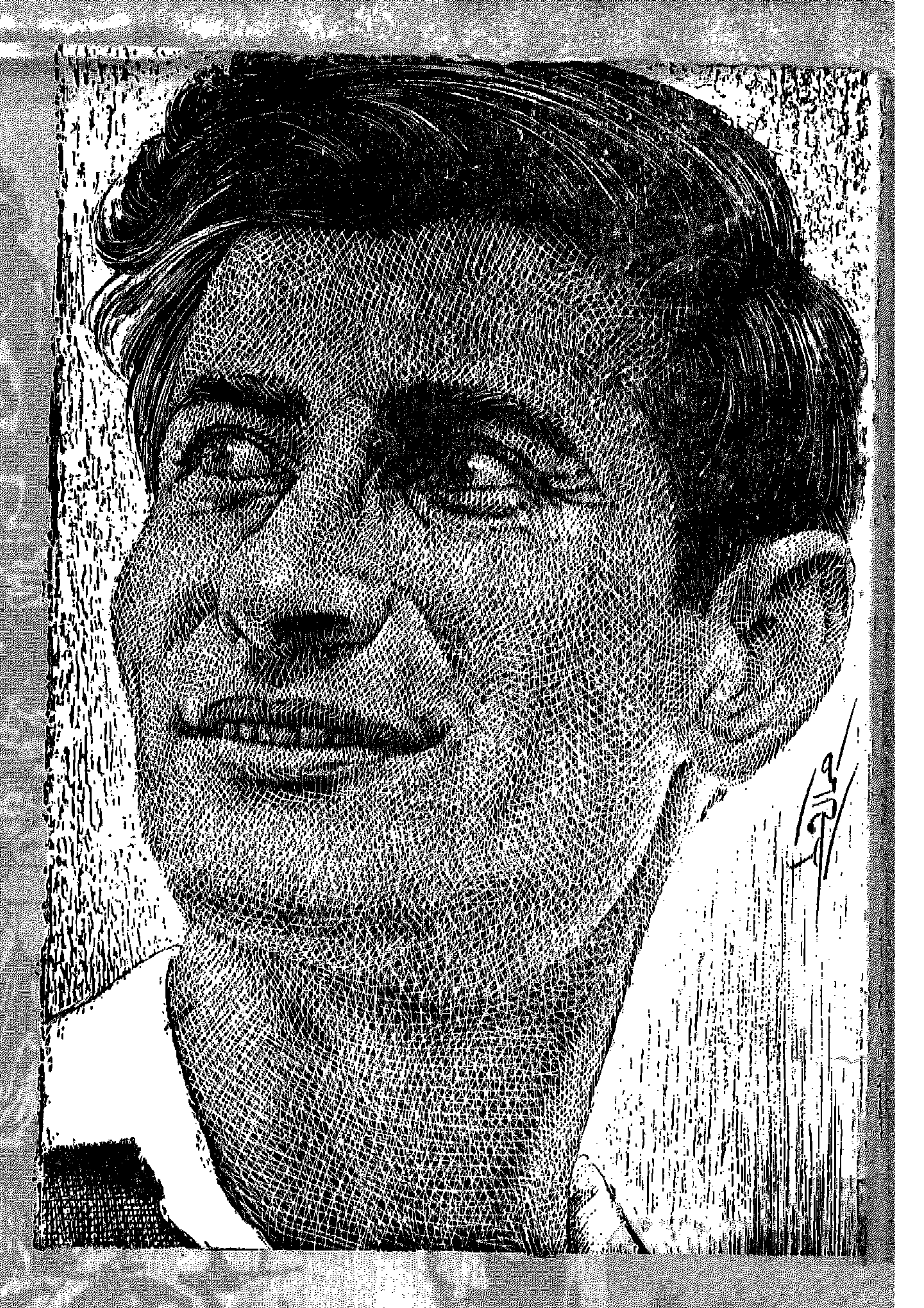
رجاء النقاش



ود درويش
ر الأرض المحتلة

الطبعة الثانية

دار الهلال

رجاء النقاش

محمود درويش

شاعر الأرض المحتلة

الطبعة الثانية
دار الهلال

مقدمة الطبعة الأولى

كان لقائى الأول مع أدب المقاومة فى أرض فلسطين المحتلة فى أواخر سنة ١٩٦٦ ، وأذكر اننى فى ذلك الحين كنت فى زيارة للجزائر مع وفد صحفى من الجمهورية العربية المتحدة ، وكان ضمن برنامج هذه الرحلة أن نزور المنطقة البترولية فى صحراء الجزائر ، وكان من الضرورى أن نركب طائرة تحملنا من العاصمة الى قلب الصحراء ، وذلك لبعد المسافة ، حيث تستغرق المواصلات العادية وقتا طويلا لا تحتمله أيام زيارتنا المحدودة . وفى الطائرة وقعت يدى على جريدة جزائرية وأخذت أتصفح الجريدة التماسا لقضاء الوقت حتى نصل الى منطقة البترول ، وفى ركن من أركان الجريدة وقعت عينى على قصيدة قصيرة بتوقيع « محمود درويش » ، وقد قدمتها الجريدة على أنها قصيدة لشاعر من أرض فلسطين المحتلة . وقرأت القصيدة فهزنى ما فيها من صدق وبساطة وجمال فنى ، وهزنى فوق ذلك كله ما فيها من حرارة ثورية عنيفة . ولست أدرى كيف ثبت فى وجدانى آنذاك أن « محمود درويش » هذا ليس اسما حقيقيا وانما هو اسم مستعار لمناضل عربى ثورى يعيش متخفيا فى الأرض المحتلة، كما أن القصيدة نفسها بدت لى نوعا من المنشور الثورى الذى كتبه ذلك المناضل السرى ليرفع الروح المعنوية للعرب المقيمين فى فلسطين المحتلة . ولم أكن أتصور أن بين عرب الأرض المحتلة حركة أدبية ثورية لها قيمتها وخطورتها ، ولعل ذلك يعود الى قلة المعلومات عن عرب الأرض المحتلة وندرتها ، ثم صعوبة الوصول الى مصادر دقيقة تصور أحوالهم وواقعهم وطريقة تفكيرهم واحساسهم وتعبيرهم عن أنفسهم ، فحتى ذلك الحين — عام ١٩٦٦ — كان عرب الأرض المحتلة يعيشون فى ظل ستار حديدى

عنيف لا يستطيع أحد أن يعرف ماذا يدور وراءه من أحداث ، ولم يكن هذا الستار الحديدى من صنع اسرائيل وحدها ، بل كان من صنع العرب أيضا ، فالعقلية العربية فى ذلك الوقت ، بل وبعد ذلك أيضا ، كانت ما تزال خاضعة لمنطق غريب هو تجاهل ما يدور فى الأرض المحتلة سواء بالنسبة لليهود أو بالنسبة للأقلية العربية هناك . ولعل ذلك كان يرجع الى الاستهانة بالعدو الاسرائيلى ، والنفور الشديد منه ، وعدم تقدير قوته الحقيقية .. لقد كان هناك وهم كبير يعيش فى الوجدان العربى هو أن اسرائيل عدو سهل يمكن هزيمته بنفخة هواء أو بلمسة اصبع أو بركلة قدم ، ومثل هذا العدو لا يستحق منا فهما أو دراسة أوبحثا فى أصوله وجذوره .

وعندما وقعت هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، اهتز الضمير العربى كله ، وبدأت الأقلام الجادة المخلصة تفتش عن أسباب المأساة ، وكان على رأس أسبابها الواضحة أن العرب يعرفون القليل عن اسرائيل وما يجرى فيها ، وأن الاسرائيليين على العكس يعرفون كل شىء عن العرب . ولقد كان على العرب أن يعرفوا عدوهم بدقة حتى يتمكنوا من مواجهته . وكان هذا الأمر بديهية من البديهيات . ومع ذلك فقد غابت هذه البديهية عن النضال العربى وقتا طويلا ، وبصورة مثيرة للدهشة بل ومثيرة للفزع . ولم يبدأ العرب فى التعرف على حقيقة عدوهم الاسرائيلى بصورة سليمة الا بعد أن ظهر مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية والذى يرأسه الدكتور أنيس صايغ . ومع ذلك ورغم المجهود الضخم الدقيق الأمين الذى يبذله مركز الأبحاث الفلسطينية ، فان دراسات هذا المركز لم تحظ باهتمام كاف الا بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ . فقد أحدثت الهزيمة أثرها العنيف، وأصبح المثقفون متلهفين على فهم هذا العدو المجهول فهما كاملا . ومن خلال موجة اكتشاف العدو ومحاولة فهمه احتلت الأقلية العربية داخل اسرائيل ، بظروفها ومشاكلها ونشاطها الفكرى والعملى ، مكانا بارزا

فى الدراسات التى ظهرت قبيل عدوان ٥ يونيو وبعـده • وهنا بدأنا نعرف بعض التفاصيل عن شعراء المقـاومة داخل الأرض المحتـلة وعلى رأسهم : محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وراشد حسين وسالم جبران وغيرهم ، وبدأت الصورة تتضح أمامنا بشىء من النضج والاكتمال ..

وقد ساعد على ذلك احتـلال اسرائيل للضفة الغربية من الأردن ، حيث أصبح العرب داخل الأرض المحتلة بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ نسبة عالية تقرب من المليون مواطن أو تزيد • واتصل أهل الضفة الغربية بالعرب المقيمين داخل أسوار اسرائيل وعرفوا الكثير عنهم وعن ظروفهم السياسية والفكرية والاقتصادية • واستطاع أهل الضفة الغربية بوسائل متعددة أن ينقلوا الى العرب فى كل مكان كثيرا من المعلومات والحقائق عن أبناء الأرض المحتلة الأصليين • ومن بين ما تسلل من الأرض المحتلة فى تلك الفترة بعض دواوين شـعراء المقـاومة الذين يعيشون داخل أسوار اسرائيل .

ولقد كان اتساع حركة الفدائيين وزيادة نشاطهم داخل الأرض المحتلة وسيلة أخرى من وسائل تسرب المعلومات عن عرب الأرض المحتلة • وبهذه الوسائل كلها وبغيرها ، بدأت تتوفر أمامنا صورة تقريبية لأدب المقاومة فى فلسطين المحتلة . وبدأت تظهر أمامنا صورة لم تكن متوقعـة هى أن هناك حركة شعرية ناضجة ورائعة فى داخل الأرض المحتلة ؛ وان الحكم بنضجها وروعتها من الناحية الفنية والفكرية ليس راجعا الى تعاطفنـا السياسى أو النضالى مع هذه الحركة ، بسبب ما يعانيه أصحابها من الشعراء الشبان فى ظروف حياتهم الصعبة داخل أسوار اسرائيل .. ان هذا التعاطف حقيقة لا شك فيها ، ولكن الحركة الشعرية الجديدة داخل الأرض المحتلة تتمتع بقيمة فنية وفكرية على أكبر درجة من النضج والاصالة بصرف النظر عن جميع الاعتبارات السياسية والعاطفية الأخرى • ان الشعراء الشبان البارزين فى الأرض المحتلة هم شعراء موهوبون ، ولو ظهروا فى

ظروف أخرى وأرض أخرى لكان لهم أيضا قيمتهم كفنانين بارزين . ان هؤلاء الشعراء انما يرتفعون الى مستوى كبير لا عن طريق القضية التى يعبرون عنها فقط وانما عن طريق مواهبهم الشعرية الواضحة فى نفس الوقت . فنحن لا نجاملهم من أجل قضيتهم وانما هم فى الواقع أصحاب قضية كبيرة وأصحاب مواهب كبيرة فى نفس الوقت بحيث نستطيع أن نقول : انهم من ألمع الشعراء العرب الذين ظهروا فى المرحلة الراهنة من تاريخنا الأدبى . وعلى رأس هؤلاء الشبان يقف محمود درويش ، وهو أول اسم عربى تسلل بشعره الى خارج الأسوار الاسرائيلية ، وهو بالنسبة لى أول وجه حبيب التقيت به فى بحثى عن حركة الشعر فى الأرض المحتلة ، وقد هزنى هذا الوجه بفنه ونضاله معا ، ومن خلال الحقائق التى تجمعت لدى عن حياة هذا الشاعر وفنه أقدم هذه الدراسة التى أرجو أن تساهم فى القاء بعض الضوء على هذه الحركة الأصيلة من حركات الشعر العربى المعاصر ، وهى حركة شعر المقاومة فى الأرض المحتلة ، كما أرجو أيضا أن أقدم بعد هذه الدراسة دراسات أخرى عن سميح القاسم وغيره من شعراء الأرض المحتلة .

ولقد كان من الطبيعى أن تمتد أى دراسة لمحمود درويش الى دراسة القضية التى يعبر عنها ويستمد منها تجاربه الانسانية ... هذه التجارب التى يعتمد عليها فى قصائده المختلفة ، ولذلك فقد عنيت فى هذه الدراسة بقضية العرب فى اسرائيل وظروفهم المادية والنفسية ، كما حاولت أيضا أن ألقى بعض الضوء على التراث الشعرى فى فلسطين منذ سنة ١٩٣٦ حتى ظهور محمود درويش ورفاقه ، وذلك لأن هذه المدرسة الشعرية الجديدة لم تنشأ فى فراغ ، وانما اتصلت بشكل أو بآخر بالحركات الشعرية السابقة التى ظهرت فى المراحل المختلفة للنضال العربى الفلسطينى .

كما حرصت دائما على أن أشير الى زملاء محمود درويش وأبناء جيله من الشعراء البارزين فى هذه الحركة الشعرية الجديدة ، ذلك لأن محمود

درويش ليس مجرد عبقرية فنية فردية وليس نموذجا نضاليا شاذا ، بل هو فنان مرتبط بحركة شعرية واسعة ، وتجربة نضالية عريضة ، وهو يتأثر برفاقه ويؤثر فيهم ، لأنه مرتبط بهم ارتباطا واضحا لا شك فيه .

ولعل خير ما أختم به هذه المقدمة هو تلك الأبيات التى تفيض بالثورية والتفاؤل والحرارة والرفض الكامل لليأس ، والتى كانت أول ما قرأت من شعر المقاومة فى الأرض المحتلة ، وأول ما قرأت من شعر محمود درويش ، وكان ذلك فى طائرة جزائرية ذات يوم من أيام عام ١٩٦٦ ، وفى احدى الصحف التى تصدر فى ذلك البلد المناضل الذى عرف أحزانا وجراحا شبيهة بالأحزان والجراح التى تنزف من قلب فلسطين .

أما هذه القصيدة فقد نشرها محمود درويش فى ديوانه « أوراق الزيتون » بعنوان « عن الأمنيات » :

لا تقل لى :
ليتنى بائع خبز فى الجزائر
لأغنى مع ثائر !
لا تقل لى :
ليتنى راعى مواش فى اليمن
لأغنى لانتفاضات الزمن
لا تقل لى :
ليتنى عامل مقهى فى هافانا
لأغنى لانتصارات الحزانى
لا تقل لى :
ليتنى أعمل فى أسوان حمالا صغيرا
لأغنى للصخور
ياصديقى
لن يصب النيل فى الفولجا

ولا الكونغو ، ولا الأردن ، فى نهر الفرات
كل نهر ، وله نبع ••• ومجرى ••• وحياة
يا صـــديقى
أرضنا ليست بعاقر
كل أرض ولها ميلادها
كل فجر وله موعد ثائر !

•• ذلك هو الشاعر الثائر النبيل الذى تدور حوله هذه الدراسة ، وتلك هى لغة فنه ولغة قلبه ولغة تفاؤله الثورى العظيم ••

رجاء النقاش

مقدمة الطبعة الثانية

فى يوليو سنة ١٩٦٩ صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ونفدت خلال شهور قليلة ، وكان تجاوب القراء مع هذا الكتاب تعبيرا عن رغبة حارة لدى المواطنين العرب فى التعرف على كل ما يتصل بالأرض المحتلة ومشاكلها المتعددة وعلى كل ما يدور فى النفس العربية من مشاعر وانفعالات فى تلك الأرض العزيزة ، ولقد كانت لهفة المواطنين العرب على هذا كله موقفا له ما يبرره ، فمنذ سنة ١٩٤٨ الى اليوم لم نكن نعرف شيئا له قيمة عن العرب فى الأرض المحتلة ، حيث كان هؤلاء العرب يعيشون فى ظل سور حديدى رهيب من أسوار الاضطهاد الاسرائيلى ، وعندما بدأت المعلومات تتسرب يوما بعد يوم عن هؤلاء العرب كان من الطبيعى جدا أن يتلقفها المواطنون خارج الأرض المحتلة بلهفة وحرارة ، وعندما تحولت قضية الأرض المحتلة الى قضية شعب يقاوم بالرصاص لا قضية لاجئين ومشردين ، وتحولت فى نفس الوقت الى أغان وأناشيد وقصائد رائعة على يد محمود درويش ورفاقه من شعراء المقاومة .. عندما تحولت القضية الى فن جميل نبيل اهتز وجدان الناس جميعا فى أرضنا العربية ، ذلك لأن الفن دليل على النبض الانسانى ، وقضية بلا فن هى ولا شك قضية قاتمة معتمة ، ولقد ظلت قضية العرب فى الأرض المحتلة حوالى عشرين عاما تشكو من هذا القحط الوجدانى والجدب العاطفى حتى ظهر المنشدون والمغنون من أبناء هذه الأرض المظلومة الجريحة .

وهذه الطبعة الثانية من كتاب « محمود درويش شاعر الأرض المحتلة » تصدر بعد سنتين من الطبعة الأولى وفيها تعديلات واضافات كانت كلها ضرورية ، ففى السنتين الماضيتين حدثت عدة ظروف أدبية وواقعية هامة

لم تكن موجودة من قبل ، فقـد أصدر محمود درويش انتاجا شـعريا جديدا متنوعا بل لقد كان العـامان الماضيان من أخصب فترات حياته الفنية وانتاجه الشعرى ، ومن ناحية أخرى فان المعلومات الخاصة بحياة محمود درويش قد ازدادت وضوحا من خلال أحاديث الشاعر التى أدلى بها فى مناسبات متعددة ووصلت الى الصحف العربية المختلفة ، وهنـاك بعد ذلك كله تلك المفاجأة الكبيرة التى وقعت فى حياتنا الأدبية فى أوائل شهر فبراير ١٩٧١ ، فقد وصل محمود درويش الى القاهرة للاقامة بها تحت تأثير الارهاب الاسرائيلى العنيف ، ورغبة منه فى أن يعلن للعالم كل ما يعرفه عن آلام العرب فى الأرض المحتلة وهو ما لم يكن ميسورا فى ظل إقامته بالأرض المحتلة ، وقد صاحب خروج محمود درويش من اسرائيل مناقشات صاخبة حول هذا الموقف فكان هناك ترحيب من البعض واعتراض حاد وعنيف من البعض الآخر .

كل هذه العوامل كان من الضرورى أن تغير بعض ملامح الصورة التى قدمتها الطبعة الأولى من هذا الكتاب وكان لابد أن يضاف الى هـذه الصورة ملامح جديدة بل وملامح أساسية . وهذا هو ما حاولته فى هذه الطبعة الجديدة .

العرب
في
إسرائيل

على أثر اعلان قيام اسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ بقى عدد من العرب داخل حدود الدولة الجديدة ، بعد أن هاجر بقية المواطنين العرب أو طردوا بقوة السلاح الاسرائيلى من أرضهم ، وكان عدد الذين واصلوا الحياة داخل أسوار اسرائيل سنة ١٩٤٨ يبلغ ١٥٦ ألفا من المواطنين العرب ، ولكن هذا العدد وصل اليوم الى مايزيد على ثلاثمائة ألف مواطن .

وقد تعرض هؤلاء العرب لألوان عنيفة من الاضطهاد ، كانت كلها تهدف لابادتهم بطريقة من الطرق ، فاما أن يهاجروا نهائيا من البلاد نتيجة للارهاب الذى يتعرضون له فى كل مجالات الحياة ، واما أن يموتوا فى المذابح المختلفة التى تصطنعها اسرائيل وتلفق لها الأسباب وتقتل فيها عددا كبيرا من المواطنين العرب .

ولعل أكثر ما يمثل شعور الاسرائيليين نحو العرب هو موقف « بن جوريون » الذى يمكن اعتباره « المواطن الاسرائيلى الأول » ، فهو الأب الروحى لاسرائيل ، وهو الأب المادى أيضا ، وقد هاجر الى فلسطين من بولندا سنة ١٩٠٦ فهو بذلك أقدم زعماء اسرائيل الاحياء ، وقد ظل أقواهم نفوذا فى الحياة السياسية الاسرائيلية حتى سنوات قليلة حيث اعتزل العمل السياسى المباشر بسبب شيخوخته .

ان موقف « بن جوريون » هو موقف شديد التعصب ، انه يكره كل شىء يتصل بالعرب ، ويعبر عن كراهيته بشكل عنيف خال حتى من اللياقة السياسية التى يحاول أن يتظاهر بها بعض السياسيين الاسرائيليين الآخرين ، وخاصة أبا ايبان ، حيث يردد كثيرا فى تصريحاته : « ان العرب واليهود » هم أبناء عم ، والمفروض من وجهة نظره ألا يختلفوا ... ان

« بن جوريون » لايتحدث بهذه الروح الديبلوماسية ، ولا يخفى خنجره فى حرير ناعم ، انه يكره الشخصية العربية ، واللغة العــربية ، والأسماء العربية والأماكن العربية ... ويود لو استطاع أن يمحو كلمة عرب من كل لغات العالم .

وينقل لنا المحــامى العربى المقيم فى اسرائيل صبرى جريس وذلك فى كتابه الهام عن « العرب فى اسرائيل » ، ما قالته احدى المجلات الاسرائيلية سنة ١٩٥٨ ، عن « بن جوريون » الذى كان آنذاك رئيسا للوزارة ... لقد قالت هذه المجلة : « ان رئيس حكومة اسرائيل ما زار مدينة أو قرية عربية منذ قيام اسرائيل ، وعندما زار مدينة الناصرة العليا اليهودية ، رفض أن يزور مدينة الناصرة العربية وهى لا تبعد الا بضع مئات من الامتار عن الناصرة اليهودية . وخلال السنوات العشر الأولى من قيام اسرائيل لم يستقبل « بن جوريون » وفدا واحدا من المواطنين العرب . وتحت ضغط حزبه تكرم باستقبال أعضاء الكنيست العرب ، وفى هذا الاستقبال وعدهم وعودا عرقوبية . وفى ديسمبر سنة ١٩٥٨ ، التقى بهؤلاء الأعضاء ثانية بمناسبة الانتخابات . و « بن جوريون » الذى تعلم اليونانية ليقرأ أفلاطون ، والأسبانية ليقرأ سرفانتس ما رأى من واجبه أن يتعلم العربية ليقرأ الذخائر العربية المجيدة ، ورغم أنه سلخ ٥٣ سنة من هجرته الى اسرائيل الا انه لا يفقه شيئا من الاذاعة أو الصحافة العربية » .

هذا ما قالته احدى الصحف الاسرائيلية عن « بن جوريون » ، ويجب أن نلاحظ هنا أن اللهجة الطيبة التى تتحدث بها هذه الصحيفة عن العرب والثقافة العربية انما هى وليدة المعارضة السياسية لـ « بن جوريون » ، وهى محاولة لتجريحه سياسيا من خلال موقفه من العرب فى اسرائيل ، فحقيقة الموقف الاسرائيلى من العرب لا يختلف بين حزب اسرائيلى وآخر اختلافا جوهريا ، انما هى كلها اختلافات مظهرية شكلية ... فالجميع ضد العرب والجميع يوافقون فى اللحظات الحاسمة على الاجراءات التعسفية العنيفة

ضد المواطنين العرب .

واذا حاولنا أن تتابع الاجراءات التى تتخذها السلطات الاسرائيلية ضد هؤلاء المواطنين الذين وقعوا فى مصيدة الدولة الاسرائيلية ، فاننا سنجد أمامنا عددا من الأساليب المحددة التى تحكم تصرفات اسرائيل مع العرب المقيمين بها ..

فالاسرائيليون يعاملون العرب كمواطنين من الدرجة الثانيه أو الثالثة ، والعرب لا يتمتعون بحقوق المواطن العادى ، ويجدون صعوبات لا حد لها فى مواصلة حياتهم اليومية وتحديد مستقبلهم ، واذا أردنا أن نقدم بعض النماذج التى لا تمثل حصرا كاملا لأساليب الضغط والارهاب الاسرائيلى فسوف نجد أمامنا أشياء كثيرة : فالعامل العربى فى اسرائيل لا يتمتع بأى حقوق ، ولا ينتسب الى أى نقابة ، وهو دائما يقوم بالأعمال الشاقة الصعبة ، كالعمل فى المجارى والبناء ، ويتقاضى دائما أجورا أقل مما يتقضاها العامل الاسرائيلى حتى لو كان يقوم بنفس العمل . وكما يقول صبرى جريس فى كتابه عن « العرب فى اسرائيل » : « كان العامل العربى البسيط سنة ١٩٥٢ ، يتلقى مقابل عمل يوم واحد لدى دائرة الأشغال العمومية ، ليرة اسرائيلية واحدة ، فى حين كان العامل اليهودى يأخذ مقابل العمل نفسه وفى الدرجة نفسها ٢ر٦٣ من الليرات الاسرائيلية لليوم الواحد ، وبينما كان العامل العربى المهنى « كعامل البناء مثلا » يأخذ ٢ر٥٠ من الليرات الاسرائيلية فى اليوم ، كان العامل اليهودى يأخذ ٣ر١٤ من الليرات الاسرائيلية فى اليوم » .

كل هذا بالاضافة الى امكانية طرد العمال العرب من أعمالهم فى أى وقت دون أية مسئولية قانونية ، أو دون خوف من حساب أو عقاب ، بل ان الجهات الاسرائيلية الرسمية تشجع هذا الأسلوب فى معاملة العمال العرب وتؤكده باستمرار . ويصل وضع العرب الى حد بعيد من السوء عندما نعرف ان بعض المواطنين يضطرون كثيرا الى تغيير أسمائهم الى

أسماء « عبرية » حتى يستطيعوا مواصلة حياتهم والحصول على خبزهم . فشاب اسمه « محمد » يسمى نفسه اسما يهوديا مثل « دافيد » ، وشاب اسمه « رشيد » يسمى نفسه « اتسحاك » ، كما جاء فى بعض المقالات المنشورة فى صحف اسرائيل نفسها . وانى أستأذن القارىء فى نقل نصين هنا ، ترجمهما عن العبرية الأستاذ « ربحى كمال » فى كتابه « العرب فى الأرض المحتلة » وهما نصان يكشفان عن نفسية المواطن العربى العادى فى حياته اليومية وما تعانيه هذه النفسية من آلام كثيرة لا تنتهى ، وهى آلام تواجهه فى كل لحظة وفى كل حركة خلال حياته اليومية . وهذان النصان منشوران فى الصحف الاسرائيلية نفسها . وقبل أن نتوقف أمام هذين النصين يجب أن نشير الى أن الصحف الاسرائيلية لا تنشر هذه الحقائق عن العرب من باب الايمان الحقيقى بتعديل هذه الأوضاع ، بل من باب الصراع السياسى فى داخل اسرائيل بين الأحزاب المختلفة ، ومن باب تدعيم المظهر الديمقراطى فى اسرائيل ، وهو مظهر خارجى يخفى فى داخله نظاما عسكريا ارهابيا ليس فيه منفذ للحرية الحقيقية أو الديمقراطية الحقيقية ، ومن ناحية أخرى يقوم نشر هذه الحقائق بنوع من الدعاية الخارجية لاسرائيل ، فكأن اسرائيل بمثل هذه المواقف الصحفية تضم جناحا من اليهود يدافع عن حقوق الأقلية العربية ويحميها . وهو مظهر لايتعدى حدود « الدعاية » الى الدفاع الجدى عن هذه الحقوق . على أننا فى نهاية الأمر قد نجد بين المثقفين الاسرائيليين من يشعر بخطورة المشكلة العربية فى اسرائيل ولكن هؤلاء المثقفين لايفهمون المسألة فهما جذريا وانما يتصرفون بناء على تصور محدد ، هو أن بالامكان أن يقبل العرب وجود اسرائيل لو أحسنت اسرائيل معاملة العرب فى الداخل . وقد يكون هؤلاء هم خير المثقفين فى اسرائيل ولكنهم فى حقيقتهم لا يختلفون عن غيرهم فى تأييد قيام اسرائيل وبقائها فوق جثة العرب الذين خرجوا من فلسطين وتركوا بلادهم وتحول عدد كبير منهم الى لاجئين مشردين . ولذلك فان أمثال هذه المواقف بين المثقفين الاسرائيليين لاتغير

صورة اسرائيل الجوهرية وهى أنها دولة عنصرية .. ترفع العنصر اليهودى على غيره من العناصر وبخاصة العنصر العربى ، وهى دولة تقــوم على أساس اغتصاب حق العرب واضطهادهم ومحاولة ابادتهم . ان الخلافات بين الاسرائيليين هى خلافات فى « الدرجة » وليست خلافات فى « النوع »

ونعود الى النصين المنشورين فى الصحف الاسرائيلية والنص الأول هو رسالة فى بريد القراء نشرتها احدى الصحف الاسرائيلية لمواطن عــربى اسمه محمود أسامة ويقول هذا المواطن فى رسالته :

« ان لدينا معشر المواطنين العرب المقيمين فى اسرائيل الشىء الكثير من المشاكل المزعجة كقيود السير والتنقل ومصادرة الأموال ولكننا لا نبتغى شيئا سوى السماح لنا بالعيش موفورى الكرامة على الأقل » ويواصل هذا المواطن العربى حديثه فيقول : « وحسبى أن أستشهد بما حدث من حوادث خلال أسبوع واحد فقط للوقوف على كيفية معاملتنا فى اسرائيل ففى خلال هذا الأسبوع وحده حدثت معى الحوادث التالية :

١ ـــ قال لى بائع التذاكر فى « بيت ليد » : اذهب واشتر تذاكر من عند عبد الناصر !

٢ ـــ وفى مقهى عدن أشار الينا بعض الزبائن اليهود وقالوا : عرب ، عرب ، ماذا يفعلون هنا ؟

٣ ـــ وفى مكان عملى شتمنى العمال اليهود ثم سبوا دين النبى محمد .

٤ ـــ وفى حيفا حدثت مشادة بيننا وبين بعض المواطنين اليهود لاهانتهم ايانا ، ولما ذهبنا لتقديم شكوى الى مركز البوليس قيل لنا : لم هــذا الازعاج ولاداعى لتقديم شكوى ... »

ولعل مضمون هذه الرسالة هو مايعبر عنه أحد شعراء الأرض المحتلة من رفاق محمود درويش وهو سميح القاسم فى احدى قصائده ، وفى هذه القصيدة وعنوانها « اخوة » يرد سميح على هؤلاء الذين يفتعلون الحديث عن « الاخوة الاسرائيلية العربية » من بين أبناء اسرائيل ، ثم

يمارسون فى واقع حياتهم أسلوبا من أقسى أساليب التفرقة ضد المواطنين العرب .. ويقدم سميح القاسم قصيدته بقوله : « الى الذين يعرون الاخوة من جلدها .. ويتركونها مرتجفة فى صقيع الزيف ! » ثم يقول فى القصيدة نفسها :

أخــــوك أنا ؟ من ترى ذادنى عن البيت والـــكرم عنـــــوة
تحملنى من صـــنوف العذاب بما لا أطيق وتغشــــاك زهوه
وتشـــــتمنى .. وتعلم طفلك ، شتم نبيى .. بأرض النبـــوه
تشك بدمعى اذا مابكيت وتسرف فى الظن ان سرت خطــوة
وتحصى التفاتاتى المتعبات .. فيوما أشــــار ويوما تفـــوه
وان قام ، من بين أهلك واع يبرئنى .. تزدريه بقســــــــوه
وتزجره شـــــــاجبا « طيشـــــه » وتلعن أنى توجهت لغــوه
واما شكوت .. فمنك اليك .. لتحكم كيف اشتهت فيك شهوه
فكيف أغنى قصــائد حب وسلم .. وللكره والحرب ســطوه
وأنشــد أشعار حرية .. لقضبان سجنى الكبير المشــــوه ؟

ففى كلمات الشاعر سميح القاسم مايكاد يكون تصويرا مباشرا لواقع العرب داخل اسرائيل ، وللظروف النفسية والمادية القاسية التى يعيشـــون فيها هناك ، واذا كانت أبيات سميح القاسم تصور هذا الواقع تصـــويرا فنيا فان رسالة المواطن العربى السابقة الى الصحيفة الاسرائيلية تصور نفس الواقع تصويرا حيا مباشرا من خلال الأحداث اليومية ..

وهناك نص آخر يكشف عن تلك اللعنة اليومية التى تطارد العربى فى اسرائيل حتى فى حياته العادية البسيطة ، وهذا النص الثانى نشرته احدى الصحف الاسرائيلية أيضا وذلك فى تحقيق بعنوان « الأقلية العربية فى تل أبيب » وقد جاء فى هذا التحقيق :

« أما الأماكن التى يسكنها العرب فهى فى غاية الحقارة والقذارة فى « أوسخ » أحياء تل أبيب ـ اليك مثلا هذا الشاب رشيد شريف ، فى

الحادية والعشرين من العمر ، يعمل كسفرجى فى أحد مطاعم تل أبيب ، ومن الصعب أن تفرق بينه وبين شخص آخر يهودى من حيث لباسه وسلوكه ومنظره . قال الشاب : ليس من السهل العيش كما نعيش نحن .. اننا ندعى بأسماء عبرية .. فأنا مثلا أدعى « اسحاك » لأن الزبائن لايستلطفون أسماءنا العربية .. وجميع الشبان العرب الذين يعملون فى المطاعم يسمون بالأسماء التى يعينها لهم صاحب المطعم . انه شعور بالحقارة لكن ماذا يمكن أن نعمل ؟ يجب أن نبدل أسماءنا لنعيش وحينما أمشى فى الشارع ، وأنا أحمل ترانزستور أفتحه على محطة عبرية حتى لايحسبنى الناس عربيا .. وذات مرة صادق رفيقى « محمد » فتاة يهودية ، وكان يذهب ويجىء معها ثلاثة شهور ، ويأخذها الى السينما والى شاطىء البحر ويعاملها معاملة حسنة . وذات يوم قالت انها تريد أن ترى بطاقته الشخصية ولكنه لم يطلعها عليها . ثم حدثتها انا عن العرب وقلت لها :

ـــ هل تحسبين أن هناك فرقا بين العرب واليهود ؟

قالت : لقد علمونا فى المدرسة ان العرب أشرار ... يأكلون الناس ، وما الى ذلك !!

ولم أستطع أن أسكت ، فقلت لها :

ـــ أنا عربى ودافيد أيضا عربى . لقد عاشرت دافيد فكيف وجدته ؟ هل قبلك يوما بالقوة ؟ هل تأخر يوما عن دعوتك ؟ ألم يعاملك دائما بالاحترام ؟ فما الفرق اذن ؟ فراحت تبكى وقالت :

ـــ صحيح ، صحيح ، لقد كان على مايرام .

ثم ان دافيد قال لها : اذا شئت رؤيتى فاخبرينى والا فلا .

فقالت : أنا أريد أن أراك ..

ولكنها لم تعد للاجتماع به ، لأن أهلها منعوها من ذلك ... »

هذه هى الصورة الانسانية البسيطة القاسية داخل اسرائيل ، والتى يرسمها مواطنان عاديان من العرب لا يتعرضان فيها للمشكلة السياسية

تعرضا مباشرا ، ومثل هذه الصور رغم بساطتها ، بل وسذاجتها أحيانا تكشف لنا عن ذلك الواقع الأليم الذى يعانيه العرب فى اسرائيل .. بما فى هذا الواقع من صعوبات ومشاكل وآلام يومية عنيفة ..

واذا كانت شخصية « بن جوريون » تقدم صورة اسرائيلية نموذجية للشعور بالكراهية نحو العرب والعمل على القضاء عليهم نهائيا بحيث لا يبقى لهم أثر فى أرض فلسطين ، فان هناك تصريحا أدلى به أحد كبار الموظفين الاسرائيليين يزيد الأمر وضوحا ويلقى كثيرا من الضوء على حقيقة موقف اسرائيل من العرب ، وقد أدلى الموظف الكبير بهذا التصريح فى ابريل عام ١٩٦٧ ، وفى هذا التصريح يقول الموظف الاسرائيلى :

« أعتقد أن الكيان القومى هو فوق كل اعتبار ، ان وجود أقلية عربية فى اسرائيل يعرض للخطر مستقبل الدولة اليهودية ان آجلا أو عاجلا ، وللحيلولة دون هذا الخطر فان كل شىء جائز شريطة ألا يحدث استنكارا أو احتجاجا فى العالم ، ويجب البحث عن طريقة مناسبة للتغطية وانتقاء الألفاظ والمصطلحات وقد تدعو الضرورة الى تجاهل الرأى العام العالمى »

ثم يقول هذا الموظف عن العرب :

« يجب تضييق خطواتهم ، وأخذ الأراضى منهم .. واذا أنهى عربى مدرسة ثانوية أو جامعة فلا يجوز اعطاؤه عملا ، يجب أن ندعه يتسكع ثلاث أو أربع أو خمس سنوات ، وأن يقع فريسة اليأس ويدرك ألا مكان له فى هذه البلاد ويبحث لنفسه عن بلد آخر »

وتكاد هذه الكلمات أن تكون تعبيرا نظريا دقيقا عن السياسة الاسرائيلية العملية التى تنتهجها الدولة الاسرائيلية فى معاملة العرب . انهم ينزعون الأراضى من العرب بحجج واهية . ويستولون على ثرواتهم باستمرار . ويصل بهم الأمر أحيانا الى قتل الأغنام التى يملكها العرب بسموم يرشونها على الأعشاب والمراعى ، كما يقومون بهدم البيوت العربية ، ويعملون بكل الوسائل على تجريد العربى من أى حق له أو قوة يعتمد عليها فى حياته .

بل وتعمد الأجهزة الاسرائيلية المختلفة الى محاربة العرب حتى فى ميادين « الرياضة » حيث تحدث اعتداءات متكررة وقاسية على أعضاء الفرق الرياضية العربية وعلى الجماهير العربية التى تحاول أن تشاهد المباريات المختلفة . وكل ذلك يهدف الى شيء واحد هو منع أى تجمع عربى فى أى ميدان من الميادين ، فالتجمع قد يؤدى الى تقوية المواطنين العرب حتى لو كانوا ضعفاء كأفراد ، بعد أن تم حرمانهم من جميع الفرص الطبيعية التى كان من الممكن أن تمنحهم قوة جماعية وقدرة على الدفاع عن حقوقهم ..

وبالنسبة للتعليم تضع اسرائيل قيودا عنيفة ضد تعليم العرب . فمبانى المدارس رديئة غير صحية وغير نظيفة ، والمدرسون العرب غير مؤهلين للقيام بدورهم التربوى ، ولاتتاح لهم أية فرصة لتأهيل انفسهم ، والكتب المدرسية شبه معدومة ، والقيود مفروضة على تعليم اللغة العربية ، بينما تفرض الدولة على العرب أن يتعلموا اللغة العبرية . ويكفى لكى ندرك مايعانيه العرب من ضعف فى مستوى التعليم أن نعرف أن الراسبين فى الشهادة الثانوية من الطلاب العرب يبلغون ٩٠٪ من هؤلاء الطلاب كل عام على التقريب ، يزيدون أحيانا عن هذه النسبة قليلا ، أو يقلون عنها قليلا ، ولكن النسبة العامة للراسبين تدور عادة حول هذا الرقم المخيف . وحسبنا أن نقرأ رقما آخر هو رقم حاملى الشهادة الثانوية ، حيث نجد أنه فى عام ١٩٦٢ ، كان الذين حصلوا على هذه الشهادة من العرب حوالى ٧٦ طالبا ، بينما حصل عليها من الاسرائيليين ٧٥٠٢ من الطلاب . واذا علمنا أن نسبة العرب فى اسرائيل تبلغ حوالى ١١٪ من مجموع السكان فلقد كان من الضرورى أن يكون عدد الحاصلين على الشهادة الثانوية من العرب أكثر من خمسمائة ولكنهم لم يزيدوا عن ٧٦ ، وذلك طبعا بسبب الحصار الثقافى العنيف المفروض على العرب : طلابهم ومدارسهم وكتبهم وأساتذتهم .

ومن الكتب المقررة على الطلاب العرب : التوراة ، وعلى الطالب العربى

أن يدرس التوراة لا أن يقرأها مجرد قراءة ، وفى نفس الوقت يحذف الاسرائيليون من القرآن بعض الآيات حذفا نهائيا ، ويحرمون دراستها أو قراءتها أو مناقشتها بأى شكل من الأشكال ومن هذه الآيات القرآنية المحظورة على العرب داخل اسرائيل قول القرآن الكريم فىسورةالممتحنة :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » ..

تلك هى الآية الكريمة التى حذفها الاسرائيليون من القرآن ، ومن الواضح أن حذف هذه الآية انما يقصد الى تجنب مافيها من دعوة صريحة للجهاد المقدس ضد الذين يعتدون على المسلمين باخراجهم من ديارهم وابعادهم عن أماكنهم المقدسة ومحاولة تشويه الدين الاسلامى ومحاربة أهله ، فالآية الكريمة تدعو الى الثورة ضد الاسرائيليين ومن هنا فقد حذفوها من القرآن .

ويكشف شاعرنا محمود درويش فى حديث أدبى نشرته له مجلة « الطريق » اللبنانية عن أساليب القهر الثقافى التى تفرضها اسرائيل على العرب فيقول : « فى المدرسة يعلموننا عن تيودور هرتزل أكثر مما تتعلمه عن محمد ، والنماذج التى ندرسها من شعر حاييم نحمان بياليك أكبر بكثير من نماذج شعر المتنبى ، ودراسة التوراة اجبارية أما القرآن فلا وجود له ، لذلك أحسسنا أن غزوا ثقافيا لنشر العبرية يزحف الينا ناعما كالأفعى » .

والاسرائيليون لايمارسون أساليبهم فى الاضطهاد ضد المسلمين فقط ، بل ويمارسون نفس الأساليب ضد المسيحيين أيضا . ولعل مايقوله شكرى الخازن ، وهو عربى مسيحى يعيش فى حيفا ، وذلك فى شكوى قدمها الى احدى السفارات الغربية ضد اسرائيل بسبب المعاملة السيئة التى يلقاها المسيحيون هناك .. لعل مايقوله هذا المسيحى العربى فى شكواه أن

يكشف لنا مزيدا من الحقائق عن موقف اسرائيل من العرب داخل الأرض المحتلة ..

يقول شكرى الخازن فى شكواه :

« ان السياسة التى يتبعها الاسرائيليون نحو الذين يسمونهم كفارا « جوييم » هى القضاء علينا عاجلا أو آجلا ، كما دلت على ذلك تجاربنا خلال الأعوام الثمانية عشرة الماضية ، ونحن كمسيحيين لاينبغى لنا أن ننتظر من حكام اسرائيل سوى الأعمال المؤلمة ، واذا عدنا الى الوراء رأينا سيدنا يسوع قد صلب على أيدى بنى اسرائيل . هذه حقيقة قائمة ، ويجب ألا نستهين بها بالرغم من مرور الأيام والأعوام .. اننى أعيش فى هذه البلاد وكلى اقتناع بأنه قد يأتى يوم يذبحوننا فيه ولذلك فقد أرسلت نصف أفراد عائلتى الى الخارج ، لانقاذهم من الموت . وأما النصف الآخر فقد بقى معى ليرى وينتظر مصيرنا ، وليكونوا معى ضحايا وقرابين » .

***

وليس اضطهاد الاسرائيليين للعرب . مسلمين ومسيحيين قاصرا على محاربتهم فى أرزاقهم وثقافتهم وتعليمهم وعقائدهم الدينية ، بل ويحاول الاسرائيليون أن يخلقوا نوعا من التمزق الطائفى بين العرب ، ويحاولون على وجه الخصوص أن يخلقوا فجوة بين الدروز الذين يبلغون حوالى ثلاثين ألفا وبين غيرهم من السكان العرب ، والاسرائيليون يحاولون باستمرار أن يغذوا فى الدروز فكرة معينة ، هى أنهم يمثلون قومية خاصة مستقلة لا علاقة لها بالعرب ولا بالمسلمين ، ويصدر الاسرائيليون كتبا خاصة بالدروز ويملأونها بالأفكار التى تدعو الى انفصال الدروز عن العرب انفصالا كاملا ، كما قررت السلطات الاسرائيلية اقامة محاكم خاصة للدروز والسماح باعتبار « القومية الدرزية » قومية مستقلة ، وكتابتها فى البطاقات الشخصية للأفراد . كما أن الاسرائيليين يقبلون الشبان الدروز فى الجيش الاسرائيلى ، وهو الأمر الممنوع تماما بالنسبة للعرب ، والواقع أن الاسرائيليين يحاولون تزوير التاريخ بهذه الطريقة ، فالدروز

فى حقيقة أمرهم ، وكما يقول المحامى صبرى جريس فى كتابه عن عرب اسرائيل : « هم طائفة دينية عربية تأسست فى نهاية القرن العاشر الميلادى وطقوسها الدينية مشابهة فى أكثر تفاصيلها للديانة الاسلامية ، وهـــذه الطائفة تشكل من وجهة قومية ، جزءا لايتجزأ من الأمة العربية وتاريخها الحافل بالحرب ضد الاستعمار الفرنسى فى سورية فى العشرينات من هذا القرن ليس الا قسما من التاريخ العربى ، والجدير بالذكر أن القسم الأعظم من المثقفين والشباب الدروز يستنكرون « خلق » هذه القومية الجديدة ويفخرون بانتسابهم الى الأمة العربية » .

هذا مايقوله صبرى جريس ، الكاتب والمواطن العربى الذى يقيم داخل اسرائيل[١]، حيث يكشف عن هدف اسرائيل فى خلق تمزق طائفى تريد أن تفرضه على العرب فى الأرض المحتلة ، ويمكننا أن نضيف الى ما يقوله « صبرى جريس » : ان الطائفة الدرزية داخل اسرائيل قد أنجبت شاعرا من أبرز شعراء المقـــاومة الشبان ومن رفاق محمود درويش هو سميح القاسم ، وهو شاعر شاب موهوب ، يفيض شعره بالغضب الثورى وتظهر دواوينه الشعرية وبها كثير من الصفحات البيضاء حيث تحذف الرقابة فى اسرائيل هذه القصائد وتعترض عليها ، والمشاعر التى يعبر عنها سميح القاسم ، هى مشاعر مواطن عربى حر غاضب مؤمن بقوميته العربية .. يدعو اليها بحرارة وايمان . وعندما ظهر ديوانه « أغانى الدروب » كتبت احدى الصحف الاسرائيلية عن هذا الديوان تقول :

« ظهر فى الناصرة كتاب حافل بالأشعار الوطنية بعد أن توقف صدور مثل هذه الكتب سنين عديدة .. وهو بعنوان « أغانى الدروب » من تأليف الشاعر سميح القاسم من قرية الرامة ، قضاء عكا . وهذا الشاعر هو الشاب العربى الاسرائيلى الذى خدم فى الجيش الاسرائيلى خـــدمة الزامية ، باعتباره درزيا ، ومع ذلك فقد نظم شعره بروح هى أعنف ماظهر

(١) خرج صبرى جريس من الارض المحتلة سنة ١٩٧٠ وهو يقيم الآن فى بيروت حيث يعمل فى مركز الابحاث الفلسطينية

فى اسرائيل منذ قيام الدولة ، بل انها روح ثورية لم تر المطبعة الاسرائيلية مثيلا لها من قبل . وفى احدى قصائد هذا الديوان يهزأ الشاعر ممن يدعون للسلام ويتنصل منهم . وفى قصيدة أخرى يعبر عن سخطه على الذين يدعون الى التحاب والتعايش بين العرب واليهود ، وفى قصيدة ثالثة يرثى الشاعر لحال اللاجئين ويدعو الى الثورة لاعادة الابتسامة الى شفاه الصغار ، ويعلن فى احدى قصائده استعداده لتحمل مسئولية دعوته » .

هذا الشاعر الدرزى الشاب سميح القاسم ، حاولوا أن يجعلوا منه عدوا للعرب والعروبة ، وحاولوا أن يجعلوا منه انسانا متعاونا مع الاسرائيليين مهادنا لهم ، حاولوا أن يقنعوه بأنه درزى وليس عربيا ، وان الخلاف كبير بين الاثنين فلم يقتنع بشىء من ذلك ، بل كانت أصالته كعربى وصاحب قضية ، أقوى من كل محاولات التزييف فوقف فى وجه هذه المحاولات وانتصر عليها تماما .

ولنقف لحظة مع نماذج من شعر هذا الشاب الموهوب وهى نماذج ترد بقوة على المحاولات الاسرائيلية لخلق انقسام طائفى بين العرب داخل اسرائيل سواء كان هؤلاء العرب مسلمين أو مسيحيين أو من بين الدروز!.. فسميح القاسم الدرزى يهاجم الاحتلال الاسرائيلى لفلسطين هجوما عنيفا يؤكد أن الشبان الدروز لم يستجيبوا للمحاولات الاسرائيلية فى ابعادهم عن الشعور بعروبتهم وبأنهم ينتمون الى الأمة العربية انتماء كاملا .

يقول سميح القاسم فى قصيدة له بعنوان « القصيدة الناقصة » يصور فيها كيف اعتدى الاسرائيليون على العرب وسلبوا منهم أرضهم : فلسطين ويؤكد الشاعر أن القصة لم تنته وأن لها بقية سوف تحمل العدل يوما الى المظلومين ... يقول الشاعر فى هذه القصيدة :

وكان ذات يوم
أشأم مايمكن أن يكون ذات يوم
شرذمة من الضلال

تسربت تحت خباء الليل
الى عشاش .. دوحها فى ملتقى الدروب
أبوابها مشرعة
لكل طارق غريب
وسورها أزاهر وظل
وفى جنان طالما مر بها اله
تفجرت على السلام زوبعة
هدت عشاش سربنا الوديع
وهشمت حديقة .. ماجددت « سدوم »
ولا أعادت عار « روما » الأسود القديم
ولم تدنس روعة الحياة
وسربنا الوديع
ويلاه .. ان أحرفى تتركنى
ويلاه .. ان قدرتى تخوننى
وفكرتى من رعبها تضيع
وينتهى هنا ...
أمر ماسمعت من أشعار
قصيدة صاحبها مات ولم تتم
لكننى أسمع فى قرارة الحروف
بقية النغم
أسمع يا أحبتى .. بقية النغم

والذى يعنيه سميح القاسم بالجنة التى دخلتها الصلال « الثعابين والأفاعى » هو تقديم صورة رمزية واضحة لفلسطين التى دخلها الاسرائيليون بسمومهم وقسوتهم ونزعتهم التدميرية . والذى يعنيه سميح القاسم فى قوله : « لكننى أسمع فى قرارة الحروف ... بقية النغم » هو

أن القصـــة المحزنة لم تنته ، فسوف ينـــال المظلومون يوما كل حقوقهم وسوف يستعيدون ما سلبته الثعابين والأفاعى منهم ، والقصيدة عنوانها « القصيدة الناقصة » لأن الأمور لا يمكن أن تنتهى عند هـــذه الحدود التى أخذ فيهـــا اليهود أرض فلسطين . والشاعر يصف هـــذه القصيدة بقوله :

أمر ما سمعت من أشعار
قصيدة ••• صاحبها مجهول

وصاحب هذه القصيدة ليس مجهولا لأنه لا قيمة له ، بل لانه هو كل عربى مسته يد الظلم ، وأساءت هذه اليد الى وطنه وأهله اساءة أليمة دامية .

أما قصيدة سميح القاسم التى يرفض فيها « السلام » والتى أشارت اليها الصحيفة الاسرائيلية فهى قصيدة بعنوان « ... للسلام » وفى هـــذه القصيدة يرى الشاعر أنه لامعنى للحديث عن السلام بعد هذا الظلم الفادح الذى حل بالعرب .

ويقول الشاعر فى فن جميل وغضب ثورى أصيل :
ليغن غيرى للسلام
والعين ماعادت تبل صدى شجيرات العنب
وفروع زيتوننا ... صارت حطب
لمواقد اللاهين .. ياويلى حطب
وسياجنا المهدود أوحشه صهيل الخيل فى الطفل المهيب
والجرن يشكو الهجر .. والابريق يحلم بالضيوف
بالـ « ياهلا » ... عند الغروب
ورؤى البراويز المغبرة الحطيمة
تبكى على أطرافها تنف من الصور القديمة
وحقائب الأطفال .. أشلاء يتيمة

لبثت لدى أنقاض مدرسة مهدمة حزينة
مازال فى أحنائها .. مازال يهزأ بالسكينة
رجع من الدرس الأخير ..
عن المحبة والسلام
ليغن غيرى للسلام
وعلى ربى وطنى
وفى وديانه
قتل السلام !

ان سميح القاسم يمثل الضمير الدرزى داخل أسوار اسرائيل خير تمثيل ، وهو ضمير عربى مخلص للأمة العربية ، لم تفلح معه كل المحاولات الاسرائيلية لفصله عن جذوره العربية الأصيلة ، بحيث يصبح على عداء مع العرب ، ويعيش فى كراهية عنيفة لهم ، وبحيث يشعر بأن قضية فلسطين العربية ليست قضيته .. لقد فشل الاسرائيليون فى هذا كله . وها هو سميح القاسم يعلن فى وضوح : انه عربى فى كل حرف يكتبه ، وفى كل قطرة من قطرات دمه ، وفى كل نبضةمن نبضات قلبه . وهو بذلك يعلن فشل سياسة التفرقة الطائفية التى تحاول اسرائيل أن تشعلها بين العرب المقيمين داخل الأسوار الاسرائيلية .

واذا كانت اسرائيل قد فشلت بوضوح فى التأثير على جماهير الدروز ، وتمزيق الصلات الأساسية التى تربطهم ، تاريخا ودما وثقافة ، بالأمة العربية ، فانها قد استطاعت أن تسيطر على قلة قليلة من زعماء الدروز فى اسرائيل ، وهى نسبة ضئيلة لاتعبر عن مصالح الدروز أو مشاعرهم الحقيقية . وحول هذه المجموعة القليلة من الدروز الذين يتعاونون مع السلطات الاسرائيلية يتحدث صبرى جريس فى كتابه عن « العرب فى اسرائيل » فيقول :

« ينبغى أن نشير الى أن تدخل اسرائيل فى شئون الطائفة الدرزية قد

تم نتيجة لخضوع زعماء هذه الطائفة التقليدية لسلطات اسرائيل ، وماهؤلاء الزعماء الا فريق من الجهلة والمرائين الذين يلبون طلبات الحكومة ، فى حين أن الطائفة الدرزية بالذات لم تستفد شيئا من هذا الخصوع فالقسم الأعظم من قراها متأخر غاية التأخر اذا ماقورن بسائر القــرى العربية فى اسرائيل ، والجدير بالذكر أن السياسة الاسرائيلية هذه قد قابلها الشباب والمثقفون الدروز بمعارضة شديدة وهم ثائرون عليها ويطالبون بتغييرها باستمرار » .

ان الطائفة الدرزية فى الوطن العربى خارج اسرائيل ، تقف فى صف القضية العربية بقوة ووضوح ، وقد أنجبت هذه الطائفة عددا كبيرا من القيادات الوطنية العربية التقدمية ، وحسبنا أن نذكر فى هذا الميــدان الزعيم اللبنانى المعروف كمال جنبلاط ، وهو زعيم من طائفة الدروز ، وهو من الزعماء العرب البارزين الذين يدافعون عن الأمة العربية والقومية العربية والتقدم العربى بصدق وحرارة واخلاص .

هكذا يحاول الاسرائيليون أن يستخدموا أسلوب التفرقة الطائفية فى صفوف العرب داخل أسوار اسرائيل ، ويحاولون أيضا استخدام شتى أساليب الاضطهاد ضد هؤلاء العرب . فالعرب يتعرضــون لما يســميه الاسرائيليون بالحكم العسكرى . وهذا الحكم العسكرى يفرض على العرب ألوانا من القيود تشل حركتهم ، وتضعهم على الدوام فى ظروف قاسية يخضعون فيها لألوان من التنكيل والارهاب . فمن حق الحاكم العسكرى الذى يتولى حكم المناطق العربية فى اسرائيل أن يقرر ســجن أى مواطن عربى فى أى لحظة ، وأن يمنعه من التنقل من بلد الى آخر ، أو من منطقة الى أخرى فى المدينة الواحدة ، ومن حق الحاكم العسكرى أن ينزع أراضى العرب وممتلكاتهم لأتفه الحجج والأسباب وفى ظل هذا الحكم العسكرى يتم طرد العرب فى أعمالهم ، ويتم فرض رقابة واسعة على كتاباتهم ومطبوعاتهم واجتماعاتهم ونواديهم المختلفة . وتتيجة للحكم

العسكرى تم حل جماعة « الأرض » العربية ، وهى الجماعة التى كانت تهدف الى خلق نوع من التنظيم السياسى العلنى للدفاع عن حقوق العرب داخل اسرائيل ، واعتبرت السلطات الاسرائيلية أى نشاط لهذه الجماعة معاديا للدولة ، واعتقلت الكثيرين بتهمة الاشتراك فى هذه الجماعة وصادرت كثيرا من المطبوعات العربية بحجج مختلفة على رأسها أن هذه المطبوعات تعبر عن جماعة « الأرض » الممنوعة .

وفى ظل الحكم العسكرى المفروض على العرب داخل اسرائيل طردت السلطات الاسرائيلية الكتاب والشعراء العرب من أعمالهم وأدخلتهم السجون مرة بعد مرة . فالشاعر سميح القاسم ، خرج من الجيش الاسرائيلى ، حيث تسمح اسرائيل بتجنيد الدروز ، ثم عمل مدرسا فى احدى المدارس العربية ، ولكنه طرد من عمله لأنه ثورى ، وله نشاط معاد للدولة الاسرائيلية . أما شاعرنا محمود درويش فقد أتم دراسته الثانوية ولم تسمح له السلطات الاسرائيلية بأن يتم تعليمه العالى . ثم عمل فى جريدة « الاتحاد » العربية التى يصدرها الحزب الشيوعى العربى فى حيفا ثم طرد من هذه الجريدة ، ثم عاد اليها وطرد مرة أخرى ، وكانت التهمة الموجهة اليه دائما هى أشعاره الثائرة التى اعتبرها الاسرائيليون ضد الدولة . وقد اعتقل محمود درويش مرارا ، ودخل السجون الاسرائيلية وذاق فيها ألوانا من العذاب ، ولكن معدنه النضالى الصلب ، ظل قويا أصيلا يزداد توهجا واشتعالا كلما ازداد عنف الاضطهاد الموجه اليه ..

وتسمح السلطات الاسرائيلية بطبع بعض القصص التى تصدر فى العواصم العربية المختلفة ليقرأها العرب داخل اسرائيل . ولكنهم يحرصون على أن يختاروا من هذه القصص مايكون بعيدا عن القضايا الوطنية والثورية للأمة العربية . ومن الحوادث الطريفة فى هذا الميدان أنهم سمحوا بطبع رواية « أنا أحيا » للكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكى ، ثم اكتشفوا

أن الرواية تتضمن أفكارا عنيفة لا تتفق مع تكوين اسرائيل والفكر الصهيونى وكانت الرواية قد صدرت وقرأها العرب .. وبسرعة أصدرت السلطات الاسرائيلية قرارا بمصادرة الرواية وجمعها من الأسواق . وتمت المصادرة بالفعل . كل ذلك يكشف أمامنا بوضوح عن ذلك الارهاب الفكرى الذى تفرضه السلطات الاسرائيلية على العرب ، حيث تعمل هذه السلطات بكل قوة على خلق حصار ثقافى خانق يقضى عليهم فكريا وروحيا ، بحيث ينعزلون تماما عما يجرى فى الوطن العربى خارج أسوار اسرائيل ، وبحيث ينعزلون عن بعضهم البعض ، فلا يتجمعون فى أى نوع من أنواع التجمع الثقافى أو السياسى ، حتى يصبح العرب فى نهاية الأمر مثل النبات المنزوع من أرضه والمحروم من كل ظروف النمو والحياة ، والمعرض للذبول والموت.
ومن المعروف أن الحكومة الاسرائيلية لاتسمح عموما بنشر الكتب العربية الا على نطاق ضيق . وهى تختار من هذه الكتب النصوص الأدبية . فهى لاتسمح بنشر أى دراسات فكرية أو سياسية ، وكما يقول الدكتور أنيس صايغ فى مقال له بعنوان « ماذا يقرأ العرب فى اسرائيل » :

« ان الحكومة ودور النشر التى يهمها أن تمنع عرب فلسطين المحتلة من مناقشة قضاياهم بشكل مباشر تحاول أن تبعدهم عن هذه المناقشة عن طريق تشجيع صنف واحد من المنشورات الأدبية الصرف ــ من قصة وشعر ورواية ــ وذلك على حساب الكتابات الفكرية والبحوث والدراسات ولذلك فمن بين الأربعة والستين كتابا التى وضعها كتاب فلسطينيون عرب « من ١٩٤٨ الى ١٩٦٨ » وطبعوها فى فلسطين المحتلة يوجد ٢١ ديوان شعر و ١٩ مجموعة قصصية و ١١ رواية . ولا يبلغ عدد البحوث والدراسات الا ١١ ومعظمها بحوث ودراسات هزيلة وفى موضوعات غير مهمة . كما أن الأغلبية الساحقة من الكتب العربية التى أعيد طبعها فى فلسطين المحتلة لكتاب عرب غير فلسطينيين هى أيضا كتب أدبية » ...
هذا هو مايكشفه لنا الدكتور أنيس صايغ من واقع الحياة الثقافية للعرب

داخل اسرائيل فالسلطات الاسرائيلية تحرص كل الحرص على اختيار هذه الكتب الأدبية بصورة تحقق كل أهداف الحصار الثقافى . فمن الضرورى أن تكون الكتب المسموح بها لتوفيق الحكيم أو للعقاد أو لطه حسين كتبا بعيدة عن أى قضايا سياسية أو وطنية .

هذا هو الحصار المادى والاقتصادى والفكرى الذى يفرضه الحكم العسكرى على المواطنين العرب فى اسرائيل . وقد تردد صدى هذا الحكم العسكرى فى الشعر العربى الذى يكتبه شعراء الجيل الجديد . فنحن نجد على سبيل المثال أن الشاعر سميح القاسم يكتب قصيدة بعنوان « الساحر والبركان » حيث يقول فى مقدمتها : « انها أسطورة مهداة الى الحكم العسكرى » .. وفى هذه القصيدة يقول الشاعر :

وشعوذ الساحر فانطلق
من قمقم البحار .. مارد صغير
يريد للزورق أن يقبل الغرق
يريد للحرية الحمراء
أن تقطن فى كوخ ... من الورق
يريد للجذور أن تحيا بلا شجر
يريد للانسان أن يحيا بلا ثمر
يريد للانسان أن يموت فى الحياة
يريد أن . . .
وانفجر البركان
والتهمت ساحره النيران
فعاد للقمقم يستجير
بساحر جديد
ليس له وجود

والرموز فى القصيدة واضحة ، فالساحر هو اسرائيل ، والمارد هو الحكم العسكرى ، والبركان هو الثورة العربية التى يؤمن بها الشاعر

ويرى أنها سوف تلتهم الساحر والمارد معا ، فهما يريدان أن يفرضا على الحياة قيودا لايمكن فرضها ولا يمكن أن تقبلها الحياة الطبيعية . وهذا النوع من الحكم العسكرى فى اسرائيل سوف يؤدى الى الانفجار الذى يقضى على كل القيود .

وهناك قصيدة أخرى لشاعر آخر من رفاق محمود درويش أيضا هو الشاعر راشد حسين (١) ، وهو واحد من الشعراء الشبان الثائرين الذين يعيشون داخل الأرض المحتلة ويعانون مع بقية المواطنين ألوان الاضطهاد المختلفة ، وقبل أن نقرأ القصيدة يحسن بنا أن نعرف فكرة سريعة عن موضوعها فمن بين قوانين الحكم العسكرى قانون يعين « قيمبا على أملاك الغائبين » من العرب وهى صيغة قانونية شكلية لسرقة الأراضى واغتصابها من أصحابها .. يقول صبرى جريس فى كتابه عن « العرب فى اسرائيل » :

« ان ماهو أكثر اثارة للذهول انما هو تطبيق هذا القانون على أملاك الوقف الاسلامى فى البلاد ، فحسب قوانين الدين الاسلامى ، تعتبر ملكية الوقف تابعة لله ، ويحول دخل هذه الأملاك لأبناء الطائفة أو لمشروع خيرى أو لهدف جعلت هذه الأملاك وقفا عليه ، وفى هذه الحالة لايمكن الافتراض أن الطائفة الاسلامية لم يعد لها وجود فى البلاد بعد قيام الدولة لكن رغم ذلك نقلت أملاك الوقف الاسلامى الى القيم على أملاك الغائبين وربما كان ذلك على أساس الافتراض بأن الله « غائب » حسب قانون أملاك الغائبين » .

وحول هذا الموضوع كتب الشاعر راشد حسين قصيدته التى يقول فيها :

الله أصبح غائبا يا سيدى
صادر اذن حتى بساط المسجد
وبع الكنيسة فهى من أملاكه

(١) خرج راشد حسين تحت الضغط والارهاب من الارض المحتلة منذ سنوات وهو يعيش الآن فى امريكا

وبع المؤذن فى المــــزاد الأسود
حتى يتـــامانا أبوهم « غائب »
صـــادر يتامانا اذن يا سـيدى
لا تعتذر ... من قال انك آثم ؟ !
لاتعتذر ... من قال انك معتدى ؟!
حررت حتى السائمات ... غداة ان
أعطيت ابراهــام أرض محمـــد
فخيولنــا فوق الجبــال طليقـة
والثور يستسـقى أمام المــزود
والحقل يقرئك السـلام .. فقمحه
شـكر تجمع فى بحـيرة عسجد
أو لم « تحرر » عنقه من حاصـد
قاس .. ليصبح ملك « أمدن سيد»
هل شـعبك المختار أمدن سيد ؟
أم شـــعبك المختار أمدن معتدى
أنا لو عصرت رغيف خبزك فى يدى
لرأيت منــه دمى يسيل على يدى

ان الشاعر هنا يفضح الحكم العسكرى الاسرائيلى فى هذه الأبيـات المليئة بالسخرية والصدق والمرارة .. فالحكم العسكرى الاسرائيلى يصدر قوانين متعسفة لنزع الأراضى العربية من أصحابها ، بالاضافة الى مايقوم به هذا الحكم من أعمال ارهابية فى ميدان الفكر والثقافة والتعبير عن الرأى ، وفى ميدان العمل والحريات الشخصية .. والحكم العسكرى نموذج فريد للارهاب الذى يمثل العقلية الصهيونية والضمير الصهيونى خير تمثيل ولن تكتمل صورة الارهاب الصهيونى أمامنا الا اذا توقفنا أمام مثـال نموذجى من أمثلة الارهاب الاسرائيلى ، وقد تجسد هذا المثال فى مذبحة كفر قاسم .

كفر قاسم

ياحبيبى
لا تلمنى ..
قتلونى ..
قتلونى ..
قتلونى ..

محمود درويش

***

لايمكن أن يقوم مجتمع انسانى حدثت فيه مثل هذه النذالة دون أن تثور فيه رعشة غضب ...

الشاعر اليهودى
نتان الترمان

فى عام ١٩٠٦ وقعت فى القرية المصرية الصغيرة دنشواى تلك المذبحة المشهورة التى قام فيها الانجليز بشنق عدد من الفلاحين وجلد بعضهم ، وكل ذلك تم أمام أهالى القرية وأقرباء الضحايا . وكانت هذه الحادثة ذات دوى ضخم فى داخل مصر وخارجها ، وقد اتخذ منها الكاتب الايرلندى العالمى برناردشو فرصة شن من خلالها حملة عنيفة ضد « كرومر » المندوب السامى الانجليزى فى مصر وضد الاستعمار الانجليزى عموما ، كذلك اتخذ منها مصطفى كامل فرصة لفضح الاستعمار الانجليزى أمام الرأى العام المحلى وأمام الرأى العام العالمى . وقد انتهت هذه الحادثة بخروج « كرومر » من مصر واشتداد قوة المقاومة المصرية للاحتلال الانجليزى .

ولم تكن حادثة « دنشواى » فى حد ذاتها سببا فى كل هذه الضجة العالمية التى ثارت حولها ، فما أكثر ضحايا الاحتلال الانجليزى منذ أن دخل المحتلون البلاد عام ١٨٨٢ ، ولكن حادثة « دنشواى » كانت تجسيدا لأساليب الاستعمار فى معاملة المواطنين ، وخلاصة هذه الأساليب أنه لاقيمة لأى اعتبار انسانى فى سبيل تثبيت أقدام الاستعمار فى البلاد ، كما أن المذابح التى تقوم بها سلطات الاحتلال كانت وسيلة واضحة من وسائل الارهاب ، وماكان شنق الفلاحين فى « دنشواى » الا درسا أراد به الانجليز أن يخيفوا شعب مصر ، وكأنهم أرادوا أن يقولوا للمواطنين : ان كل متمرد سوف يكون مصيره هو نفس مصير الفلاحين التعساء فى « دنشواى » ، ومثل هذا الأسلوب هو نفسه الأسلوب الذى اتبعته سلطات الاحتلال الاسرائيلية فى فلسطين منذ قيام دولة اسرائيل الى اليوم . بل لقد

وصلت اسرائيل فى هذا الميدان الى أقصى درجات التطرف ، فجعلت من « المذابح » جزءا أساسيا من سياستها لارهاب العرب فى الأرض المحتلة وفى خارجها على السواء . ان الاستعمار الصهيونى هو تلميذ للاستعمار الانجليزى. ولقد عاش الصهيونيون طويلا فى ظل الانتداب الانجليزى على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى ولمدة ثلاثين عاما تقريبا امتدت من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٨ واستفاد الصهيونيون فائدة واسعة من المساعدات الضخمة التى قدمتها سلطات الانتداب الانجليزى لتشجيع هجرة اليهـود الى فلسطين ، كما استفادوا سياسيا وأدبيا من وعد بلفور الانجليزى عـام ١٩١٧ ، وأخيرا فقد تعلم الصهيونيون كثيرا من أساليب العمل الاستعمارى الانجليزى ، وتفوقوا على الانجليز بعد ذلك فى تطبيق هذه الأساليب .

ومنذ اعلان قيام الدولة الاسرائيلية ، بل وقبل قيامها والاسرائيليون يعتمدون على أسلوب الارهاب العنيف حتى تمتلىء نفـوس المواطنين العرب بالذعر وتستسلم لمطالب الاسرائيليين . ولذلك يلجأ اليهود بين الحين والحين للقيام بمذابح عنيفة قاسية يكون هدفها الأساسى هو اشاعة الرعب فى قلوب العرب .

وكانت أول مذبحة شهيرة من هذا النوع هى مذبحة « دير ياسين » التى قام بها الاسرائيليون فى ٩ ابريل عام ١٩٤٨ . وفى هذه المذبحة العنيفة قتل الاسرائيليون فى ساعات قليلة مايقرب من مائتى مواطن عربى من بينهم نساء وأطفال وشيوخ ، بل وكان من بينهم حوامل أيضا . ولم يكتف الاسرائيليون بعملية القتل الجماعية ، بل قادوا من بقى من الأحيـاء فى القرية العربية وثيابهم ملوثة بدماء أقربائهم ومواطنيهم من الضـحايا ليقوموا بعملية استعراض لهم فى شوارع القدس حتى يزرعوا بذلك رعبا عنيفا فى قلوب العرب فلا يكون أمامهم الا أن يتركوا بلادهم ويهربوا بعد أن رأوا بأعينهم ما أصاب اخوانهم من أبناء « دير ياسين » . ولقد كان لهذه المذبحة بالفعل أثرها الكبير على العرب ، وكانت من أهم أسباب

الهجرة العربية من فلسطين بصورة جماعية عنيفة عام ١٩٤٨ .

ولقد أصبحت وقائع مذبحة « دير ياسين » أمرا معـروفا ، ذلك لأن « دير ياسين » نالت سمعة عربية وعالمية واسعة نتيجة لما حدث فيها من وقائع قاسية .

ولكنني أود هنا أن أنقل ماكتبه المسئول عن هذه المذبحة وهو الزعيم الصهيونى ميناحم بيجن أحد دعاة العنف والتشدد فى اسرائيل ، وهو وزير الدولة فى وزارة اسرائيل التى قامت بالعـدوان على العرب فى ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، وظل عضوا بالوزارةحتى استقال سنة ١٩٧٠ . لقد تحدث ميناحم بيجن عن مذبحة « دير ياسين » وذلك فى كتاب له بعنوان « الثورة » يروى قصة حياته وقصة المنظمة التى أنشأها وتزعمها وهى منظمة « الارغون زفاى ليومى » أو « المنظمة العسكرية القومية » .. يقول ميناحم فى كتابه الذى ترجمه الى العربية الأستاذ سمير صنبر :

« لقد قامت دعاية عالمية ضدنا تعلن أننا ارتكبنا الفظائع فى « دير ياسين » . والحقيقة هى أننا أنذرنا الأهالى قبل الهجوم ، ونظرا لاشتداد المعركة التى خسرنا فيها كثيرا من رجالنا اضطررنا الى استعمال القنابل اليدوية مما أدى الى موت الأهالى الذين رفضـوا أن ينسـحبوا من القرية . وقد أرسلت الوكالة اليهودية رسالة الى الملك عبد الله تعتذر له فيها عن حادث « دير ياسين » وقد رد الملك عبد الله على الاعتذار قائلا : « ان الوكالة اليهودية مسئولة أيضا وانه لايعترف أن هناك ارهابيين وغير ارهابيين » . وهكذا قامت فى البلاد العربية ، وفى جميع أنحاء العالم موجة من السخط على ماسموه « بالمذابح اليهودية » وقد كانت هذه الدعاية العربية تقصد الى تشويه سمعتنا ولكنها أنتجت لنا خيرا كثيرا ، فقـد دب الذعر فى قلوب العرب ، فقرية « كالونيا » التى كانت ترد هجمات « الهاجاناه » الدائمة هجرها أهلها بين ليلة وضحاها واستسلمت بدون قتال ، وهرب أهالى « بيت اكسا » أيضـا . وبسـقوطهما واحتـلال

« القسطل » استطاعت القوات اليهـودية أن تحافظ على الطـريق الى القدس . وفى أماكن كثيرة كان العرب يهربون دون أن يشتبكوا مع اليهود فى أى معركة وقد ساعدتنا أسطورة « دير ياسين » فى المحافظة على طبريا واحتلال حيفا . وعندما تقدمت جميع القوات اليهودية فى هجومها الناجح على حيفا كان العرب يهربون مذعورين صائحين : دير ياسين !! »

هذا هو مايقوله ميناحم بيجن ، وهو يكشف لنا بوضوح كامل عن مغزى المذابح الاسرائيلية وخططها الدقيقة فهى تهدف الى تقديم نموذج يخيف العرب ويرهبهم ويؤدى بهم الى الاستسلام للخطط الاسرائيلية .

وبعد مرور ثمانية أعوام على مذبحة « دير ياسين » قدمت اسرائيل نموذجا آخر من سياستها الارهابيـة فى مذبحة جـديدة قامت بهـا عام ١٩٥٦ ، وذلك فى قرية « كفر قاسم » العربية ، والتى تضم حوالى ألفين وخمسمائة مواطن كلهم من العـرب . وقد حدثت هـذه المذبحة ليلة العدوان الثلاثى على مصر أى فى مساء ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ . وكان الهدف من هذه المذبحة هو نفس الهدف من مذبحة « دير ياسين » وهو ارهاب العرب واشاعة الذعر فى نفوسهم ، وكان التخطيط فى هذه المذبحة موجها الى عرب الأرض المحتلة وخاصة فى مناطق الحدود ، فقد كان من أهم أهداف هذه المذبحة دفع العرب للهروب الى البلاد العربية المجاورة وبذلك يتخلص الاسرائيليون من جزء من السكان العرب .

وتبدأ مأساة كفر قاسم عندما قررت السلطات الاسرائيلية منع التجول فى القرية العربية فى تلك الليلة ابتداء من السـاعة الخامسـة مساء حتى السادسة صباحا ولكنهم لم يبلغوا أهالى القرية بهذا القرار الا بين الساعة ٤٫٣٠ والساعة ٤٫٤٥ ، أى قبل موعد منع التجول بحوالى ربع ساعة . وكان من الطبيعى ألا يصل الأمر لكل أهل القرية فى تلك الفترة القصيرة وخاصة بالنسبة للعمال الذين يقومون بالعمل خارج القرية . وقد عاد مايقرب من خمسين عاملا من أهل القرية بعد منع التجول بقليل فأطلق

الجنـود الاسرائيليون النيران عليهم وقتلوهم دون أن يعـرف هؤلاء الضحايا سببا لذلك أو يعرفوا حقيقة التهمة الموجهة اليهم فى نظر السلطات الاسرائيلية .

وهذه بعض وقائع المذبحة كما رواها بعض الذين نجوا منها وكمـا نشرتها الصحف الاسرائيلية نفسها ، وترجمها عن العبرية الأستاذ ربحى كمال فى كتابه عن « العرب فى الأرض المحتلة » .

يتحدث العامل عبد الله سمير بدير من قرية كفر قاسم فيقول :

« فى الساعة الخامسة الا خمس دقائق وصلت الى مدخل القرية مع ثلاثة آخرين من العمال ، وكنا نمتطى الدراجات ، والتقينا بدورية من حرس الحدود على سيارة ، وعددهم ١٢ شرطيا مع ضابطهم ونزل رجال الشرطة وأمرونا بالوقوف وأصدر الضابط أمره باطلاق الرصاص علينا . ولما بدأ رجال الشرطة باطلاق النار ، ارتميت أنا عبـد الله بدير ، على الأرض وتدحرجت الى الحجرة المجاورة للطريق وأنا أصرخ ، ولكنى لم أصب بأذى ، وتوقفت عن الصراخ وتظاهرت بالموت . واستمر الجنود فى اطلاق النار على العمال المصابين حتى قال لهم الضابط : كفى ... ووصلت بعد ذلك عربة « كارو » تحمل ثلاثة عمال فأوقفت الدورية العربة وأطلقت النار على العمال فقتلتهم وابتعدت الدورية عن ذلك المكان بضع عشرات من الأمتار ، واحتلت استحكاما آخر على الطريق . ووصل عدد آخر من العمال وسيارة شحن مملوءة بالعمال ، فانتهزت الفرصة وركضت نحو القرية فأطلقت الدورية النار على ، ولكننى لم أصب ، واختبأت فى أحد البيوت الأولى للقرية حتى انتهى منع التجول »

ومن بين سيارات الشحن التى وصلت الى مدخل القرية سيارة تحمل ١٣ عاملة ، بالاضافة الى السائق ومعاونه ، وكن عائدات من عملهن فى قطف الزيتون خارج القرية . وعن مصير ركاب هذه السيارة تحدثت هناء سليمان عمر ، وعمرها ١٦ عاما قائلة :

.. « أوثقونا عند مدخل القرية وأمروا السائق ومعاونه بالنزول لقتلهما ، فراحت النساء يبكين ويتوسلن طالبات عدم قتلهما ، ولكن رجال الشرطة صاحوا : سنقتلكن أنتن أيضا . ولما قتلوهمــا راحوا يتشاورون فيما يفعلون بالنساء . وسمعت أحد الجنود يتحدث باللاسلكي . وفى الحال راح رجال الشرطة يقتلون النساء ، وبعضهن نساء حوامل ، واحداهن فى شهرها الثامن هى فاطمة داود صرصور ، وبينهن عجائز تتراوح أعمارهن بين ٥٠ و ٦٠ عاما ، وفتيات صغيرات مثــل لطيفة عيسى ورشــيقة بدر لايتجاوزن ١٣ عاما . أما أنا فقد جرحت ، وسقطت بين الجثث وظنوا أننى فقدت الحياة .. »

وقد استمرت هذه المذبحة حتى بلغ عدد القتلى من سكان القــرية حوالى الخمسين سقطوا واحدا بعد الآخر .. بحجة أن هؤلاء الضحايا خالفوا أمر منع التجول ، والحقيقة أنهم لم يسمعوا به نهائيا ، ولم يكن فى الامكان أن يسمعوا به ، لأن القرية سمعت بهذا الأمر بعد اصداره بفترة قصيرة تتراوح بين نصف ساعة وربع ساعة .

هذه المذبحة التى قام بها الاسرائيليون عام ١٩٥٦ ، تجســد روحهم العدوانية نحو العرب فى الأرض المحتلة ، وهى روح تحركها رغبة عاتية فى الانتقام والتدمير .

على أن مذبحة كفر قاسم لم تمر بسلام على السلطات الاسرائيلية ، فقد جعل منها العرب فى الأرض المحتلة ذكرى قومية يحتفلون بها كل عام بالمظاهرات والاضرابات ، وكثيرا ما تقوم الســلطات الاسرائيلية بفرض الحصار على « كفر قاسم » ومنع الدخول اليها أو الخروج منها فى يوم ذكرى المذبحة . لقد أصبحت «كفر قاسم» شرارة نضالية لاتنطفىء أبدا ، وأصبح شــهداء « كفر قاسم » جيشــا يحــارب حربا عنيفــة ضــد الاسرائيليين ، ولا يملك هذا الجيش من الشهداء مسدسات أو بنــادق أو قنابل ، وانما يملك ماهو أقوى من ذلك كله ... انه صرخات المظلومين

والأبرياء من الأطفال والصبايا والشباب والعجائز ، وهي صرخات يطلقها هذا الجيش من الشهداء ضد سلطات الاحتلال والاغتصـاب ، وسيظل يطلقها حتى يوم الحساب والحرية الكاملة .

ولقد حاكمت السلطات الاسرائيلية المسئولين عن هذه المذبحة محاكمة صورية ، بعد أن أحدثت المذبحة أثرا عنيفا لدى الرأى انعام العـربى داخل اسرائيل ، كما تسربت حقائقها الى الصحافة العالمية وأثارت نقمة واسعة على السلطات الاسرائيلية . وبالطبع انتهت المحاكمـة الصـورية بادانة شكلية للمسئولين عن المذبحة ، ثم انتهى الامر فى النهاية بالعفو عن هؤلاء المسئولين . ويكفى أن نعلم ان المتهم الأول فى هذه المذبحة وهو الضابط الاسرائيلى « شموئيل ملينكى » قد أدين وحكم عليه بالسجن لمدة ١٧ عاما ، ثم تم تخفيض الحكم فى الاستئناف الى ١٤ عاما ، ثم خفض رئيس الدولة الاسرائيلية الحكم الى خمسـة أعوام . ثم أطلق سراح الضابط بعد فترة قليلة قبل أن يتم مدة السجن . ومن الطريف أن أحد المسئولين عن هذه المذبحة وهو ضابط آخر اسمه « جبرائيل دهان » قد أفرج عنه بعد ادانته بقتل ٤٣ مواطنا عربيا فى المذبحة ، ثم عين بعد الافراج عنه مباشرة فى بلدية « الرملة » وهى مدينة عربيـة فى الأرض المحتلة ، وكانت الوظيفة التى اختير لها هذا القـاتل هى أن يكون : « المسئول عن شئون العرب فى المدينة » . وقد حوكم فى القضية أيضا ضابط اسرائيلى كبير اسمه « اللواء شدمى » وحكمت المحكمة بلومه وتغريمه قرشا اسرائيليا واحدا .

ومن الطريف أيضا ، ان كان فى هذه المأساة مجال للطرافة ، ان أحد الشعراء الاسرائيليين كتب قصـيدة عن هـذه المذبحة وأدان فيهـا الاسرائيليين واعتبرهم مجرمين وسفاحين . يقول هـذا الشاعر واسـمه « نتان الترمان » :

« بعد أن تبينت لك تفاصيل ذلك العمل الرهيب ، تفاصـيله التى

لاتستطيع اليد أن ترتفع لتكتبها ، بعد ذلك عرفت : انه لا يجب الكتابة عن شيء آخر ... لا كتابة قصة ولا قصيدة ، لأن اللغة العبرية ترفض أن تمر بصمت على هذا العمل !القذر الذى جرى فى اسرائيل » .

ثم يقول الشاعر الاسرائيلى بعد هذه الادانة لمجتمعه :

« لايمكن أن يقوم مجتمع انسانى حدثت فيه مثل هذه النذالة دون أن تثور فيه رعشة غضب »

أما الشعراء العرب فى الأرض المحتلة فقد جعلوا من « كفر قاسم » مدينة مقدسة للكفاح والنضال ، وكتبوا عنها مجموعة من أجمل أشعارهم ، ولا يكاد يوجد شاعر فى الأرض المحتلة الا وقد كتب قصيدة عن « كفر قاسم » .

ومن بين قصائد محمود درويش فى ديوانه « آخر الليل » ، قصيدة طويلة من ستة مقاطع بعنوان « أزهار الدم » تسجل بصورة فنية رفيعة مأساة « كفر قاسم » ، وما يتعلمه النضال العربى والانسان العربى من هذه المذبحة .

ففى المقطع الأول من القصيدة وعنوانه « مغنى الدم » يصور لنا محمود درويش شهداء « كفر قاسم » وقد تحولوا الى « أوتار » يغنى الشاعر على ألحانها . فالشهداء لم يموتوا ، ولكنهم أصبحوا أصواتا إلهية تعزف للأمل وللمستقبل ، لقد انطلق الشهداء ورفرفوا بأجنحتهم الحانية على كل المحزونين من أبناء الأرض المحتلة يمسحون الدموع ويملأون القلوب بالأمل

ويصور محمود درويش التناقض بين موقف القرية الوادعة الوديعة « كفر قاسم » وأهلها الذين لايهتمون الا بالحياة ومشاغل الحياة وبين موقف الاسرائيليين المليء بالظلم والنزعة الدموية المعادية للحياة .

القرية والناس يحلمون أحلاما طيبة نبيلة والاسرائيليون يحلمون بالقتل والشر والدماء :

« كفر قاسم »
قرية تحلم بالقمح ، وأزهار البنفسج
وبأعراس الحمائم
... ...
ــ احصدوهم دفعة واحدة
حصدوهم
... ...
... حصدوهم ...
... ...

فى هذه الأبيات تلخيص « انســانى » للموقف كله . فالذين قتلتهم السلطات لم يكونوا سوى عمال بسطاء فى غابات الزيتون أو الحقــول الفلسطينية الأخرى أو فى أى ميدان من ميادين العمل اليدوى ، حيث يقوم العمال العرب بأعمالهم فى شقاء وصبر واحتمال

على أن رؤية محمود درويش الشعرية لم تقتصر على تسجيل التناقض بين روح البراءة والاخلاص والسلام عند العرب الذين ماتوا فى هــده المذبحة وبين القتلة والسفاحين ، بل ان الشاعر يصور امتداد المأساة الى الطبيعة نفسها . لقد تعاطفت هذه الطبيعة مع الانسان واشتركت فى حزنه وأساه وغضبه . فالطبيعة لم تعد وديعة كما كانت ، لم تعد سعيدة راضية ... بل لقد تسرب اليها ما أصاب الانسان من ألم ، وصبغتها جــراح الشهداء بلون الدم :

غابة الزيتون كانت دائما خضراء
كانت ياحبيبى
ان خمسين ضحية
جعلتها فى الغروب
بركة حمراء ... خمسين ضحية

ياحبيبى .. لاتلمنى

قتلونى .. قتلونى

قتلونى

وليست هذه الصورة من باب « البلاغة القديمة » التى كانت تجعل السماء تمطر عند الحزن ، والأزهار تبتسم عند الفرح ، وما الى ذلك من الصور المفتعلة ... كلا ... فالشاعر هنا يصوّر لنا حالة نفسية عميقة ، وتجربة روحية شاملة ، لأن الحزن الذى ملأ نفس الشاعر ، وملأ نفوس أهل القرية البريئة ، قد انعكس على نظرتهم لكل شىء فى الواقع الخارجى ، فأصبحوا لايرون اللون الأخضر فى غابة الزيتون ، ولكنهم يرون اللون الأحمر يصبغ كل شىء ، لأنه لون الدم البشرى البرىء الذى سال فى مذبحة « كفر قاسم » . على أن الصلة بين أهل القرية وبين الطبيعة هى صلة قوية ووثيقة ، فالناس فى القرية يمتزجون بالطبيعة امتزاجا كاملا فى حياتهم وعملهم ، ومعظم أهل القرية هم عمال زراعيون . فالصداقة بينهم وبين الطبيعة عميقة ، والامتزاج بينهم وبين الطبيعة هو امتزاج قوى أصيل ... فليس من الغريب أن يرى الشاعر تلك الرؤية ... وهى ان الطبيعة تحزن لمأساة هؤلاء البشر الأبرياء الذين سالت دماؤهم تحت الأشجار وفوق التراب وعلى القنوات الصغيرة .

ولكن محمود درويش لايكتفى بتسجيل هذه الرؤية الشعرية التى جعلت من الطبيعة شريكة للانسان فى حزنه العادل وأساه العميق . وجعلت غابة الزيتون الخضراء مصبوغة بلون الدم الذى سال من أجساد الضحايا الأبرياء ... ان محمود درويش لايكتفى بذلك بل ينظر الى المأساة نظرة عميقة ، ويحاول أن يرى انعكاسها على الواقع الانسانى . وهذا جزء من الحوار الذى دار بين القتيل رقم ١٨ وحبيبته فى مقطع من هذه القصيدة الطويلة الرائعة نفسها ، وعنوان هذا المقطع : « القتيل رقم ١٨ » .. يقول محمود درويش على لسان هذا القتيل :

كان قلبى مرة عصفورة زرقاء
يا عش حبيبى
ومناديلك عندى كلها بيضاء

كانت يا حبيبى
ما الذى لطخها هذا المساء ؟
أنا لا أفهم شيئا يا حبيبى !

أوقفوا سيارة العمال فى منعطف الدرب
وكانوا هادئين
وأداروا الى الشرق
وكانوا هادئين ..

ان هذا الهدوء الذى يصفه الشاعر ليس أكثر من تصوير صادق وأمين للضمير الميت عند كل قاتل سفاح . على أن القتيل رقم ١٨ بعد أن تصيبه الرصاصة فى قلبه يتحول فى خيال الشاعر الى كائن شفاف ... لم يمت ... لأن الشهيد البرىء لايموت ، ولكنه يخاطب حبيبته التى كانت تنتظره فيقول :

لك منى كل شىء
لك ظل لك الضوء
خاتم العرس وما شئت
وحاكورة زيتون وتين
وسآتيك كما فى كل ليلة
أدخل الشباك ، فى الحلم ،
وأرمى لك فلة
لا تلمنى ان تأخرت قليلا
انهم قد أوقفونى
... ...

ياحبيبى .. لاتلمنى
قتلونى ... قتلونى
قتلونى

هذا التصوير الفنى الصادق العميق المؤثر لذلك القتيل الشهيد الذى رحل عن الحياة ماذا يقدم الينا ؟ انه يؤكد لنا معنى يحس به الشـــاعر احساسا فريدا .. فاذا كان جسد الشهيد قد رحل عن الأرض التى يحبها فان ما فى قلبه من عواطف أصيلة وأفكار بسيطة ونبيلة لم ترحل ولا يمكن أن ترحل . ان ما كان يحمله فى عقله وقلبه لايمكن أن ينطفىء مع انطفاء الجسد ، ولا يمكن أن تغتاله رصاصات العدو ... حبه لأرضه ، وحبه لأهله ، وحبه للحياة ، كل هذا مازال باقيا متجسدا فى علاقته مع حبيبته التى مازال يتحدث اليها ، ويحمل لها الهدايا ، ويدخل بيتها من الشباك مع الأحلام والأطياف ، ويرمى لها فلة ويعتذر عن تأخره قليلا ... ان الحياة تدب فى أوصال القتيل ، لأنه كان يحمل فى قلبه أشياء غالية لاتموت مثل حبه وبراءته .

على أن العلاقة الانسانية فى حياة الشهيد ليست هى علاقته بحبيبته فقط ، ليست هى عاطفته الجميلة التى بعثت بعد موته حية متوهجة تطل على الحبيبة وترعاها وتمنحها هداياها المعهودة ... ليس هذا هو الامتداد الوحيد لحياة الشهيد ، بل ان هناك امتدادا آخر ، هو امتداد الكفاح فى الحياة اليومية ، فهذا الشهيد هو من سلالة عاملة تأكل خبزها بعرق أيامها ... انه من جماعة ذات قلوب طيبة وقضية عادلة ولكن أيديها خشنة ليس فيها نعومة البطالة والترف ... ولذلك فان الشهيد سوف يبقى مابقيت عواطفه النبيلة ، وما بقيت تلك الأيدى الخشنة التى تكافح وتعمل وتعرق ... ففى مقطع آخر من قصيدته عن « كفر قاسم » وعنوانه « القتيل رقم ٤٨ » يقول محمود درويش :

وجدوا فى صدره قنديل ورد

وقمر ...
وهو ملقى ، ميتا ، فوق حجر
وجدوا علبة كبريت
وتصريح سفر
وعلى ساعده الغض نقوش
قبلته أمه
وبكت عاما عليه

بعد عام
نبت العوسج فى عينيه
واشتد الظلام
عندما شب أخوه

ومضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة
حبسوه ...
لم يكن يحمل تصريح سفر
انه يحمل فى الشارع
صندوق عفونة
وصناديق أخر
آه ، أطفال بلادى
هكذا مات القمر

ان هذا الشهيد باق اذن ، له امتداد لاينتهى ، طالما ان هناك مكافحا آخر يبذل عرقه فى الشوارع أو فى السجون أو فى أى ميدان من ميادين العمل مهما كان هذا العمل بسيطا أو قاسيا رديئا لا قيمة له ولا راحة فيه .

ان هذا الشهيدالذى سقط فى « كفر قاسم » لايمكن أن يموت لأنه ترك وراءه أشياء غالية : الحب والعمل وفلة لحبيبته !

وبعد هذه الرحلة مع شهيد « كفر قاسم » وعلاقاته الانسانية التى

لم تنقطع مع الرصاصات التى تلقاها فى قلبه ، يحملنا محمود درويش الى المعنى العام لقصيدته الطويلة الرائعة ، وهو يحملنا الى هذا المعنى بعد أن نكون قد عشنا مع الشهيد فى لوحات مختلفة من حياته بعد الاستشهاد ، سواء كانت هذه اللوحات تصويرا لعلاقته مع حبيبتــه أو لعلاقته مع أهله وأبناء قريته . وهذا المعنى العام يجسده لنا محمود درويش فى قوله :

الذى مات هو القاتل يا قيثارتى
ومغنيك انتصر

وفى قوله :

« كفر قاسم »
اننى عدت من الموت لأحيا !
لأغنى
فدعينى استعر صوتى من جرح توهج
وأعيننى على الحقد الذى يزرع قلبى عوسج (1)
اننى مندوب جرح لايساوم
علمتنى ضربة الجلاد
أن أمشى على جرحى
وأمشى ثم أمشى ... وأقاوم !

هذا هو الصوت الذى يرفعه الشاعر من بين أنقاض مذبحة « كفر قاسم » ، ومن بين أجساد الشهداء ... انه صوت أرواح الشهداء الفقراء الذين ماتوا فى تلك الليلة الحزينة دون أن يعلموا سببا لموتهم .. فهذه الأرواح كان لها همسها وغناؤها الباقى الذى لايذوب أبدا أمام أصوات مليئة بالضجيج والعنف . ولقد أنصت الشاعر جيدا الى هذه الأصــوات ونقل الينا فى قصيدته النبيلة ماقاله لنا الشهداء ومايرددونه مع الأيام حتى يسود العدل :

يا « كفر قاسم » ! لن ننام

(1) العوسج هو الشوك

وفيك مقبرة وليل
ووصية الدم لاتساوم
ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم
أن نقاوم ...

ان القوة تولد هنا من المأساة ، و « كفر قاسم » لم تعد قرية بسيطة عادية ، بل أصبحت قريتنا جميعا لأنها قرية المجروح والشـــهيد وطالب الثأر من الظلم .

شـــعراء
وشـــهداء

قصائدنا
بلا لون
بلا طعم
بلا صوت
اذا لم تحمل المصباح..
من بيت الى بيت

محمود درويش

لم يظهر محمود درويش فجأة ، ولم تظهر مدرسته الشعرية بلامقدمات ، فمحمود درويش ومدرسته يرتبطان أشد الارتباط بحركة النضال فى فلسطين وبشعراء هذه الحركة النضالية . ولو عدنا الى تاريخ الأدب العربى فى فلسطين لوجدنا ان مدرسة محمود درويش تمتد جذورها الى جيلين سابقين هما جيل ١٩٣٦ وجيل ١٩٤٨ . ولابد لنا من الحديث عن هذين الجيلين اذا أردنا أن نعرف المقدمات الصحيحة التى مهدت للجيل الثالث وهو جيل محمود درويش ورفاقه

والحادث الرئيسى الذى كان فرصة لظهور الجيل الأول من شعراء المقاومة هو ثورة عام ١٩٣٦ . ففى أواخر ابريل من هذا العام قامت فى فلسطين ثورة شاملة ، بدأت باضراب أعلنه الشعب واشتركت فيه معظم الطوائف باستثناء بعض العناصر من الموظفين الذين ترددوا فى الاستجابة للثورة ، ونشبت معارك مسلحة فى عدد كبير من المدن الفلسطينية بين العرب من جانب واليهود والانجليز من جانب آخر ، وأعلن العرب قبل بدء الاضراب بليلة واحدة مطالبهم المحددة أمام العالم كله ، وكانت هذه المطالب تتركز فى وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين فورا ، ثم فى اصدار قانون يمنع تسرب الأراضى العربية عن طريق بيعها لليهود أو الاستيلاء عليها بواسطة سلطات الانتداب الانجليزى ثم تسليمها لليهود بعد ذلك ، وكان المطلب الثالث الذى أعلنه العرب هو تشكيل حكومة وطنية عربية تتولى السلطة فى فلسطين .

واهتزت السلطات الانجليزية أمام اجماع أغلبية الشعب على الاضراب والثورة ، كما أثر موقف الشعب على القيادات السياسية التى كانت تعيش

فى انقسام وتمزق كبيرين ، فاتحدت هذه القيادات فيما سمى حينذاك باسم « اللجنة العربية العليا » كذلك اشترك مناضلون من خارج فلسطين فى الكفاح المسلح الذى شمل فلسطين فى ذلك العام ، وكان موجها ضد اليهود والانجليز فى وقت واحد ، ونشأت فى المناطق الفلسطينية المختلفة حكومات محلية سميت باسم « اللجان القومية » وكانت هذه اللجان تشرف على توجيه الثورة من الناحية السياسبة ، وكانت تشرف على تزويدها بالسلاح كما كانت تقوم بكل المهام الأخرى التى تحتاجها ادارة البلاد فى ظل الثورة .

وقد أسرع الانجليز باللجوء الى بعض الحكام العرب ليتوسطوا لدى القيادات السياسية فى فلسطين حتى تدعو الشعب الى انهاء اضرابه وثورته لايجاد مناخ مناسب وفرصة جديدة للتفاهم مع الانجليز على تحقيق المطالب العربية ، وقد نجحت هذه الوساطة التى كان نورى السعيد على رأس القائمين بها فى ايقاف الاضراب والثورة المسلحة ولم تنجح فى تحقيق أى تفاهم بين شعب فلسطين والسلطات الانجليزية ، وذلك لأن الانجليز كانوا قد أعدوا خطتهم على أساس اقامة دولة اسرائيل بالارهاب تارة وبالمناورة تارة أخرى .

ومهما كانت نتائج ثورة عام ١٩٣٦ فى فلسطين ، فانها فى الحقيقة كانت ثورة عنيفة وشاملة ، بل انها كانت أكبر مما قدرته لها كل القيادات السياسية فى ذلك الحين ، واستطاعت هذه الثورة أن تخلق جيلا من عرب فلسطين له نظرة خاصة للقضية الفلسطينية ، وهى نظرة عنيفة غاضبة مناضلة ، استطاعت أن تدرك بعد تجارب عديدة انه لا حل لهذه القضية الا بالقوة المسلحة ، ولذلك فانها لم تعد تؤمن الا بأعنف صور المقاومة ضد اليهود والانجليز معا ، فذلك هو الحل الوحيد للمأساة التى كان هذا الجيل يراها قادمة تزحف على الأرض الفلسطينية ، وتنسج لشعب فلسطين العربى مصيرا دمويا لا حدود لتعاسته وشقائه .

ولقد كان الجيل الذى مهد لثورة ١٩٣٦ ثم قادها بعد ذلك يشعر بأن هناك أملا كبيرا فى النصر لو ارتفع صوت المقاومة فوق كل صوت ، لأن المأساة لم تكن قد نسجت كل خيوطها ولم يكن الظلام قد أصبح شاملا ، بل كان هناك أمام المناضلين فرصة للعمل والحركة ، ومن هنا فاننا نستطيع أن نسمى جيل عام ١٩٣٦ باسم « جيل المقاومة » ، فلقد حارب المخلصون من أبناء هذا الجيل حربا شاملة على جميع الجبهات ، فحاربوا بالكلمة والسلاح والتنظيمات السرية والتنظيمات العلنية على السواء ، وحاولوا أن يستمدوا المساعدة من البلاد العربية ومن أوربا ومن كل مكان تصوروا انه يمكن أن يخدم القضية بأى قدر ولو كان ضئيلا .

ومن الظواهر التى تلفت النظر فى هذا الجيل أن المثقفين لعبوا دورا كبيرا فى قيادته وتوجيهه ، ولعل أصدق نموذج نضالى يقدمه هذا الجيل هو نموذج الشيخ « عز الدين القسام » الذى جسد ولا شك أفضل خصائص جيل عام ١٩٣٦ وأعظمها وأكثرها أصالة وصفاء ، ولذلك فانه يمثل الوجدان الفلسطينى فى ذلك الجيل خير تمثيل ، وربما كان هناك زعماء أكثر شهرة منه ، وربما كان هناك قادة أحزاب سياسية استطاعوا أن يجمعوا عددا أكبر من الأنصار ولكن ذلك كله لا ينفى أننا فى بحثنا عن الوجدان الفلسطينى لن نجد أصدق من هذا النموذج النضالى كممثل حقيقى لجيل عام ١٩٣٦ ، ورغم ان القسام استشهد فى أواخر عام ١٩٣٥ الا أن بعض رجاله قد عاشوا بعده وساهموا فى قيادة ثورة عام ١٩٣٦ مساهمة كبيرة ، كما ان القسام كان بأفكاره الثورية التى نشرها فى طول الأرض الفلسطينية وعرضها من أكبر الذين مهدوا لثورة عام ١٩٣٦ وأعدوا الشعب لها خير اعداد ، وليس مجرد مصادفة أن تشتعل الثورة بعد استشهاد القسام بحوالى خمسة أشهر ، وحتى هذه الشهور لم تكن هادئة بل كانت تنذر بالانفجار بين لحظة وأخرى ، وكان الغضب الذى ملأ قلب الشعب يعبر عن نفسه فى انفجارات صغيرة متنوعة ، ولن نستطيع

أن نفهم الشـــعراء الذين ينتســـبون الى جيـل عام ١٩٣٦ ويعبرون عنه دون أن نقف أمام شخصية الشيخ القســام وقفـة متأنية باعتباره نموذجا مثاليا يكشف حقيقة الوجدان الفلسطينى فى تلك الفترة ، وهو وجدان المقاومة والاستشهاد والغضب واشـعال النار فى صـفوف الأعداء ، ولم يكن القسام مجرد حالة فردية ، بل كان صورة أمينة لحقيقة العواطف الشعبية فى حرارتها والتهابها العنيف . وعندما تتبين ملامح شخصية القسام وصورته الواضحة ، فاننا نستطيع أن نفهم الدائرة الوجدانية التى كان يدور فيها شعراء فلسطين فى تلك الفترة .

وهذه هى صورة القسام وصورة حركته الثورية الاستشهادية كمـا قدمها لنا الأستاذ ناجى علوش فى كتابه القيم عن « المقـاومة العربية فى فلسطين » .. وأنقل هنا هذه الصورة الدقيقة الواضحة بكل تفاصيلها حتى تعطينا ما نحتاج اليه من معرفة كاملة بما كان يعيش فى قلب هذه الفترة من أفكار وانفعالات وحركات عميقة .

يقول الأستاذ ناجى علوش فى كتابه : « كان عز الدين القسام رجل دين وقورا ، وخطيبا ملك أعنة الكلام ، وتوفر على علم واسع بمجاله ، وقد وضع علمه ومركزه الدينى فى خدمة المقاومة العربية ، فأخذ يحرض على الانتفاض على الظلم والثورة على الأجنبى ، مذكرا فى خطبه بأن المسلم غير مكلف بالخضوع للأجانب وكان مؤمنا ان الثورة لابد لهـا من أن تعتمد على الفلاحين والعمال . رأى القسام ان الهبات الشعبية لا تكفى لتحرير البلاد ودفع الخطر الصهيونى عنها ، كما رأى ان القيادة فى فلسطين غير أهل للمهمة الخطيرة الموكولة اليها ، ولذلك فقد عمل على انشاء حركة ثورية عقائدية ، تقوم على العقيدة الاسلامية من جهة ، وعلى التنظيم السرى من جهة أخرى ، ومن هنا بدأ القسام العمل ، فأنشأ حلقات سرية ، وأخذ يعدها ليومها الموعود » .

« ليس هناك تفصيلات واسعة عن تنظيمات القسام وأفكاره ، وخططه ،

ولكن ما هو موجود يدلنا على ما يلى :

أولا : اعتبر القسام ان المقاومة تقتضى وجود « كوادر » مهيأة عقائديا وسياسيا وعمليا ، ولذلك فقد اتجه الى تثقيف أنصاره ومريديه تثقيفا اسلاميا وطنيا ، وكانت عملية التوعية هــذه تستهدف تزويد المقــاتلين بالايمان ، وحضهم على التضحية والتفــانى ، وفى القرآن الــكريم مادة لا تنضب من الآيات والأحاديث المفيدة جدا فى هذا المجال •

ثانيا : اعتبر القسام ان بريطانيا هى أســاس البــلاء ، وان الحــركة الصهيونية مرتبطة بالاستعمار البريطانى ، ولذلك فان انهاء الانتداب هو الواجب الأول ، على أن تبذل الجهود لمنع الحركة الصهيونية من الاستيلاء على مزيد من الأراضى •

ثالثا : ان الثورة المسلحة هى وحدها القادرة على انهــاء الانتــداب والحيلولة دون قيام دولة صهيونية فى فلسطين وهذه الثورة تستلزم : نشوء تنظيم سرى ــ تربية المقاتلين واعدادهم للمعركة عسكريا ــ تعبئة الجماهير نفسيا لتأييد الثورة والاشتراك فيها •

وبدأ القسام العمل ، تحقيقا لهذه الأهداف منذ عام ١٩٢٢ ، بتأسيس الحلقات السرية • وقد انتسب عام ١٩٢٦ الى جمعية الشبان المسلمين ، فانتخب رئيسا لها ، وكان يستهدف بانتسابه للجمعية التستر على أعماله السرية • وحينما عين عام ١٩٢٩ مأذونا شرعيا أخذ يتجول فى القرى ، دارسا نفسية الشعب ، داعيا جموعه الى المحبة والوئام • وكان القسام يتصل بكل فئات الشعب ، حتى الذين لا يعرفون بالورع والتقوى ، فأثار حفيظة بعض رجال الدين وجرى بينه وبينهم نقــاش حول الموضوع ، استعمل القسام منبر مسجد الاستقلال فى حيفا لاستثارة روح الكفاح فى المصلين ، ولاختيار العناصر التى يتوسم الخير فيهــا منهم ؛ لتنضم الى حلقاته السرية ، وطلب القسام من الحاج « أمين الحسينى » ، مفتى فلسطين فى ذلك الحين ، أن يعينه واعظا متنقلا ، ليعمل من أجل الاعداد للثورة ،

فاعتذر الحاج أمين قائلا : « نحن نعمل لحل القضية سياسيا » • وأرسل القسام عام ١٩٣٥ أحد رجاله المدعو محمود سالم ، الى الحاج أمين ليعلمه بعزم القسام على اعلان الثورة فى الشمال ، وليطلب منه اعلان الثورة فى الجنوب ، ولكن المفتى أجاب : بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ، وان الجهـود السياسية التى تبذل تكفى لحصـول عرب فلسطين على حقوقهم » •

« وكان القسام فى هذه الفترة قد بنى تنظيمه السرى ، واشترى كميات من الأسلحة ودرب عددا من المقاتلين ، وقد اتصل بالطليان أعداء الانجليز ومنافسيهم على المنطقة العربية وضمن تأييدهم .

وكانت لجان خمس تشرف على العمل وهذه اللجان هى :

أولا : لجنة الدعوة وهى مكونة من عدد من العلماء ووظيفتها اعداد الشعب للثورة مستخدمين كل الوسـائل الممكنة من الاتصـال اليومى بالناس ، الى حلقات التدريس والخطب فى المساجد .

ثانيا : لجنة التدريب العسكرى ووظيفتها اعداد المقاتلين •

ثالثا : لجنة العتاد ، ووظيفتها شراء الأسلحة وحفظها فى الأماكن الأمينة .

رابعا : لجنة مراقبة الاعداء ، ووظيفتها جمع المعـلومات عن الانجليز والصهاينة •

خامسا : لجنة الشئون الخـارجية ، ووظيفتهـا تنحصر فى العـلاقات الخارجية •

اجتمعت قيادة الحركة بمناسبة الذكرى السنوية لاصدار وعد بلفور ، وقررت بدء الكفاح بالانتقال الى الريف ، وكان ذلك فى ١٢/١١/١٩٣٥، واختارت منطقة « جنين » القريبة من حيفا مسرحا لعملياتهـا ، وكانت تستهدف الاتصال بالفلاحين ، وتحريضهم على الاحتلال الأجنبى، ودعوتهم للاشتراك فى الثورة • وكان عدد الأعضاء المنظمين فى الحركة قرابة مائتين عند اتخاذ هذا القرار ، بالاضافة الى ثمانمائة من الانصـار • ولاعتقاد

القسام بأن الثورة يجب أن تعتمد على الفلاحين والعمال ، فقد اختار أعضاء منظمته من أوساط « الفلاحين والعمال » الذين كانوا يسكنون فى ضواحى حيفا .

حين انتقلت جماعة القسام الى الريف أحس الجواسيس المكلفون بمراقبتهم أنهم غائبون ، فازداد قلق السلطات المحتلة ، ونشطت فى البحث عنهم • وفى يوم ١٤ نوفمبر عام ١٩٣٥ التقى نفر من جماعة القسام بجاويش يهودى ، وشرطى عربى ، فقتلوا الجاويش ، وتركوا الشرطى حيا ، وقد أخبر الشرطى بما رأى ، فحشدت السلطات المحتلة قوة كافية ، وأخذت تجوب المنطقة بحثا عما أسماه الانجليز « العصابة » •

استمر البحث أياما ، حتى أن جريدة فلسطين كتبت تقول : « قضاء جنين كأنه ساحة حرب » . استطاعت القوات البريطانية أن تحكم الطوق على جماعة القسام الذين قاوموا مقاومة باسلة ، ولكنهم كانوا فى واد عميق ، ولم يفكروا فى التسلل والهرب ، بل فى المقاومة والاستشهاد ، ولذلك فان القسام حين طلب منه الاستسلام أجاب : « اننا لن نستسلم ، ان هذا جهاد فى سبيل الله والوطن » والتفت الى زملائه وقال : « موتوا شهداء » • واستمر الاشتباك الاخير من الفجر حتى التاسعة صباحا ، حين قتل القسام وبعض صحبه ، وجرح آخرون منهم الشيخ نمر حسن السعدى .

لم تستطع حركة القسام أن تحقق أهدافها الأولية فقد قتل قائدها ، وبعض كبار معاونيه • الا أن الحركة لم تذهب سدى ، ذلك ان بعض جماعة القسام ، قد افترقوا عنه ، بقيادة الشيخ فرحان السعدى بعد مقتل الشاويش اليهودى فنجوا ... ثم ان مقتل القسام حرك البلاد ، وأثار كوامن حقدها ونقمتها ... » .

هذه هى صورة « القسام » كما يرسمها الأستاذ ناجى علوش ، بكل أبعادها الواضحة العميقة وهى صورة حية نبيلة مشرقة لمثقف ثورى

عربى ، فقد ثقته بالقيادات السياسية التقليدية فى عصره ، وأحس ان اللغة الصحيحة هى لغة الثورة والاستشهاد ، وجسد فى موقفه حقيقة الوجدان الفلسطينى فى تلك المرحلة من تاريخ فلسطين . وكما يبدو أمامنا من خلال نموذج «القسام» فان الوجدان الفلسطينى فى تلك المرحلة كان وجدانا مشتعلا بروح المقاومة ، مؤمنا بأن الدين والعلم والثقافة والفن والأدب وكل شىء يجب أن ينصهر فى المعركة الأساسية ، ولذلك فقد أحال هـذا الشيخ الشهيد خطبه فى المسجد وجولاته فى القـرى والمدن كمأذون يربط بين القلوب برباط من القانون والشرع ، وجلساته فى صحون المساجد المختلفة ... حول هذا كله الى دعوة للثورة المسـلحة ، والتنظيم القوى الذى يستطيع الوقوف فى وجه الانجليز واليهود معـا . ولقد كانت عقليـة « القسام » الثورية فى غاية الدقة والوضوح . ويبدو لنا هذا كله من تنظيمه لجماعته الصغيرة الى لجان دقيقة تستوعب كل أوجه النشاط فى العمل الثورى ، كما كان اصراره على ان القاعدة الأساسية للثورة ينبغى أن تتكون من الفلاحين والعمال دليلا على فهم فذ وموهبة ثورية أصيلة فى تلك الفترة المبكرة من تاريخنا العربى قبل ثلاثة وثلاثين عاما . كمـا كانت أفكاره تحديدا لبرنامج ثورى شديد الوضوح حول العمل لتحرير فلسطين ، ولقد كانت هذه الأفكار التى ترددت فى برنامجه الثورى تمثيلا صحيحا لهموم الشعب وآماله ، وكانت هذه الأفكار أيضا هى نفسها التى رددت فى قصائد الشعراء البارزين فى تلك الفترة ، ولاشك أن هؤلاء الشعراء تأثروا بآراء القسام وشخصيته الثورية الجذابة المخلصة ، كما أنهم من ناحية أخرى كانوا يعبرون عن هذه الأفكار باعتبارها أفكارا عامة كامنة فى روح العصر ... ولم يفعل القسام فى نهاية الأمر الا انه استخرج هذه الأفكار من قلب الواقع ، ثم بلورها فى أحاديثه وخطبه ، ثم دافع عنها آخر الأمر بدمه .

هذا النموذج الحى للوجدان الفلسطينى فى تلك الفترة هو الذى عبر

عنه شعراء فلسطين من أبناء جيل عام ١٩٣٦ ، وهناك عدة ظواهر فنية وانسانية مشتركة عند كل هؤلاء الشعراء •

فهم أولا : شعراء مناضلون ، أى أن العمل السياسى الثورى كان بالنسبة لهم « غذاء يوميا » ، بل ان شعرهم نفسه لم يكن الا أداة من أدوات هذا العمل السياسى الثورى ، وقد تعرض هؤلاء الشعراء للاضطهاد العنيف ومات بعضهم فى ميدان النضال شهداء كما مات « القسام » ، فقد كانوا من نفس النسيج الذى تكونت منه شخصية القسام ، وكانوا جميعا فى النهاية تعبيرا عن الوجدان الشعبى المقاتل وتجسيدا له فى تلك الفترة ••• ذلك الوجدان الذى لم يكن يرى سوى الثورة المسلحة العنيفة الشاملة طريقا للخلاص •

وهؤلاء الشعراء ـ ثانيا ـ جعلوا من شعرهم تسجيلا للمواقف الثورية المختلفة فى فلسطين ، وجعلوا منه اعتراضا واحتجاجا على المواقف المترددة، ويمكننا أن نستخرج كثيرا من الأحداث التاريخية الواقعية الخاصة بالثورة فى فلسطين من دواوين هؤلاء الشعراء ••• لقد قدموا دواوين شعر وكتب تاريخ فى نفس الوقت ، فدواوينهم ليست مجرد تعبير وجدانى عن النضال ، بل هى وثائق تاريخية لهذا النضال ، وهى أحيانا تسجيل يومى لأحداثه المختلفة •

ومن ناحية ثالثة كان هؤلاء الشعراء يستخدمون الشكل التقليدى للقصيدة العربية فى التعبير عن مشاعرهم وتجاربهم ••• فالتحدى الذى كان يواجه الشاعر العربى الفلسطينى من جانب الانجليز واليهود معا هو التهديد بالقضاء على شخصيته كعربى ، والقضاء على الشخصية العربية لفلسطين نفسها • ومن هنا فلقد كان من الطبيعى أن يتمسك الشاعر بتراثه وتقاليده الثقافية والأدبية العربية ، وذلك كجزء من تمسكه بشخصيته الأصيلة التى تواجه التحدى وتتعرض للعاصفة •

والواقع ان المعركة العربية فى فلسطين فى تلك الفترة لم تترك مجالا

أمام الشاعر العربى الفلسطينى لكى يفكر تفكيرا عميقا فى قضية التجديد، فعندما تشتعل النيران فى أنحاء البيت لايفكر أحد فى أحدث الأساليب لبناء العمارات ... ان الأساليب والأشكال هنا تميل عادة الى التبسيط والسهولة والتأثير المباشر ، لأن الهدف هو انقاذ البيت من الحريق . ومن ناحية أخرى فان قضية التجديد الأدبى فى ميدان الشعر العربى فى عام ١٩٣٦ لم تكن واضحة بما فيه الكفاية ، فلقد كان جيل المجددين من الشعراء من أمثـال على محمود طه وابراهيم ناجى وغيرهما مازالوا فى البداية لم تتأكد خطواتهم فى طريق التجـديد ولم تتضح بصورة كاملة ملامح حركتهم الفنية ما عدا بعض تجديدات قليلة مثل التنويع فى القافية وما الى ذلك ، بالاضافة الى أن موضوعاتهم الأساسية فى تلك المرحلة كانت موضوعات غزلية أو فلسفية ولم يكونوا فى معـركة وطنيـة أو اجتماعية ، ولعل انصراف الشعراء المجددين فى مصر فى الثلاثينات عن الموضوعات الوطنية عموما والموضوعات العربية على وجه خاص ، كان أثرا من آثار العزلة الوجدانية والسياسية فى مصر عما يجرى فى الوطن العربى فى تلك الأيام ، فبينما كانت ثورة فلسطين تشتعل فى قراها ومدنها وسهولها وجبالها فى عام ١٩٣٦ ضد الانجليز واليهود ، كانت القيادات السياسية فى مصر تتوحد فى جبهة لمفاوضة الانجليز والاتفاق معهم على معاهدة ١٩٣٦ ... أى ان الانجليز كانوا يتعاهدون ويتفقون فى مصر فى نفس اللحظة التى كانوا يطلقون فيها الرصاص على شعب عربى آخر هو شعب فلسطين ، ومن هنا فى ظنى كان الجو السياسى العام فى مصر ــ التى كانت مركزا لحركات التجديد الفنى ــ جوا هادئا نسبيا ممـا أبعد كثيرا من الشعراء المجددين عن الارتباط بالمعركة العربية فى تلك الأيام . ومن هنا ضعف تأثيرهم التجديدى على شعراء فلسطين .

ولعل من الأسباب القوية التى جعلت الشكل التقليدى عند جيل عام ١٩٣٦ من شعراء فلسطين هو الشكل الأساسى لقصائدهم ما يتضمنه هذا

الشكل نفسه من قدرة فنية على التأثير الجماهيرى الواسع ؛ فمن السهل حفظ هذا النوع من الشعر لما يتميز به من وحدة البيت والقافية ، ومن السهل ترديده فى المظاهرات والاحتفالات الجماهيرية ، ولقد كانت وظيفة الشعر الأولى بالنسبة لجماهير فلسطين هى وظيفة « خطابية » تهدف الى الاثارة العنيفة والتحريض ، والدعوة الى اتخاذ مواقف معينة ، وكذلك كانت القصيدة المؤثرة حقا هى القصيدة التى تشبه المنشور الثورى فى عنفها ووضـــوحها وارتفاع نبرتها ، وهى القصـــيدة التى تقترب من الشعارات والهتافات والخطابات ؛ كل ذلك طبعا دون أن تفقد جمالها الخاص وصدقها الوجدانى والا انتهت بفقدان التأثير على الناس أيضا . ولذلك كان شعراء هذه الفترة يلتزمون بالقصيدة العربية التقـــليدية ، ولذلك أيضا تقبلتهم الجماهير وتأثرت بهم أشد التأثر .

ويقول الأستاذ كامل السوافيرى فى كتابه « الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين » صفحة ٢٩٨ : « لا يوجد بين الفلسطينيين الذين تعلموا فى مدارس فلسطين بعد ثورة عام ١٩٣٦ من لا يحفظ لابراهيم طوقان قصيدتيه « الفـــدائى » و « الشهيد » ولعبـــد الرحيم محمود قصيدتيه « الشهيد » و « الشعب الباسل » ، ولأبى سلمى داليته التى ثار فيها على ملوك العرب » ...

حقا ... لقد كانت تلك القصائد منشورات ثورية عامة موجهة الى جميع المواطنين لا الى المثقفين والمشتغلين بالأدب فقط ، ومن هنا فرضت تلك الوظيفة الاجتماعية الثورية للشعر شروطها الفنية على شعراء تلك المرحلة ، وهذه الشروط هى : التعبير المباشر الصريح ، والشكل التقليدى ذو القافية المتنوعة أحيانا ولكن فى الاطار التقليدى ، والنزعة الخطابية الصريحة العالية التى تدعو الجماهير الى موقف محدد ... كل ذلك لأنه شعر يولد وسط ضجيج المعركة .. شعر يولد فى المظاهرات والاصطدامات المسلحة ... بين أصوات الرصاص وأنهار الدماء .

واذا بحثنا عن الأسماء اللامعة من شعراء فلسطين فى جيل عام ١٩٣٦ وجدنا على رأس القائمة ثلاثة أسماء هم : ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبو سلمى .

وابراهيم طوقان ولد فى فلسطين عام ١٩٠٥ بمدينة نابلس وما زالت عائلته تقيم فيها حتى اليوم ، ومن أفراد هذه العائلة الشاعرة فدوى طوقان ، وهى شقيقة ابراهيم ، وقد تعلم ابراهيم فى الجامعة الأمريكية ببيروت ثم عاد ليعمل مدرسا فى «نابلس» بمدرسة اسمها مدرسة النجاح. وفى هذه المدرسة كانت الدروس الأساسية التى يلقيها على طلابه هى الوطنية والعروبة والنضال ، فلقد كان يربى الطلاب على الثورة وعلوم الثورة قبل أن يربيهم على العلوم العادية . وقد ترك ابراهيم التدريس بعد أن عمل به فترة قصيرة لا تزيد عن عام واحد ، ويمكننا من خلال ديوان ابراهيم طوقان أن نعرف الكثير عن وقائع النضال الفلسطينى فى تلك الفترة ، كما نجد اثارة مباشرة للشعب كى يلتزم بهذه المطالب مثل : الدعوة الى عدم بيع الأراضى لليهود ، والدعوة الى وحدة الأحزاب السياسية وما الى ذلك من قضايا واقعية مباشرة .

ولنقرأ هذا النموذج من شعر ابراهيم طوقان عن الفدائى ، وكالعادة التى تتكرر كثيرا فى شعر ابراهيم كتب الشاعر هذه القصيدة فى حادثة معينة يسجلها فى مقدمة القصيدة فيقول : « عينت الحكومة المنتدبة يهوديا بريطانى الجنسية لوظيفة النائب العام فى فلسطين ، فأمعن فى النكاية والكيد للعرب بالقوانين التعسفية الجائرة التى كان « يطبخها » ، ولما ثقلت على العرب وطأته ، كمن له أحد الشبان المتحمسين فى مدخل دار الحكومة وأطلق النار عليه فجرحه » ... أما القصيدة فيقول ابراهيم طوقان فيها ، وهى من أشهر القصائد بين أبناء فلسطين من جيل عام ١٩٣٦ وما بعده من الأجيال حتى اليوم :

هــو بالبــاب واقف والردى منه خائف

فاهـــدئى يا عواصف خجـــلا من جـــراءته
صـــامت لو تكلمـــــا لفـــظ النـــار والـــدما
قل لمن عاب صـــمته خـــلق الحـــزم أبكما
وأخـــو الحزم لم تزل يده تسبق الفمـــــا
لا تلوموه قـــد رأى منهـــج الحق مظلمـــا
وبلادا أحبهـــــــــــا ركنهـــا قـــد تهـــدما
وخصـــــــوما ببغيهم ضجت الأرض والسما
مر حين فكاد يقتـــ ـــله اليـــأس انمـــا
هـــو بالبـــاب واقف والردى منــــه خـــائف
فاهـــدئى يا عـــواصف خجـــلا من جـــراءته

وفى قصيدة أخرى يقول ابراهيم طوقان متحدثا عن هؤلاء العرب الذين يبيعون الأرض لليهود :

باعوا البـــلاد الى أعدائهم طمعـــا
بالمـــال لـــكنما أوطـــانهم باعـــوا
قد يعذرون لو ان الجـــوع أرغمهم
والله ما عطشـــوا يوما ولا جاعـــوا
وبلغة العـــار عنـــد الجوع تلفظهـــا
نفسى لهـــا عن قبول العـــار رداع
تلك البلاد اذا قلت : اسمها «وطن»
لا يفهمـــون ، ودون الفهم اطمـــاع
يا بائع الأرض لم تحفـــل بعـــاقبة
ولا تعلمت ان الخصـــم خـــداع
فكر بموتك فى أرض نشأت بهـــا
واترك لقبـــرك أرضا طولهـــا باع

وفى هذه القصيدة يقول بيته المشهور :

أعـــداؤنا منـــذ أن كانوا صيارفة
ونحن منـــذ هبطنـــا الأرض زراع

هذا هو شعر ابراهيم طوقان الذى يمثل « وجدان عام ١٩٣٦ » خير تمثيل فهو شعر نضالى عنيف صريح مباشر ، فيه صفاء مطلق فى الرؤية الوطنية ، وفيه دعوة وتحريض ، وتسجيل للمشاعر والوقائع التى امتلأت بها هذه الفترة الملتهبة من تاريخ فلسطين . وقد ظل ابراهيم طوقان يكتب شعره بهذا الأسلوب الواضح الصريح ، وظـــل ملتزما بموقفه الوطنى العنيف حتى مات فى السادسة والثلاثين من عمره عام ١٩٤١ حيث كان منذ صباه يعانى أزمة مرضية صاحبته طيلة حياته حتى قضت عليه فى زهرة العمر .

أما عبد الرحيم محمود فهو تلميذ من تلاميذ ابراهيم طوقان فى مدرسة النجاح بنابلس ، وقد تعلم عبد الرحيم الشعر والوطنية على يد أستاذه وعندما أتم تعليمه بالمدرسة أصبح مدرسا بها . وكان عبد الرحيم مناضلا حقيقيا : بمواقفه وقصائده معا ، وقد اشترك فى المعارك الشعبية المسلحة ضد الانجليز واليهود فى ثورة عام ١٩٣٦ ، ثم هرب الى العراق بعد اخماد الثورة عن طريق الارهاب والمناورات الانجليزية والوساطات المتكررة من بعض الحكام العرب ، وفى العراق اشترك عبـــد الرحيم محمود فى ثورة رشيد عالى الكيلانى عام ١٩٤١ ، وعندما قامت الحرب فى فلسطين عام ١٩٤٨ اشترك الشاعر فيها ، محاربا وفارسا ، واستشهد فى احدى المعارك بقرية الشجرة قريبا من مدينة الناصرة ، وكان سنه عند استشهاده خمسة وثلاثين عاما .

وشعر عبد الرحيم محمود ، هذا المناضل والفارس والشهيد ، قريب الى حد بعيد فى خصائصه الفنية من شعر أستاذه ابراهيم طوقان وان كان يختلف عنه من الناحية الموضوعية فى أن الاحساس باللوعة والمرارة عند عبد الرحيم أعنف وأكثر عمقا ، ربما لأنه عاش بعد موت ابراهيم طوقان ،

فرأى فصولا جديدة من المأساة حفرت فى نفسه هموما وأحزانا جديدة ، ولذلك فنحن نسمع ايقاع الحزن فى شعر عبد الرحيم محمود أكثر مما نسمعه فى شعر ابراهيم طوقان ، رغم انهما فى نهاية الأمر من مدرسة فنية وفكرية ووطنية واحدة ...

يقول عبد الرحيم فى احدى قصائده مخاطبا أحد الأمراء العرب عند زيارته للقدس :

يا ذا الأمير أمام عينك شـــــاعر ضمت على الشكوى المريرة أضلعه
المســـجد الأقصى : أجئت تزوره أم جئت من قبــل الضياع تودعه
وغدا ، وما أدناه ، لا يبقى ســوى دمع لنـــا يهمى وســن تقــرعه

هذا صوت حزنه ، أما صوت فروسيته ونضاله فيتردد فى كثير من القصائد الأخرى ... فهو يقول فى احدى قصائده مشيرا الى استشهاد « عز الدين القسام » ومخاطبا أبناء فلسطين :

واغصب حقوقك ، قط لا تستجدها إن الألى سلبوا الحقــوق لئـــام
هذى طريقك للحيـــاة فلا تحـــد قـــد سارها من قبلك القســـــام

وله قصيدة أخرى يعرفهـــا كثيرون من أبناء فلسطين ويحفظونها مثلما يحفظون قصيدة الفدائى لابراهيم طوقان ، تلك هى القصيدة التى يرثى بها أحد شهداء فلسطين ويتحدث فيها عن نفسه :

ســــــأحمل روحى عــلى راحتى
وألقى بهـــا فى مهـــــاوى الردى
فأما حيـــاة تسر الصـــــديق
واما ممــــــات يسىء العــدى
ونفس الشريف لهـــا غايتـــان
ورود المنــــايا ونيـــل المنى
لعمــرك انى أرى مصـــــرعى
ولــكن أغــذ اليـــه الخطى

أرى مقتـلى دون حقى السـليب
ودون بـلادى هـو المبتـغى
وجسمى تجنـدل فـوق الهضاب
تناوشـه جارحـات الفـلا
فمنه نصـيب لطير السـماء
ومنـه نصـيب لأسـد الثرى
كسـا دمه الأرض بالأرجـوان
وأثقـل بالعطـر ريح الصـبا
وعفـر منـه بهى الجبـين
ولـكن عفـارا يزيد البهـا

وهكذا نجد عبد الرحيم محمود فى شعره كما فى حياته نموذجا حيا لوجدان المقاومة العربية الذى تربى فى قلب ثورة عام ١٩٣٦ ولم يكن يفرق بين الفن والعمل ، فكان شعره نضالا وحياته نضالا وقضيته الأولى والأخيرة هى تحرير فلسطين قبل أن تسقط فى قبضة المأساة ، ولقد أدى الشاعر الفارس النبيل رسالته حتى آخر قطرة من الدم .. فمات شهيدا لا يرى طريقا غير الاستشهاد خلاصا من المحنة .

بقى من الشعراء الثلاثة الذين يمثلون وجدان عام ١٩٣٦ ، أو وجدان المقاومة .. الشاعر « أبو سلمى » أو عبد الكريم الكرمى ، وهو الشاعر الذى مازال حتى اليوم يواصل رسالته النضالية عن طريق الفن والعمل السياسى معا ، وذلك بعد أن بدأ شابا فى ثورة عام ١٩٣٦ كما بدأ صديقاه ورفيقاه : ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود . وبقى أبو سلمى بعدهما حاملا لراية النضال حتى اليوم .

وأبو سلمى لايختلف من الناحية الفنية عن زميليه ابراهيم طـوقان وعبد الرحيم محمود ، وان كانت تجاربه الفنية قد اتسعت وأتيح له من العمر ماساعده على أن يبلور شخصيته الفنية فى صورة أكثر وضـوحا

وتحديدا ، كما أننا نجد فى شعره الى جانب خطه الأساسى وهو خط النضال والمقاومة خطوطا أخرى مثل : الحزن والتعبير عن صور المأساة بعد عام ١٩٤٨ ، وهذه مرحلة لم يشهدها ابراهيم طوقان ولا عبد الرحيم محمود .. لم يشهدوا ضياع الأرض ولا جموع اللاجئين المشردين ولم يعاصروا تلك النفسية التى سيطرت على الوجدان الفلسطينى بعد عام ١٩٤٨ وهى النفسية المليئة باليأس والتشاؤم والمرارة ، والتى استمرت مرحلة بأكملها وخلقت جيلا من الشعراء يعبر عنها ويختلف عن الجيل الأول : جيل المقاومة ، ويمكننا أن نسمى جيل مابين عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٦ من شعراء فلسطين باسم « جيل اليأس والهزيمة » أو جيل « الفردوس المفقود » .

لقد أصيب أبو سلمى بهذه الأحزان وعبر عنها ، فكانت قصائده الحزينة مثل الزهور الدامعة المعلقة على صدر شعره النضالى ، لأنه مازال فى حقيقته ابن ثورة عام ١٩٣٦ التى كانت نضالا ومقاومة واصرارا على النصر ولو بالاستشهاد .

على أن شعر « أبو سلمى » يختلف قليلا عن شعر زميليه ، لافى شكله الفنى ولا فى موضوعه الأساسى وهو المقاومة والنضال ، ولكنه يختلف فى طريقة الأداء ، فهو يعتمد أكثر من زميليه على الطابع العقلى ، فبينما كان ابراهيم طوقان يمثل عاطفة شعرية عنيفة ، نجد « أبو سلمى » يمثل عاطفة أهدأ وتفكيرا أكثر .. وهذا مايفسر لنا اهتمامه بالتفاصيل الكثيرة ، وبحثه المتصل عن زوايا متعددة للموضوع الذى يعالجه وبعبارة أخرى فنحن نجد عند « أبو سلمى » اهتماما عقليا وعناية فكرية بالقصيدة كعمل فنى من ناحية مادتها وشكلها وصورها الشعرية ، وهو أمر لم يكن يهتم به ابراهيم طوقان أو عبد الرحيم محمود اهتماما كبيرا ، فالقصيدة عندهما كانت فطرة تنفجر وعاطفة هادرة ومنشورا ثوريا .. كل ذلك بالطبع دون أن نفتقد فى « أبو سلمى » العاطفة الوطنية الدافئة الصادقة التى تربطه

تماما بأبناء جيل عام ١٩٣٦ من الشعراء والمناضلين .

فى قصيدة كتبها « أبو سلمى » عن ثوار جبل نابلس عام ١٩٣٦ ، وهو الجبل الذى يسمى باسم « جبل النار » ... يقول أبو سلمى فى هذه القصيدة :

جبل النـــار يا أعـــز الجبال
انت لازلت معقـــــد الآمال
تنبت المجد فوق سفحك فينان
وتســقيه من دم الأبطــــال
يفصح الصخر عن شمائل أبنائك
فوق اللظى وعنـــــد النزال
ما ذكرنا حمـــاك الا انتشينا
وانتشت نخوة رؤوس الرجال

هذا هو جبل المقاومة الذى تربى فى نيران ثورة عام ١٩٣٦ ، والذى كان شعره غذاء لهذه الثورة .. يلهبها ويطعم وجدانها بقصائده النبيلة الصادقة ، ويتحمل فى سبيل موقفه النضالى كل الصعوبات فلقد أصيب هؤلاء الشعراء جميعا بألوان مختلفة من الاضطهاد ، واستشهد أحدهم وهو عبد الرحيم محمود فى المعركة ، ولكنهم لم يترددوا لحظة فى مواصلة نضالهم والتعبير عن عدالة قضيتهم وتحريض الشعب على العمل الثورى .

وهذا الجيل من شعراء ثورة ١٩٣٦ هو التراث الفنى والنضالى الذى تجدد ــ شعرا وكفاحا ــ فى محمود درويش وفى جيله من شعراء المقاومة فى الأرض المحتلة .

ثم جاءت مأساة عام ١٩٤٨ ، وقامت دولة اسرائيل على أشلاء المواطنين العرب .. ومرت أعوام ظهر فيها شعراء فلسطينيون يائسون متشائمون .. انهم شعراء الهزيمة أو الشعراء المهزومون .

المهزومون

كانت سنة ١٩٤٨ تاريخا حاسما بالنسبة للوجـدان العربى عموما ، وبالنسبة للوجدان الفلسطينى على وجه الخصوص ، ففى هذا العام أقيمت دولة اسرائيل ، وانهزمت الجيوش العربية هزيمة سريعة ، ونجحت المؤامرة الصهيونية العالمية فى اقامة الدولة الاسرائيلية على أشلاء الشعب العـربى الفلسطينى ، وبدأت مرحلة واسعة من مراحل النفى والتشريد والابادة بالنسبة لعرب فلسطين ، فخرجوا من ديارهم ليعيش بعضهم لاجئين فى الخيام ، وخرج بعضهم الى البلاد العربية المجاورة يلتمس مأوى وعمـلا وظلا قليلا يخفى فيه حزنه ولوعته ومأساته ، وسالت دماء الآلاف منهم على التراب الفلسطينى وبقى البعض من أبناء فلسطين فى غزة أو فى مدن الضفة الغربية ينظر أمامه ليجد العدو يحتل وطنه ، وليجد أن مجموعة من الأسلاك الشائكة تفصل بين الفلسطينى وبين أخيه الخاضع لاحتلال اسرائيل ، وليجد أن الراية الاسرائيلية ذات النجمة السداسية ترفرف على المدن والقـرى التى كانت فى يوم غير بعيد مدنا عربية أصيلة . وانقسمت مدينة القـدس الى مدينتين ... مدينة يحتلها اليهود ومدينة أخرى للعرب .. واصـبح العربى يطل على الجزء المسروق من مدينته وفى قلبه لوعة لاتوصف .

لقد كانت سنة ١٩٤٨ كارثة كاملة بالنسبة للوجدان العربى ، وكانت هزيمة واضحة للانسان العربى وسحقا لكل المشاعر الثورية التى كانت تملأ قلبه .

وبالنسبة للفلسطينيين بالذات ، فان الموجة الثورية العنيفة التى انطلقت سنة ١٩٣٦ وأنجبت شعراء الثورة من أمثال : ابراهيم طوقان وأبو سلمى وعبد الرحيم محمود كما أنجبت زعماء وشهداء من أمثال : عز الدين

القسام .. هذه الموجة الثورية قد وصلت الى آخر مداها فى سنة ١٩٤٨ ، وأصابها انحسار شديد ، وتحولت من موجة ثائرة فى السياسة والشعر والعمل اليومى الى موجة يائسة .. وفى سنة ١٩٤٨ بالذات مات الشاعر عبد الرحيم محمود شهيدا فى احدى المعارك وانطوى الشاعر أبو سلمى على نفسه حزينا يطوى قلبه على جراح كثيرة .. وبذلك خمدت ثورة ١٩٣٦ وانطفأت شعلتها العنيفة . واستمد اليأس بين الفلسطينيين قوة أخرى جاءته من ذلك الشعور القاتم الحزين الذى ساد الوطن العربى كله بعد الكارثة .

وفى هذا العام بدأت فترة الحزن والأسى فى الشعر العربى الفلسطينى .. فشعراء مابعد عام ١٩٤٨ هم الشعراء « المهزومون » الذين يعبرون عن اليأس والمرارة والدموع والفردوس المفقود ، والذين فقدوا ديارهم وأرضهم ولم يجدوا بدلا منها أملا فى المستقبل أو نورا يضىء أمامهم ذلك الظلام الشامل .

وأى مراجعة لشعر هذه المرحلة سوف تكشف بوضوح أن اللغة الأصيلة فى هذا الشعر هى لغة اليأس ولغة الحزن ، وأن الأصوات القليلة التى ارتفعت آنذاك بالشعر الخطابى الرنان لم يكن لها تأثير كبير ، وانها كانت خالية من الأصالة الفنية .. لأن اللغة الصحيحة الصادقة فى تلك المرحلة كانت لغة اليأس والهزيمة . وأجمل نماذج الشعر الفلسطينى وأصدقها فى مرحلة ما بعد عام ١٩٤٨ هى هذه النماذج اليائسة الحزينة التى قد تنتفض أحيانا بالأمل ولكنه أمل خافت غامض لا يعرف طريقه الى المستقبل.

ولنقف أمام بعض النماذج الممتازة من شعر هذه المرحلة .. وسنجد أنفسنا بوضوح أمام روح الأسى واليأس والهزيمة .

فى قصيدة للشاعر الفلسطينى يوسف الخطيب ، وهو من أصدق وأعذب أصوات المأساة الفلسطينية ، نستمع اليه وهو يتحدث الى « قبرة » ، أو بالأحرى يتحدث عنها ، وكيف أن هذه « القبرة » تملك الحرية فى رؤية

الوطن والاستقرار على ترابه والتنقل بلا خوف بين أشجاره وأعشـابه وأزهاره .. بينما لايستطيع هو ، الفلسطينى صاحب الأرض ، أن يرى بلاده ، وكل مايملكه هو الحزن والدموع .. يقول يوسـف الخطيب :

تلك ياصاح قبرة ..
فى الحدود ..
خرقت ألف حرمة ..
للعهود ..
فهى تغدو طليقة ..
وتروح ..
وأنا مثخن هنا ..
بالجروح ..
ليتنى كنت قبرة ..
فأطير ..
وجناحى مصفق ..
فى الأثير ..
فوق بيارة لنا ..
وغدير ..
ليتنى كنت قبرة ..

ان فى هذه القصيدة التى كتبها يوسف الخطيب يأسا ومرارة واضحة ، فالشاعر لايملك أملا فى العودة الى داره كانسان ، فلابد له من «التحول» و « الحلول » فى جسد طائر طليق حتى يستطيع أن يعود .. وهذه الصورة التى يرسمها لنا الشاعر لتعبر عن تجربته النفسية تكشف لنا عن الفارق الكبير بين الانسان الفلسطينى سنة ١٩٣٦ والانسان الفلسطينى سـنة ١٩٤٨ وما بعدها .. فالانسان الفلسطينى سنة ١٩٣٦ كان جزءا من شعب ، وكان هذا الشعب يعيش فوق أرضه ويعيش فى ثورة ، والثورة تجعل الفرد

جزءا من جماعة كبيرة يشترك معها فى الفكر والعمل والشعور والأمل والألم . أما انسان عام ١٩٤٨ وما بعد هذا العام فهو انسان بلا أرض ، وهو وحيد ، منعزل ، فرد ، لا يرتبط بغيره ، لأن الشعب الفلسطينى تمزق ، وتناثر كأوراق الوردة التى داستها قدم قوية ، وعبثت بها رياح عاصفة .. فلا هو جزء من شعب .. لأن الشعب مبعثر متفرق ، ولا هو جزء من ثورة تجمع الأفراد فى وحدة قاسية شاملة .. انه الآن انسان وحيد ، على رصيف الحياة ، لا رفيق له ولا سند الا الخيال والتأمل والحلول الرومانسية المختلفة لهمه ومأساته .

وبهذه الروح الفردية المتوحدة المنعزلة ، التى لا تجد عزاء لها الا فى الوهم والخيال يكرر يوسف الخطيب فى شعره صورة الطائر الذى يملك حرية العودة الى الأرض .. وهى حرية عزيزة لا يملكها الانسان الفلسطينى الوحيد الضائع ، وهذه الصورة نلتقى بها فى قصيدة أخرى رائعة هى قصيدة العندليب المهاجر ليوسف الخطيب نفسه حيث يقول :

أتراك مثلى يا رفيق تمر فى الزمن
عبر المهالك ، والليالى السود ، والمحن
لا صاحب يرخى عليك غلالة الكفن
تذرو بقية عمرك الصادى بلا ثمن
لكأن فى عينيك بعض اللمح من وطنى
لو عشبة بيد ، ومزقة سوسن بيد
خبأتها بين الجناح وخفقة الكبد
لو رملتان من المثلث أو ربى صفد
لو عشبة بيد ، ومزقة سوسن بيد
أين الهدايا مذ برحت مرابع الرغد
أم جئت مثلى بالحنين وسورة الكمد ؟ !

هذا هو الشعور اليائس الحزين ، المليء بالقلق والحيرة ، والذى يعبر

عنه الشاعر المهزوم الذى ولد عام ١٩٤٨ .. فكان ابنا للهزيمة ، ولم يكن ابنا للثورة .. وأبناء الهزيمة لغتهم هى اليأس والشعور بالوحدة والعزلة ، أما أبناء الثورة فلهم لغة أخرى هى لغة الانتماء والمقاومة والاحساس بأنهم جزء من جماعة كبيرة واحدة .

ومن شعراء مرحلة الهزيمة ، بل ومن ألمع شعراء هذه المرحلة فدوى طوقان، فشعرها فى معظمه تعبير عن الهزيمة واليأس والمرارة والحزن ، ولاشك أن فى حياة فدوى الخاصة مايبرر حزنها: مثل فجيعتها فى شقيقها وأستاذها ابراهيم طوقان ، الذى مات سنة ١٩٤١ ، وهى فتاة صغيرة معلقة به أشد التعلق .. ولكن لو كانت المأساة الخاصة قد وقعت لفدوى طوقان وهى تنتمى الى شعب سعيد مطمئن ، أو الى مجتمع لم يتعرض لمأساة كبيرة ، بحجم المأساة التى تعرض لها شعب فلسطين ، لو كانت فدوى تعانى من مأساة خاصة فقط فلا شك أنها كانت ستجد العزاء بمرور الزمن ، وستجد مايخفف عنها تلك المحنة الذاتية .. ولكن المأساة الخاصة ازدادت حدتها مع المأساة العامة التى تعرض لها شعب فلسطين . ومن هنا كان شعر فدوى دموعا ومرارة وحزنا شاملا عميقا ، حتى لقد كان اسم ديوانها الأول يحمل لمسة من لمسات حزنها الكبير ويأسها الغامر فقد أسمت هذا الديوان « وحدى مع الأيام » ، وهذا الاسم هو تعبير صادق عن شعور الفلسطينى بعد عام ١٩٤٨ ، فلقد أصبح جزءا منعزلا عن الكل ، بعد أن كان جزءا متصلا أشد الاتصال بالشعب كله ، عندما كان هذا الشعب يواجه عدوه بالثورة العنيفة خلال أعوام ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ .

وفى قصيدة من قصائد « وحدى مع الأيام » تصور لنا فدوى طوقان هذه الروح المهزومة اليائسة فتقول :

حيـــاتى ، حياتى أسى كلهـــا
اذا ما تلاشى غـــدا ظلهـــا
ســيبقى على الأرض منه صدى

يردد صـــوتى هنـــا منشدا .
حياتى دموع
وقلب ولوع
وشـــوق وديوان شعر وعود
وهذا شبابى
أمان كوابى
شـــباب سـقاه الأسى ورواه
اذا ما دعتـــه اليهـــا الحيـــاة
وأشـــواقها ، شده ألف غـــل
وطـــوقه ألف طـــوق مـــذل
شباب عذاب
رهين اغتراب
يضيع شذاه بأسر القيـــــود

قد يتصور البعض أن قصيدة فدوى انما تعبر عن محنة ذاتية خاصة بها وحدها ، ولكن الحقيقة أن تعبير فدوى عن مأساتها انما يصور أيضا شعور الانسان الفلسطينى بعد سنة ١٩٤٨ كما ينعكس على نفس فتـــاة شاعرة حساسة مثل فدوى تنظر الى الدنيا فترى حياتها الخاصة مظلمة وترى الحياة العامة فى وطنها أكثر اظلاما وعتمة ، وترى اليأس ينشر سلطانه على عيون أبناء وطنها وقلوبهم ، سواء كانوا فتيانا أو فتيات أو أطفالا أو شيوخا ، سواء كانوا شعراء أو كانوا عمالا أو فلاحين أو عاطلين أو ساكنى خيام يعيشون على معونة الأمم المتحدة حيث يعيش اليهود فى بيـــوت العرب ويأكلون من ثمار أرضهم .

هذه الروح اليائسة ، روح الهزيمة ، تملأ كل الشعر الذى ظهر بعد عام ١٩٤٨ ، حتى الشاعر الكبير أبوسلمى ، ابن ثورة عام ١٩٣٦ ، قد امتد اليأس الى قلبه ، وسيطرت عليه روح الهزيمة ، ونحن لانجد هـــذه

الروح المهزومة فى شعره الوطنى فقط ولكننا نجدها أيضا حتى فى شعره العاطفى ، فهذا الشاعر الحساس المحب للحياة ، قد أصيبت نفسه بجراح قاتلة ، جعلته لا يجد متعة فى أى مظهر من مظاهر الجمال ، ولعل روحه قد أصابها ما أصاب المتنبى حين قال وقد تجمدت ينابيع الحياة فى قلبه :

أصخرة أنا ؟ ما لى لا تحـــركنى
هذى المـــدام ، ولا تلك الأغاريد

وبهذا الشعور المنصرف عن الحياة ، الذى لا يحس بالمتعة ولا يتأثر بالجمال ولا يتذوق طعما لأى شىء ، يتحـــدث أبو سلمى فى قصيدة له فيقول :

أين الشـــــذا والحـــلم المزهـــر
أهكذا حبـــك يا أســـمر ؟ . .
أهـــــكذا تذوى أزاهـــيرنا ؟ ..
وكان منهــــا المســـك والعنبر ..
الشـــفة الحلوة ما بالهـــــا ؟ ...
تحمل لى الخمـــر ولا أســـكر ؟
والعين لا تبســـم عند اللقـــا ..
الســـحر فى العـــين ولا تســـحر !

إن الشاعر هنـــا يعبر عن روح حزينة يائسة فقدت الحياة معناها فى وجدانه .. وأصبحت خالية من كل ايحاء جميل . وتلك هى روح الهزيمة التى مست بيدها كل شىء ، وأخرست كل أناشيد الفرح والأمل فى قلوب الشعراء .

وسوف نجد هذه الروح سائدة فى معظم الشعر الصادق الذى صدر عن شعراء فلسطين فى هذه الفترة .. سوف نجدها عند سلمى الخضراء ، وهى شاعرة فلسطينية أصيلة ذات موهبة خصبة حقا ، انها تعبر بطريقتها الخاصة عن روح الهزيمة واليأس :

شـــجر الزيتون لم يثمر لنـــا زيتـــا ونارا

واســـتحال اللـــون فى أوراقـــــه
ونسيم الصــبح لم يحمل لنا شوقا مشــارا
عانق الاغــــراب فى أشـــــواقه

ونقرأ لشاعر آخر من أبناء جيل عام ١٩٤٨ ، هو هارون هاشم رشيد تعبيرا مباشرا حزينا مليئا بالدمع والتساؤل والارتباط بمأساة بلاده :

يمر العـــام اثر العام يا أبتى ... بلا جـــدوى
فلا أمل ولا بشرى ، ولا نجوى ولا ســـلوى
سوى الآلام والشجن ، سوى الأحزان والمحن
سوى صوت من الأقدار ، يهتف دائما : وطنى
لماذا .. نحن يا أبتى ، لماذا ... نحن أغــراب ؟

معظم ماصدر عن الشاعر الفلسطينى بعد عام ١٩٤٨ هو صدى الجرح ، وتعبير عن المأساة ، وتصوير للتشتت الذى أصاب الفلسطينيين .. ولقــد كان هناك بين الحين والحين أصوات تحاول أن تتمرد ولكن صوت اليأس كان يخنق صوت التمرد ويرتفع فوقه .. ذلك لأن جيل عام ١٩٤٨ .. كان جيل الهزيمة وجيل المهزومين . وليست هذه الحقيقة طعنا فى هــذا الجيل أو تقليلا من شأنه ... على العكس لقد كان أبناء هذا الجيل من أكثر الذين تألموا وتعذبوا وتحملوا الكثير من الهموم فى سبيل وطنهم ، ولقد كانت أحزانهم مقدمة حية لكل ماجاء بعــدهم من مظاهر الثورة والتمرد كما كان هذا الحزن تنبيها للضمير العربى حتى يتيقظ ويبــدأ مرحلة جديدة من مراحل التاريخ فى الأرض العربية .

الشاعر الجديد

انني أبحث فى الأنقاض عن ضوء
وعن شعر جديد

محمود درويش

ظل صوت اليأس بالنسبة للشاعر العربى الفلسطينى هو أعلى الأصوات جميعا بعد عام ١٩٤٨ ولعدة أعوام تالية ... وكان هذا الصوت اليائس تعبيرا عن الضياع والتشتت الذى أصاب فلسطين وشعبها ، فلقد كان الفلسطينيون بعد عام ١٩٤٨ مشردين يبحثون عن مأوى أو لاجئين فى الخيام يعيشون على المعونات والصدقات أو أفرادا متفرقين يعيشون على هامش مجتمعات عربية أو أجنبية أخرى .. وكان الوطن العربى كله يمر فى حالة من اليأس الشامل والحزن العميق ، ولذلك لم يجد الشاعر الفلسطينى مصدرا يلهمه بالقوة والأمل ويمنحه شعورا بالتفاؤل ، ولو كان هذا التفاؤل محدودا وقليلا .. لم يكن هناك مصدر للضوء أو منبع من منابع الأمل . كان هناك بعض المظاهرات أو الانفجارات العنيفة بين الحين والحين تجرى على سطح الحياة العربية .. ولكنها كانت نوعا من البرق الخاطف .. سرعان ماينطفىء بعد أن يشتعل بقليل .

ولكن هذه الموجة اليائسة التى ملأت أرض الوطن العربى بأكمله بدأت تتغير شيئا فشيئا ، وببطء ، وكانت نقطة البداية ولاشك هى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . فلقد كانت هذه الثورة أول احتجاج ناجح على الأوضاع الفاسدة فى الوطن العربى والتى كان من الواضح أنها سبب رئيسى من أسباب المأساة الفلسطينية . ولقد كشفت قصة الأسلحة الفاسدة فى الجيش المصرى على سبيل المثال أن الضباط والجنود المصريين الذين كانوا يحاربون فى فلسطين عام ١٩٤٨ .. هؤلاء المقاتلون كان ظهرهم عاريا تماما .. فالعدو أمامهم والخيانة وراءهم فى نفس الوقت . فهم يحاربون اليهود وجها لوجه ، ولكن كانت وراءهم مجموعة من التجار والاستغلاليين

والسياسيين والحكام الذين لا يعنيهم من الأمر شيء على الاطلاق سوى مصالحهم التجارية وزيادة ثروتهم حتى ولو كان ذلك على حساب أرواح الجنود والضباط المصريين .. حتى ولو كان ذلك على حساب الشعب الفلسطيني الذى ضاعت أرضه وتمزق أفراده وتشتتوا فى كل مكان .

ولذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو بداية الرد على هذه الظروف الفاسدة التى كانت من أهم عوامل المأساة . وكانت ثورة ٢٣ يوليو بداية لانتعاش الأمل فى نفس الشاعر الفلسطينى ، وبداية لميلاد شعور جديد عنده يخلصه من الاحساس بالانسحاق والهزيمة نتيجة لما حدث فى عام ١٩٤٨ . على أن هذا الشعور الجديد لم يتبلور بصورة واضحة الا بعد عدوان عام ١٩٥٦ ففى هذا العدوان كانت هناك مواجهة صريحة بين العرب والاسرائيليين ، ولم يستسلم العرب أمام المؤامرة الصهيونية التى تمت بمساعدة الجيوش الانجليزية والفرنسية ، بل صمدوا وقاوموا مقاومة شعبية واضحة فى بور سعيد ، وقاوموا مقاومة سياسية كبيرة واسعة النطاق .. وانتهى الأمر بانسحاب الجيوش الغازية من الأرض العربية ..

وكان الأثر الاكبر لهذه التجربة أن الأمل ولد من جديد فى نفس الشاعر العربى .. والشاعر الفلسطينى على وجه الخصوص .

اذن .. فالمواجهة ممكنة ، والتمرد على الاحتلال الاسرائيلى ممكن : والأمل فى التخلص من المأساة ممكن .

وبدأ الشاعر الفلسطينى يخرج من خيمة المهزومين .. ولكن على مهل ، وخطوة بعد خطوة . وساعد على ذلك قيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ، حيث أعطت الوحدة أملا كبيرا فى أن يحقق العرب أهدافهم ، ويستردوا حقوقهم .. وتبدأ رحلتهم من جديد نحو استعادة أرضهم الضائعة.

وفى عام ١٩٥٦ بالذات وقعت فى الأرض المحتلة مذبحة « كفر قاسم » التى أشرنا اليها فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، وكانت هذه المذبحة صدمة عنيفة لعرب فلسطين المحتلة ، وقد أيقظتهم هذه الصدمة وقدمت

لهم صورة واضحة لنوع الحياة التى تنتظرهم فى « اسرائيل » ، وأثبتت لهم أن الاسرائيليين لن يتركوهم فى أمان ، حتى لو استسلموا هم للمأساة . وقبلوا الأمر الواقع ، وأثبتت لهم هذه المجزرة أيضا أن عرب الأرض المحتلة لم يعد أمامهم سوى الكفاح والنضال للخلاص من الوضع الذى يعانون منه ، خاصة أن الأمة العربية التى ينتسبون اليها قد بدأت تستيقظ ، وكان الانتصار على العدوان الثلاثى أكبر علامة من علامات الأمل الجديد الذى بدأ يولد فى النفس العربية اليائسة المهزومة الحزينة .

ثم جاءت وحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسوريا فأكدت هذا الأمل وغذته بالمزيد من الحرارة والقوة .

واذا بحثنا فى الشعر الفلسطينى عن المظاهر الجديدة لاسترداد النفس ، وعودة الأمل ، والخلاص من روح الهزيمة .. فاننا نجد أول مظهر حقيقى لهذه الروح الجديدة فى الشعر الفلسطينى انما يأتينا من داخل الأرض المحتلة نفسها ، لقد بدأ الشاعر الفلسطينى طريق التمرد .. وكانت البداية من فوق التراب الفلسطينى الذى يحتله العدو .. أى من تلك المنطقة التى تصور الاسرائيليون أنهم لن يسمعوا صوتها أبدا بعد عام ١٩٤٨ .

ففى قصيدة للشاعر حبيب قهوجى من قرية « فسوطة » فى الأرض المحتلة كتبها الشاعر خلال العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، يقول الشاعر :

تفجر من صميمى يا قصيدى
جرىء اللحن تسخر بالقيود
وارسلها مجلجلة تدوى
الى أرض القنال وبور سعيد
الى الأبطال قد طاروا خفافا
لصد الغزو كالقدر المبيد
قبعت بقرب مذياعى شرودا
وروحى عندكم رغم السدود

تحـــــرق مهجتى وتــــذيب نفسى
معــــانقة المعــــارك من بعيـــد

وفى قصيدة أخرى من الأرض المحتلة للشاعر حنا أبو حنا عن بورسعيد أيضا ، كتبها الشاعر فى نفس الفترة ، أى أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، يقول الشاعر :

بورسعيد الصـــمود مينــــاء عــز
بك أرســـت أحلامنـــا المعســولة
وعلى صـــخرة الخليج على شــــطيك
تفنى كل الجيــــوش الدخيـــــلة
هتف المجـــد بالرجــــال فهبـــوا
... أى حر يطيق الحيــاة الذليـــلة !

وقد وردت هاتان القصيدتان فى كتاب الأستاذ غسان كنفانى « أدب المقاومة فى فلسطين المحتلة » .. والذى يهمنا فى هاتين القصيدتين قبل أى اعتبار فنى آخر هو روح الأمل والتفاؤل بالمستقبل ، والتى بدأ الشاعر الفلسطينى يسترد من خلالها أنفاسه ويرفع رأسه ، بعد أن كان مكسور الجناح لايجد أمامه غير الهزيمة بمشاعرها السوداء القاتمة .. كل ذلك رغم مانجده فى القصيدتين السابقتين من تعبير مباشر وصوت خطابى صارخ ، رغم ذلك كله فالأمل ينبض فى حروف القصيدتين ويملأ قلب الشاعرين

ان الشاعر الفلسطينى منذ عام ١٩٥٦ وبعد الانتصار على العدوان يتغير ويتفتح وينظر الى مصيره نظرة جديدة .

بل نستطيع أن نقول : ان شاعرا جديدا قد ولد على أرض المأســاة الفلسطينية .. وهو شاعر لايحس أنه وحيد منعزل مشتت منفى ، ولايحس بأن اليأس هو غذاؤه الوحيد ، وأن الحزن والكآبة هما « المادة الشعرية » الوحيدة أمامه .. شاعر ينتمى الى قوة شعبية وأمة بدأت تستيقظ وتطالب بحقوقها ، لا شاعر يحس أنه لم يعد يملك الا ذكريات قديمة مبعثرة ودارا

ضاعت منه وأرضا اغتصبها اليهود ولم يعد له فيها شيء .. ذلك كان صوت الهزيمة ، صوت الشاعر الذى ولد بعد عام ١٩٤٨ .. أما الآن فهناك صوت جديد ، صوت الشاعر الذى ولد بعد عام ١٩٥٦ . وهو يولد هذه المرة من قلب الجرح الكبير . من قلب فلسطين المحتلة .

ويزداد الشاعر الفلسطينى الجديد قوة وأصالة وذلك بعد وحدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨ .. وفى قصيدة كتبها الشاعر توفيق زياد من الأرض المحتلة أيضا ، وكتبها عام ١٩٥٨ بالتحديد .. يقول توفيق زياد فى هذه القصيدة التى كتبها من السجن وعنوانها من وراء القضبان :

ان يحبسونا ... انهم
لن يحبسوا نار الكفاح
لن يحبسوا عزم الشباب الحر
يعصف كالرياح
لن يحبسوا أغنية
تعلو على هذى البطاح
شرقية ، عربية الألحان ،
حمراء الجناح
طلعت على الأرض الخصيبة
مثل آلهة الصباح
ياطغمة الحكام زيدى
هل لاضطهادك من مزيد
ألقى القيود على القيود
سوداء باردة الحديد
سيعود شعبى فى ضياء الشمس
من خلف الحدود
سيعود للطلل المهدم

يبتنيه من جديد
سيعود للأرض الحبيبة
للزنابق للورود
ســـيعود
رغم النار ، والأغلال
خفاق البنود

هذه الروح الثائرة المتمردة المليئة بالأمل والتفاؤل هى روح الشـاعر الفلسطينى الجديد .. وهذه الروح لم تخمد أبدا منذ أن استيقظت حتى اليوم ، رغم أنها تعرضت لأزمات وصدمات متعددة ، مثل انفصال سبتمبر عام ١٩٦١ بين مصر وسوريا ، ومثل نكسة يونيو عام ١٩٦٧ ، ان الروح التى ولدت عام ١٩٥٦ ، لم تمت ولم تستسلم واستفادت قوة جديدة من كل التجارب القاسية التى مرت بها .

ومحمود درويش هو ابن هذه المرحلة الجديدة فى الشعر الفلسطينى ، مرحلة الأمل والتفاؤل والتمرد والثورة .. بل ان محمود درويش هو واحد من أجمل وأصدق الأصوات الفنية المعبرة عن هذه المرحلة الجديدة فى الشعر العربى الفلسطينى .. انه خلاصة نقية أصيلة لهذه المرحلة الجديدة ، مرحلة التفاؤل الثورى ، رغم أن صوته الشعرى لم يرتفع الا بعـد عام ١٩٦٠ ..

ومنذ أن ارتفع صوت محمود درويش وهو يحلق فى عالم الأمـل والتفاؤل الثورى ، ولا يتردى أبدا الى قاع اليـأس القاتم أو الهزيمة الساحقة ...

ذلك لأنه يرى بقلبه الكبير حقيقة المأساة ، ويرى أن الظلم الذى وقع على العربى الفلسطينى لابد أن يزول ، وان منطق التاريخ يؤكد ذلك ، وانه مهما كانت الظروف القاسية التى يمر بها الانسان العربى فى فلسطين المحتلة فان عودة الأرض الى أصحابها حلم ليس ببعيد .. بل انهـا حلم

سوف يجسده الواقع فى صورة مادية حقيقية فى يوم من الأيام .

لقد مرت على الشاعر العربى خارج الأرض المحتلة فترات من اليأس والتشاؤم صبغت شعره بلون قاتم ، خاصة بعد ١٩٤٨ كما أشرنا فى الفصل السابق ، رغم أن الشاعر العربى خارج الأرض المحتلة لم يتعرض أبدا لكل ماتعرض له العرب داخل أسوار اسرائيل . فمن أين جاء الأمل ومن أين جاء التفاؤل الى شعراء الأرض المحتلة ؟ .. لاشك أن أقوى سبب وراء التفاؤل العظيم هو القانون الذى سماه المؤرخ الانجليزى والفيلسوف الكبير توينبى باسم قانون « التحدى والاستجابة » .. فعندما يتعرض الانسان لأزمة عنيفة تهدد وجوده كله تكون هذه الأزمة هى التحدى الذى يحتاج الى استجابة معينة .. فاذا كان الانسان قادرا على البقاء ، قادرا على مواجهة التحدى ، قادرا على أن يحاول بأفضل مالديه من قوى وعناصر على أن يقف على قدميه رغم الظروف السيئة العاصفة التى تحيط به .. وعندما يستطيع الانسان أن يفعل ذلك كله فانه يواجه التحدى وينتصر عليه . وعندما يعجز عن مواجهة هذا التحدى فانه ينتهى ويتلاشى .

والانسان العربى فى الأرض المحتلة يتعرض لمحنة خطيرة ليس بعدها محنة .. وهى محنة تهدده بالقضاء على أرضه وحياته .. تهدده باقتلاع كل جذوره ، بل لقد تم اقتلاع جذور عدد كبير من المواطنين العرب قبل ذلك من أراضيهم فى فلسطين .. وبقى هؤلاء الذين يبلغون ربع مليون عربى أو يزيدون قليلا داخل أسوار اسرائيل ينتظرون مصيرهم .

من هنا لم يعد أمامهم الا الكفاح المستميت من أجل قضيتهم ، لم يعد أمامهم فرصة للتردد او التخاذل ، فمصيرهم فى مهب العواصف ، ولذلك فهم يبذلون أقصى مالديهم من جهد مادى ومعنوى فى سبيل هذه القضية . وخاصة بعد أن انتهت صدمة ١٩٤٨ بانتصار العرب على العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ .

ولذلك أيضا جاء هذا الجيل الجديد من شعراء الأرض المحتلة ، وقد

امتزجت فى نفسه مرارة التجربة وقسوة الضغط والارهاب ، وعمق الاحساس بظلم العدو ، امتزج هذا كله بعدالة قضية الانسان العربى .. كل هذا ساعد فى تكوين نفسية خاصة للشاعر العربى الجديد فى الأرض المحتلة والذى نسميه باسم « شاعر المقاومة »

لنأخذ مثلا شاعرنا محمود درويش .. لقد هدم اليهود قريته «البروة» أما هو فقد دخل السجن أكثر من مرة وفقد عمله أكثر من مرة ، وهو يعيش – رغم كل مواهبه – حياة مليئة بالمتاعب المادية والتمزق المعنوى ، وسميح القاسم شاعر آخر من هؤلاء الشعراء الممتازين .. لقد طردوه من عمله وسجنوه وصادروا شعره . وتوفيق زياد .. انه هو الآخر شاعر مطارد مضطهد هو وأهله من العرب فى كل مكان من الأرض المحتلة . فماذا بقى لهؤلاء غير الثورة وغير الاصرار وغير التمرد ؟! والثائر لا يمكن أن يكون متشائما . لأن التشاؤم يشل قدرة الانسان على الحركة والعمل . انه يجعل الانسان فى حالة سقوط معنوى كامل . أما الثائر الحقيقى ، فلابد أن يكون متفائلا ، فالتفاؤل وحده هو الذى يمكن أن يمنح الانسان قدرة على العمل والتمرد واحتمال الاضطهاد الكبير الذى يتعرض له .. ولايوجد فى التاريخ كله ثائر غير متفائل ، فالثورة فى جوهرها ايمان بامكانية تحقيق العدل فى هذا العالم ، وايمان بأن العمل والكفاح والمحاولة كلها أشياء مجدية .. وأن النصر فى النهاية ممكن . وكلنا يذكر ذلك الثائر الصينى الذى كان يقول « هذا مجرد فشلنا الأول .. هذا مجرد فشلنا الثالث . هذا مجرد فشلنا العاشر » .. لقد كان متفائلا لايعرف اليأس ، وهكذا دائما شأن الثوار ، فالثوار يحملون فكرة مؤمنة بضرورة تغيير الواقع ، ولابد لهم من أن يؤمنوا بامكانية تغيير هذا الواقع . وعندما وقعت أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧ لم يتزعزع ايمان « شاعر المقاومة » فى الأرض المحتلة .. لقد هزتنا هذه الأحداث جميعا ، وأثرت فى نفوسنا تأثيرا كبيرا وكشفت لنا عن لحظات سوداء قاتمة مليئة باليأس ، ولكن أبناء الأرض المحتلة تلقوا

الصدمة بقوة أكثر منا ، لقد عرفوا من قبل صدمات مثلها وأكثر منها .. وتعودوا على هذه الصدمات ، ولذلك فهم قادرون على احتمالها والخلاص منها ومواصلة طريق الثورة والتفاؤل

يقول سميح القاسم فى قصيدة له عن ٥ يونيو :

نحن ، فى الخامس
من شهر حزيران ،
ولدنا من جديد

ويقول محمود درويش بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ أيضا :

وليكن ..
لابد لى
لابد للشاعر من نخب جديد
وأناشيد جديدة

ويقول محمود درويش أيضا فى حديث له مع الكاتب اللبنانى محمد دكروب « مجلة الطريق نوفمبر ١٩٦٨ » :

« أدبيا .. لم تخلق حرب حزيران تأثيرا مفاجئا ، ولم تقلب أفكارى رأسا على عقب ، ولم تحطم قيمى كما فعلت ، ومن الخير أنها فعلت ، بالكثيرين من الشعراء خارج بلادى ، لم أكن جالسا فى برج حمام لكى تقنعنى بمثل هذا الدليل الفادح على ضرورة النزول الى الشارع . ولكنها كانت مكاشفة جارحة . وأضافت ، لمن لم يصدق حتى ذلك الحين برهانا جديدا على ضرورة ممارسة العمل والفكر الثوريين الحقيقيين ، وعلى أن الأدب ليس سلعة أو متعة . وهذا ماكنا نؤمن به ، حتى النخاع ، قولا وعملا . ومازلنا بعد حزيران أشد ايمانا . ومن الضرورى أن يستفيد منها أولئك الذين سودوا أطنانا من الورق ضد التزام الأديب بقضيته وضد تسلح الأديب بفكر ثورى حقيقى . ومن الموجع حقا أن يحتاج أديب الى مثل هذه الكارثة لاكتشاف مايشبه البديهيات . وأذكر أنى قلت لفدوى طوقان ،

فى لحظات لقائنا الأول فى حيفا : هل ترين يافدوى أن شهرا واحدا من الاحتلال قد حل ، عندك ، كل المناقشات الطويلة حول الشعر ؟ مشيرا الى الانعطاف الواضح فى شعر فدوى بعد احتلال نابلس . وقلت لها ، بكثير من الوجع : آمل أن يستفيد الجميع مما حدث ، لئلا يأتى نزار قبانى ، لزيارتنا »

ويشير محمود درويش فى تلميحه الأخير الى أن الأديب العربى ، والانسان العربى اذا لم ينتبها الى واجبهما كاملا فسوف تتعرض أراض عربية كثيرة للاحتلال والغزو بحيث يصبح عدد كبير من المواطنين فى حالة تشبه حالة محمود درويش .. تحت الاحتلال الاسرائيلى .

يقول محمود درويش فى قصيدة له :

خسرت حلما جميلا
خسرت لسع الزنابق
وكان ليلى طويلا
على سياج الحدائق
وما خسرت السبيلا

... انه شاعر متفائل بين شعراء متفائلين .. انه يرى خسائره الفادحة وهو مع ذلك صامد وصابر وقوى لأنه كما يقول وكما ينبغى أن نقول نحن معه : « .. وما خسرت السبيلا » .

ملامح شخصية

ولد محمود درويش فى ١٣ مارس سنة ١٩٤١ ، وهناك بعض الأحاديث الصحفية التى أدلى بها محمود درويش والتى توحى أنه ولد سنة ١٩٤٢ ، ففى حديث أدلى به للأستاذ محمد ابراهيم دكروب ونشره فى مجلة الطريق اللبنانية يتحدث محمود درويش عن مأساة ١٩٤٨ كما أحس بها فى قرينه الفلسطينية الصغيرة « البروة » فيقول :

« .. الرصاص الذى انطلق فى تلك الليلة من صيف ١٩٤٨ فى سماء قرية هادئة « البروة » لم يميز بين أحد ، ورأيت نفسى ، وكان عمرى يومها ست سنوات أعدو فى اتجاه أحراش الزيتون السوداء ، فالجبال الوعرة .. مشيا على الأقدام حينا وزحفا على البطون حينا ، وبعد ليلة دامية مليئة بالذعر والعطش وجدنا أنفسنا فى بلد اسمه لبنان .. »

ثم يعود محمود درويش فى نفس الحديث ليشير الى أن ميلاده كان سنة ١٩٤٢ فيقول عن ديوانه الأول :

« أول ديوان مطبوع لى لايستحق الوقوف أمامه . كنت فى سنتى الدراسية الأخيرة « ١٨ سنة » وكان تعبيرا عن محاولات غير متبلورة . صدر عام ١٩٦٠ واسمه : عصافير بلا أجنحة .. »

ومن خلال هذا الحديث نستنتج أن محمود درويش ولد سنة ١٩٤٢ ، وقد سألت محمود درويش عندما التقيت به فى القاهرة فى فبراير ١٩٧١ عن تاريخ ميلاده الصحيح فقال لى : انه أخطأ فى حديثه الى مجلة الطريق عندما قال انه خرج من قريته « البروة » وسنه ست سنوات ، فالصحيح أنه خرج منها وسنه سبع سنوات ، كما أن ديوانه الأول صـــدر سنة ١٩٦٠ وكان سنه آنذاك ١٩ سنة لا ١٨ سنة كما ذكر محمود نفسه فى

حديثه الى مجلة الطريق . وذكر لى محمود درويش بعد ذلك أن تاريخ ميلاده الصحيح هو ١٣ مارس ١٩٤١ . وقد أشرت فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب الى أن محمود درويش ولد سنة ١٩٤٢ وكان هـذا خطأ قادنى اليه حديث محمود درويش لمجلة «الطريق» أما قرية محمود درويش التى ولد فيها وعاش بها حتى سنة ١٩٤٨ فهى قرية « البروة » بكسر الباء، ويحدثنا الأستاذ مصطفى مراد الدباغ فى كتابه « جغرافية فلسطين » عن قرية البروة فيقول :

« انها قرية تقع شرقى عكا على مسيرة ٩كيلومترات منها ، بها١٤٦٠ نسمة وقد مر بالبروة ناصر خسرو الرحالة الفارسى المسلم فى القرن الخـامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وقال انه زار فيها قبر «عيسى» و«شمعون» والبروة من المدن التى بناها الرومان أو أعادوا بناءها فى فلسطين » . ثم يقول الكاتب وحديثه هنا يتصل بفلسطين حتى سنة ١٩٤٨ « ومازال كثير من مدن وقرى بلادنا تحتفظ بأسمائها التى عرفت بها فى عهد الرومان أو حرفت تحريفا ظاهرا ، فقرية البروة كان اسمها Biri »

هذه فكرة عامة عن قرية محمود درويش حتى سنة ١٩٤٨ ، ولكن هذه القريه تأثرت بالمأساة الفلسطينية تأثرا مباشرا ، فقد هدم اليهود هـذه القرية كما فعلوا بكثير من القرى العربية الأخرى ، كذلك غير اليهود اسم القرية من « البروة » وهو اسمها الأصلى الى « أحيهود » وحولوها الى موشاف وهو القرية التعاونية اليهودية . وكل سكان هذا « الموشاف » من اليهود اليمنيين المهاجرين الى اسرائيل . كما تحول جزء من قـرية البروة أيضا الى كيبوتز اسمه كيبوتز (١) « يسعور » وكل سكان هذا الكيبوتز من اليهود الانجليز المهاجرين الى اسرائيل .

وعندما احتل اليهود قرية « البروة » سنة ١٩٤٨ تجمع أهل القـرية مع عرب القرى المجاورة وحرروها من الاحتلال الاسرائيلى ، ولـكن اليهود عادوا الى احتلالها بعد أسبوع . ولاشك أن من العوامل التى دفعت

(١) الموشاف هو القرية التعاونيـة والكيبوتز هو المزرعة الجماعية

اليهود الى هدم القرية بعد ذلك أن هذه القرية قاومتهم بشدة مما دفعهم الى الانتقام والثأر منها بعنف وقسوة ، كما حرص اليهود على احتلال هذه القرية وطرد كل سكانها العرب لأن القرية نفسها تتميز بأرضها الخصبة ومزروعاتها الممتازة من الحبوب والخضروات والزيتون . وقد خرج أهل قرية البروة بعد هدمها ولجأوا الى القرى المجاورة التى استطاعت أن تنجو من أيدى اليهود ، كما لجأ بعض السكان الى سوريا ولبنان ، أى أن هؤلاء السكان تحولوا الى لاجئين فى البلاد العربية أو لاجئين فى الأرض المحتلة . ومن المعروف أن بعض أهل البروة الأصليين ــ وهذا ليس غريباً فى اسرائيل ــ يدخلون الآن أرض « البروة » بتصريح من السلطات الاسرائيلية ليعملوا أجراء أو عمال بناء فى القرية التى كانت لهم ، وكانوا يعرفون فيها كل ذرة تراب وكل شجرة زيتون وكل نسمة هواء .. لقد تحولوا الى أجراء عند الذين سلبوا القرية وهدموها وأقاموا على أنقاضها مشروعاتهم الجديدة . وعلى الأجير العربى ابن « البروة » الأصلى أن يدخل القرية فى الصباح ويغادرها فى المساء بتصريح خاص ، لأن المطلوب منه هو قوة عمله التى يستغلها اليهود .. فلم يعد للعربى فى قريته دار ولا زيتونة ولا عصفورة ولا نسمة هواء .

ويروى محمود درويش فى حديث هام له مع احدى الصحف العبرية هى صحيفة « زوهديرخ » قصته التى امتزجت بقصة أهله وقريته ، وقد أجرى هذا الحديث معه الصحفى اليهودى « يوسى الغازى » ، وقد وصفت الصحف العبرية هذا الحديث بأنه « أول لقاء مباشر بين محمود درويش والقارىء العبرى » ، ذلك لأن الصحافة العبرية عموما لا تهتم الا فى أضيق نطاق بالمواطنين العرب وهى لاتهتم أى لون من ألوان الاهتمام بالشعر العربى فى الأرض المحتلة وتنظر اليه على أنه حركة عديمة الأهمية والتأثير ، أما صحيفة « زوهديرخ » فهى صحيفة أسبوعية ناطقة بلسان الحزب الشيوعى الاسرائيلى وهو الحزب الذى يتعاطف مع

العرب أكثر من أى قوة سياسية أخرى فى اسرائيل .

وهذا الحديث الذى أدلى به محمود درويش للصحيفة يعتبر وثيقة هامة من عدة جوانب ، فهو وثيقة تاريخية ، لأنه يسجل ما حدث لقرية « البروة » ولمحمود درويش ولأسرته ، وماحدث للقرية والشاعر والأسرة ليس حادثا خاصا بل هو حادث عام أصيبت به القرى والمدن والناس فى الأرض المحتلة ، وما القصة التى يرويها محمود درويش فى هذا المجال الا نموذج واحد تكرر مرات عديدة .. بعدد البلاد وعدد المواطنين فى فلسطين المحتلة ، والحديث من ناحية أخرى وثيقة سياسية لأنه يكشف عن الكثير من فكر المحتل الصهيونى فى مواجهة المقاومة العربية سواء كانت هذه المقاومة سلبية كمجرد التمسك بالأرض والرضا باللجوء والغربة فى الدار والوطن داخل فلسطين المحتلة أو كانت مقاومة ايجابية كالعمل العنيف على استرداد الأرض واعادتها الى أصحابها الحقيقيين ، كما أن هذا الحديث وثيقة انسانية لأنه يكشف عما تعرض له العرب من ظلم واضطهاد وامتهان لحقوقهم كبشر ، كما يكشف عن الظلم والغرور والنزعة العدوانية التى تتمثل فى الحركة الصهيونية وتتجسد عمليا فى دولة اسرائيل، والحديث الذى أدلى به محمود درويش هو أيضا وثيقة أدبية تكشف عن موهبة هذا الشاعر الفنان المناضل الذى جعل كل مواهبه فى خدمة التعبير عن قضيته العادلة حيث امتلأ الطريق اليها بالشوك والألم والاستشهاد والحزن العميق . ومن أجل هذا كله فأنا أستأذن القارىء فى نقل فقرات طويلة من هذا الحديث الذى يصور لنا مأساة حياة محمود درويش ومأساة قريته وفوق ذلك كله مأساة وطنه وشعبه .

يقول محمود درويش فى حديثه عن قريته وطفولته ، وأنا أنقل هنا من نص الحديث كما نشرته مجلة الآداب البيروتية فى ابريل ١٩٧٠ :

« أذكر نفسى عندما كان عمرى ست سنوات . كنت أقيم فى قرية جميلة وهادئة ، هى قرية البروة الواقعة على هضبة خضراء ينبسط أمامها سهل

عكا . وكنت ابنا لأسرة متوسطة الحال عاشت من الزراعة . عندما بلغت السابعة توقفت ألعاب الطفولة .. وانى أذكر كيف حدث ذلك .. أذكر ذلك تماما : فى احدى ليالى الصيف التى اعتاد فيها القرويون أن يناموا على سطوح المنازل ، أيقظتنى أمى من نومى فجأة ، فوجدت نفسى مع مئات من سكان القرية أعدو فى الغابة ، كان الرصاص يتطاير فوق رؤوسنا ، ولم أفهم شيئا مما يجرى . بعد ليلة من التشرد والهروب وصلت مع أحد أقاربى الضائعين فى كل الجهات الى قرية غريبة ذات أطفال آخرين . تساءلت بسذاجة أين أنا ؟ وسمعت للمرة الأولى كلمة : لبنان »

« يخيل الى أن تلك الليلة وضعت حدا لطفولتى بمنتهى العنف فالطفولة الخالية من المتاعب انتهت . وأحسست فجأة أنى أنتمى الى الكبار . توقفت مطالبى وفرضت على المتاعب . منذ تلك الأيام التى عشت فيها فى لبنان لم أنس ، ولن أنسى الى الأبد تعرفى على كلمة الوطن ، فلأول مرة ، وبدون استعداد سابق كنت أقف فى طابور طويل لأحصل على الغذاء الذى توزعه وكالة الغوث « وكالة اغاثة اللاجئين الفلسطينيين » . كانت الوجبة الرئيسية هى الجبنة الصفراء . وهنا استمعت لأول مرة الى كلمات جديدة فتحت أمامى نافذة الى عالم جديد : الوطن ، الحرب ، الأخبار ، اللاجئون الجيش ، الحدود ، وبواسطة هذه الكلمات بدأت أدرس وأفهم وأتعرف على عالم جديد ، على وضع جديد .. حرمنى طفولتى .

بعد أكثر من سنة ، عشت خلالها حياة لاجىء ، أبلغونى ذات ليلة أننا سنعود غدا الى البيت . أذكر جيدا أنى لم أنم فى تلك الليلة .. لم أنم من شدة الفرح . فالعودة الى البيت تعنى — بالنسبة لى — نهاية الجبنة الصفراء ، نهاية تحرشات الأولاد اللبنانيين الذين كانوا يشتموننى بكلمة لاجىء المهينة »

« ... وخرجت الى رحلة العودة . كان الظلام مخيما على كل شىء . وكنا ثلاثة : أنا ، وعمى والدليل الذى كان يعرف مجاهل الدروب فى

الجبال وفى الوديان . انى أذكر الزحف على البطون لكى لايرانا أحد . وبعد رحلة مضنية ، وجدت نفسى فى احدى القرى . ولكن ما أشد خيبة أملى : لقد وصلنا الى قرية دير الأسد ، وهى ليست قريتى . لا بيتى هنا ولا زقاقى . سألت : متى نعود الى قريتنا .. الى منزلنا . ولم تكن الأجوبة مقنعة . ولم أفهم شيئا ... لم أفهم معنى أن تكون القرية مهدمة ، لم أفهم معنى أن يكون عالمى الخاص قد انتهى الى غير رجعة ولم أفهم لماذا هدموا هذا العالم ... ومن هم أولئك الذين هدموه !

ورويدا رويدا اعتدت على حياة الكبار ، وقضايا الكبار ، واتضح لى بمنتهى خيبة الأمل ، أنى لم أعد الى منبع الأحلام ، ولم أعد الى زقاق الطفولة . كل مافى الأمر هو أن اللاجىء قد استبدل بعنوانه عنوانا جديدا . كنت لاجئا فى لبنان . وأنا الآن لاجىء فى بلادى . والآن ، عندما أتحدث اليك ، وأنا فى الثامنة والعشرين (١) من العمر ، فاننى قادر على تقييم تلك الفترة . اذا أجرينا مقارنة بين أن تكون لاجئا فى المنفى وبين أن تكون لاجئا فى الوطن ، فقد خبرت النوعين من اللجوء ، فاننا نجد أن اللجوء فى الوطن أكثر وحشية . العذاب فى المنفى والأشواق وانتظار يوم العودة الموعود شىء له مايبرره ... شىء طبيعى . ولكن أن تكون لاجئا فى وطنك ، فلا مبرر لذلك ، ولا منطق فيه . وعندما تتقدم قليلا فى السن تتخلص من الغصة ونشعر أن الوجود هنا أكثر تبريرا . عندما يتدخل عنصر التحدى ، وعامل الوعى والبحث عن حل . وقد عثرت على الحل فى سن لاحقة ، عندما انتهى الصبا ، وأدركت أن ثمة حاجة الى الانتماء الفعال . الانتماء الملموس والسياسى . ومن الطبيعى أن السياسة تقضى على الحساسية المفرطة وعلى التمسك المتواصل ببقايا الذكريات وبوسعى أن أقول الآن أن وضعى الراهن أسهل . ولكن المواجهة النفسانية الداخلية تثور فى عندما أجلس لكتابة الشعر . عندما يجرى الحوار بين احساس

(١) يخاطب محمود درويش الصحفى اليهودى ، وقد ادلى محمود بهذا الحديث سنة ١٩٦٩

الفنان وبين الوعى السياسى . وأنا أعتقد أن الفنان يجب أن يكون عاريا أمام نفسه »

« عندما عدت من « لبنان » الى قرية « دير الأسد » كنت فى الصف الثانى . كان مدير المدرسة انسانا طيبا . وأنا أذكر عندما كان يزور المدرسة مفتش وزارة المعارف ، كيف كان المدير يستدعينى ويخبئنى فى غرفة ضيقة . فقد كانت السلطات تعتبرنى متسللا وكان المعلمون يرغبون فى الدفاع عنى . لقد أضاف ذلك الحادث « حادث العودة من لبنان الى فلسطين » كلمة أخرى الى قاموسى الخاص ، الى قاموس الحياة : كلمة « متسلل » . وكلما كانت الشرطة تأتى الى القرية ، كانوا يخبئوننى فى خزانة « دولاب » أو فى احدى الزوايا ، لأنه من المحظور على أن أعيش هنا ... فى وطنى . لقد منعونى من الادلاء بهذا الاعتراف : « كنت فى لبنان » . وعلمونى القول أنى كنت لدى احدى القبائل البدوية فى الشمال . وهكذا فعلت لكى أحصل على بطاقة الهوية الاسرائيلية . ولكنى لا أزال حتى اليوم محروما من الجنسية فى وطنى »

وأود أن أتوقف قليلا عن نقل فقرات أخرى من حديث محمود درويش ، لأشير الى قصيدة له بعنوان « جواز سفر » وفى هذه القصيدة يعبر محمود درويش عن مرارة التناقض بين انتمائه هو وأهله منذ أجيال وأجيال الى أرض فلسطين وبين حرمانه من «الجنسية» فى هذا الوطن ، حيث يعتبره الاسرائيليون غريبا ولاجئا فى أرضه كما يعتبرونه « غير جدير » بأن يحصل على « باسبور » تتحدد فيه جنسيته ، وهو يتحرك — اذا تحرك — خارج بلاده بورقة مرور أو بما يسمى « ليسيه باسيه » . وفى هذه القصيدة الجميلة يجسد لنا محمود درويش مأساة حرمانه من الانتساب الى وطنه فلسطين فى صور فنية وانسانية خصبة ورائعة . ويكشف لنا الشاعر عن تلك العلاقة الحميمة الصادقة بينه وبين ذرات التراب والعصافير وأوراق الشجر ... كل هذه الكائنات الحية وغير الحية تعرفه وتعرف

الوجه العربى صاحب الأرض ... حتى ولو لم تعترف له الحكومة الاسرائيلية بحق الحصول على « جواز سفر » باعتباره ــ فى نظر هذه الحكومة ــ بلا جنسية .. يقول محمود فى قصيدته :

لم يعرفونى فى الظلال التى
تمتص لونى فى جواز السفر
وكان جرحى عندهم معرضا
لسائح يعشق جمع الصور
لم يعرفونى ، آه ... لاتتركى
كفى بلا شمس
لأن الشجر
يعرفنى
تعرفنى كل أغانى المطر
لاتتركنى شاحبا كالقمر !
كل العصافير التى لاحقت
كفى على باب المطار البعيد
كل حقول القمح
كل السجون
كل القبور البيض
كل الحدود
كل المناديل التى لوحت
كل العيون السود
كل العيون
كانت معى ، لكنهم
قد أسقطوها من جواز السفر

ثم يحدثنا محمود درويش فى استنكار وألم فى نفس القصيدة :

عار من الاسم ، من الانتماء ؟!
فى تربة ربيتها باليدين ؟

ثم يربط الشاعر بين مأساته ومأساة « أيوب » الذى أصابه الله بالداء ليختبر قوته على الصبر والمحافظة على ايمانه فى ظل الألم والقهر النفسى ... غير أن بلاء أيوب كان بلاء الهيا جاءه من السماء ولكن محمود درويش ، أو أيوب العصرى ، مثله مثل كل أبناء وطنه من العرب المضطهدين ، انما يعيشون جميعا فى ظل « بلاء أرضى » صنعه الاستعمار والصهيونية ، لذلك فاذا كانت مأساة أيوب القديم تحتاج الى الصبر والاحتمال والرضا بالواقع ، فان مأساة أيوب العصرى ، وهو الانسان العربى الفلسطينى تحتاج الى حل آخر هو الثورة والتمرد ورفض الظلم فى كل أشكاله الصغيرة والكبيرة ... يقول محمود درويش فى نفس قصيدته « جواز سفر » :

أيوب صاح اليوم ملء السماء
لاتجعلونى عبرة مرتين
ياسادتى ! ياسادتى الأنبياء
لاتسألوا الأشجار عن اسمها
لاتسألوا الوديان عن أمها
من جبهتى ينشق سيف الضياء
ومن يدى ينبع ماء النهر
ثم يصرخ الشاعر صرخته العظيمة :
كل قلوب الناس جنسيتى
فلتسقطوا عنى جواز السفر

اننا مع هذه القصيدة نعيش موقفا واضحا من مواقف الألم الذى يعانيه العربى فى الأرض المحتلة ، ونعيش فى نفس الوقت موقفا من مواقف التمرد والثورة على هذا الألم .

نعود بعد ذلك الى حديث محمود درويش عن حياته حيث يواصل هنا تصوير مأساته بعد أن دخل المدرسة على أثر عودته من لبنان التى قضى فيها عاما وبعض عام بعد أن خرج من أرضه سنة ١٩٤٨ ... يقول محمود درويش :

« اعتبرت فى المدرسة تلميذا متفوقا . كنت أكثر من مطالعة الأدب العربى . وقلدت الشعر الجاهلى فى محاولاتى الشعرية الأولى . واليوم يبدو من المستهجن أن أكشف النقاب لأول مرة : أنى كنت موهوبا آنئذ فى الرسم . ربما كنت فى ظروف وملابسات أخرى أتطور كرسام لا كشاعر . وقد تضحك عندما تعرف لماذا توقفت عن الرسم . السبب فى منتهى البساطة : لم يملك والدى قدرا من المال يتيح له امكانية أن يشترى ما أحتاجه من أدوات الرسم . لقد زودنى بدفاتر الكتابة بشق النفس . آلمنى ذلك كثيرا ، فبكيت وتوقفت عن الرسم . وعندها حاولت التعويض عن الرسم بكتابة الشعر . وكتابة الشعر لاتتطلب نفقات مالية . كانت مواضيع محاولاتى الشعرية الأولى هى مشاعر الطفولة . وكنت أحاول الكتابة أحيانا عن مواضيع ذات وزن ، كانت أكبر من طاقتى فى تلك السن . شجعنى المعلمون على الكتابة . ولا أزال حتى اليوم مدينا لبعضهم — ومن بينهم معلم شيوعى هو نمر مرقس — قاموا بتوجيهى وساعدوا خطواتى الأولى فى الشعر »

« ولقد خلق لى شعرى المتاعب منذ البداية . ودفعنى الى الصدام مع الحكم العسكرى . واذا أردت مثلا على ذلك : كنت طالبا فى الصف الثامن عندما احتفلوا بمناسبة اقامة دولة اسرائيل . وقد نظموا مهرجانات كبيرة فى القرى العربية باشتراك تلامذة المدارس فى هذه المناسبة . طلب منى مدير المدرسة أن أشترك فى مهرجان فى قرية دير الأسد وعندها ، ولأول مرة فى حياتى ، وقفت أمام الميكروفون وبالبنطلون القصير ، وقرأت قصيدة كانت صرخة من طفل عربى الى طفل يهودى . لا أذكر القصيدة

ولكنى أذكر فكرتها : ياصديقى ! بوسعك أن تلعب تحت الشمس كما تشاء . بوسعك أن تصنع ألعابا . ولكنى لا أستطيع . أنا لاأملك ماتملكه . لك بيت وليس لى بيت ، فأنا لاجىء . لك أعياد وأفراح . وأنا بلا عيد أو فرح ... ولماذا لانلعب معا ؟ ..

وفى اليوم التالى استدعيت الى مكتب الحاكم العسكرى فى قرية « مجد الكروم » . هددنى وشتمنى ، فاحترت . لم أعرف كيف أرد عليه . وعندما خرجت من مكتبه بكيت بمرارة لأنه أنهى تهديده بقوله : اذا مضيت فى كتابة مثل هذه الأشعار فلن نسمح لأبيك بالعمل فى المحجر ! يؤلمنى أن أذكر الآن أن تهديدات ذلك الحاكم العسكرى أثرت على تأثيرا سلبيا . وبمنطق الصبى قلت لنفسى : سأحصل على القصاص . ولن أكتب . وبالمنطق ذاته عجزت عن فهم السبب الذى يجعل مثل تلك القصيدة تثير حاكما عسكريا . وأسجل الآن أن ذلك الحاكم العسكرى كان أول يهودى أقابله وأتحدث اليه ! لقد ضايقنى سلوكه : اذا كان الأمر كذلك فلماذا أتحدث الى الطفل اليهودى ؟

لقد تحول الحاكم العسكرى الى رمز الشر الذى يؤذى العلاقات بين الشعبين . ومن الواضح أننى الآن فقط أستطيع الاجابة على الأسئلة التى ضايقتنى آنئذ »

ولنترك حديث محمود درويش مرة أخرى قليلا لنسجل ملاحظة ضرورية فحديث محمود درويش موجه فى أساسه الى يهود اسرائيل ، وهو يهدف بالفقرة الأخيرة التى يتحدث فيها عن فساد العلاقة بين الشعبين الى أن اليهود والعرب كان يمكن أن يعيشا معا فى سلام بدون « الحاكم العسكرى الاسرائيلى » ، أى بدون التعصب اليهودى الذى يجسده العسكريون الاسرائيليون بعنف وقسوة والذى يهدف الى اقامة دولة اسرائيل على أساس عنصرى يرفع من قيمة العنصر اليهودى فوق قيمة العنصر العربى ويدعو الى سيادة العنصر اليهودى سيادة كاملة على غيره من العناصر .

وهذه الفكرة هى التى دفعت محمود درويش الى أن يشير فى الجزء التالى من حديثه الى شخصية يهودية طيبة ، وهو يقصد من وراء ذلك الى التأكيد على أن العرب لا يرفضون اليهود كعنصر أو كأصحاب ديانة ، ولكنهم يرفضون استمرار اليهود فى موقفهم العنصرى المتعالى على العرب والمعادى لهم وهو الموقف الذى يتجسد فى المتعصبين الصهيونيين ويتجسد أيضا فى العسكريين الاسرائيليين الذين يهدفون الى التوسع والتخريب واحتلال الأرض والقضاء على عرب فلسطين جميعا بكل الوسائل والأساليب ، أما اليهودى الطيب ، فهو الانسان العادى الذى لايحمل أحقادا عنصرية ومثل هذا اليهودى يمكن أن يعيش فى سلام وكرامة وود فى أى أرض حتى فى الأرض العربية نفسها ... طالما أنه لم يجىء للعدوان والكراهية والقتل والنهب .

أما صورة اليهودى التى يرسمها محمود درويش فى حديثه أمامنا وأمام الرأى العام الانسانى والرأى العام اليهودى فهى صورة مدرسته اليهودية « شوشنة » ... يقول محمود :

« ومن حسن حظى ، ظهرت فى حياتى صورة أخرى مناقضة للحاكم العسكرى « الاسرائيلى » ، بعد ذلك الحادث ببضعة شهور انتقلت الى مدرسة كفر ياسيف الثانوية . هناك التقيت بشخصية يهودية أخرى تختلف تمام الاختلاف ، هى شخصية المعلمة « شوشنة » التى لا أمل الحديث عنها . لم تكن معلمة . كانت أما . لقد أنقذتنى من جحيم الكراهية لقد علمتنى شوشنة أن أفهم الثورة كعمل أدبى وعلمتنى دراسة بياليك « شاعر يهودى كبير » بعيدا عن التحمس لانتمائه السياسى ، وانما لحرارته الشعرية . لم تحاول أن تعبئنا بسموم البرامج الدراسية الرسمية التى ترمى الى دفعنا للتنكر لتراثنا . لقد أنقذتنى شوشنة من الحقد الذى ملأنى به الحاكم العسكرى . لقد حطمت الجدران التى أقامها ذلك الحاكم » .

ويواصل محمود درويش حديثه بعد ذلك عن حياته أو مأساته فيقول :

« قبل عدة أسابيع عقدنا ــ نحن محررى الصحف العربية ــ مؤتمرا صحفيا فى حيفا . تصرف بعض الصحفيين « الاسرائيليين » بدون لياقة اذا استخدمت الكلمة اللينة . وبدون فهم لمشاعرنا وقضايانا . وفى مجرى الحديث قلت لأحد الصحفيين ان صحيفة « عل همشمار » نشرت فى ذاك الصباح خبرا بارزا عن الاحتفــالات بمرور عشرين سنة على انشــاء كيبوتز « يسعور » . جاء فى الخبر أن الفرح بهذه المناسبة لم يكن له مثيل ، وقلت للصحفى : يؤسفنى أن أقول لك الحقيقة ــ أنا أفهم فرحك ولكنى عاجز عن مشاركتك فيه . لماذا ؟ لأن هذا الفرح قائم على أطلالى . فان كيبوتز « يسعور » ومستوطنة « أحيهود » مبنيان على أنقاض قريتى ... على أنقاض حارتى وبيتى . ذلك ينتمى الى الماضى ، ولكنه محفور فى أعماقى ! » .

« عندما عدت من لبنان حذرنى أهلى من « خطورة » رغبتى فى زيارة المكان الذى ولدت فيه وقضيت طفولتى ، فاذا ألقى القبض على هناك ، سأطرد الى لبنان . وهكذا لم أزر المكان الا عام ١٩٦٣ . كانت زيارة سرية لأن دخول تلك المنطقة ممنوع . ولم أجد من كل القرية الا مبنى الكنيسة الذى تحول الى حظيرة للمواشى . ان ما رأيته فى ذلك المكان المهجور يفسر لك لماذا كانت هذه هى زيارتى الأولى والأخيرة . فتشت عن مرتع طفولتى فلم أجد الا الأشوك ... لا منزل ولا شىء الا الشوك . لن أعود الى ذلك المكان . وكانت الزيارة بمثابة حج . قمت بتأدية هذه الفريضة مع مجموعة من الأصدقاء ، من أبناء القرية . خلدنا الى الصمت طيلة تلك الزيارة وبعدها . التقينا هناك براعى أغنام « يهودى » من اليمن يقيم فىمستوطنة « أحيهود » التى حلت محل قرية محمــود درويش : البروة . قلت له : لقد أصبحنا أبناء قرية واحدة ! لم يفهم ما أعنيه . ولم

تكن بى رغبة فى التفسير » .

وفى فقرة أخرى من حديث محمود درويش يعطينا صورة من حياته فى السنوات الأخيرة داخل اسرائيل ... يقول محمود :

« الكثيرون من أصدقائى يتألمون من أجلى . هذه الملاحقـات ... الاعتقالات وأوامر الاقامة الجبرية التى تحدد حرية تجولى فى وطنى ، أصبحت جزءا من حياتى اليومية ، ولكننى أنظر اليها باستهتار يكاد يكون خبيثا . لست متوترا أو لست مندهشا . أجلس فى غرفتى كل مســاء ويطربنى أن أرتبط بالشمس ، لأنى أمنع من مغادرة البيت بعد غروب الشمس . منحونى شرفا كبيرا عندما ربطوا خطواتى بالشمس . أسمع موسيقى ، وأنتظر البوليس . وفى الساعة الرابعة بعد كل يوم أثبت وجودى فى محطة الشرطة بابتسامة حقيقية غير لئيمة دائما ، وأنا أنظر الى ذلك برؤية شعرية : لقد تقاسمنا اليوم : لهم الليل ، والنهار لى ، لا يحق لى الخروج فى الليل وهم دائمو التجوال فى الليل . وكل واحد منا يعرف أن النهار أجمل من الليل ، وضوء الشمس أحلى من الظلام . فمن انتصر ... أنا أم البوليس !؟ » .

هذه بعض ملامح من حياة محمود درويش كمـا رواها محمود لتلك الصحيفة العبرية فى حديث ملىء بالحزن والألم والـكبرياء والجـراح والحقائق . واذا أردنا أن نعرف مزيدا من ملامح صورته الشخصية فاننا نجد أن محمود درويش هو الابن الثانى لأسرة تتكون من ثمانية أبناء : خمسة أولاد وثلاث بنات . والابن الأكبر فى هذه الأسرة هو أحمد . وكان أحمد مهتما بالأدب ، وقد بدأ حياته بالكتابة الأدبية ثم توقف حيث انشغل بعمله كمدرس فى قرية « الجديدة » . وعن « أحمد » الابن الأكبر أخذ محمود درويش بدايات اهتمامه بالأدب . وفى أسرة محمود أيضا شقيقه الثالث « زكى » وهو كاتب قصة من الكتاب الشـبان المعدودين فى الأرض المحتلة . ولا يوجد بين أفراد الأسرة من يهتم بالأدب غير هذين

الأخوين : أحمد وزكى ، فالأب فلاح فلسطينى كان يملك بعض الأراضى فى قريته البروة ، وهو الآن يعيش فى قرية الجديدة ولا يملك شيئا . واسم الأب سليم درويش أما الأم فهى من قرية « الدامون » وكان والدها « أديب البقاعى » مختارا أى عمدة لقرية الدامون ، وهذه الأم سيدة فلسطينية لا تقرأ ولا تكتب . أما والد محمود درويش فيعرف القراءة والكتابة ولكنه لم يتعلم تعليما منتظما بعد أن درس فى « كتاب » قريته . وبعد هدم قرية « البروة » التى كانت الأسرة تعيش فيها ، وبعد فترة اللجوء القصيرة الى لبنان ، أقامت الأسرة فى قرية دير الأسد فى الأرض المحتلة ، ثم انتقلت الى قرية الجديدة واستقرت فيها حتى اليوم . وقد ذكرت ــ خطأ ــ فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب على لسان أحد الشبان الفلسطينيين الذين خرجوا من الأرض المحتلة بعد عدوان ١٩٦٧ : أن والد محمود درويش قد استشهد فى حرب ١٩٤٨ ، والواقع أن والد محمود درويش مازال حيا وهو فى حوالى الستين من العمر . كما أن والدته واخوته السبعة كلهم أحياء يقيمون فى قرية « الجديدة » ... احدى القرى العربية فى الأرض المحتلة .

وقد دخل محمود درويش سجون اسرائيل أكثر من مرة وكانت المرة الأولى سنة ١٩٦١ ، وكان محمود قد انتقل من قرية الجديدة حيث تقيم أسرته ليعيش وحده فى مدينة حيفا سنة ١٩٦٠ بعد أن أتم تعليمه الثانوى وكان اعتقال البوليس الاسرائيلى له فى المرة الأولى سنة ١٩٦١ بدون سبب ، وقد تم القبض على الشاعر فى مسكنه ، ودخل محمود بعد القبض عليه سجن «الجلمة» قرب مدينة الناصرة ، وهى احدى المدن العربية الكبيرة فى الأرض المحتلة ، وقد بقى محمود فى السجن أسبوعين بدون أى محاكمة ، وكان يعيش داخل السجن فى « عنبر » واحد مع أربعين من المتهمين كلهم من العرب ، وكان الجميع ينامون على الأرض ، وكان عمر الشاعر آنذاك عشرين سنة ... ويقول محمود درويش عن هذه التجربة

الأولى مع السجن «ان السجن الأول مثل الحب الأول لاينسى » وجاء السجن الثانى لمحمود درويش سنة ١٩٦٥ ، كان الشاعر قد سافر من حيفا إلى القدس بدون تصريح ، حيث ينبغى على كل عربى فى الأرض المحتلة أن يحمل تصريحا خاصا اذا أراد أن ينتقل من مكان الى مكان . وقد بدأت قصة محمود درويش فى الاعتقال هذه المرة عندما عقد الطلبة العرب فى الجامعة العبرية أمسية شعرية وذهب محمود من حيفا الى القدس للاشتراك فى هذه الأمسية ، وهناك ألقى قصيدته الطويلة المعروفة « نشيد الرجال » وهى القصيدة التى نشرها بعد ذلك فى ديوانه الثالث « عاشق من فلسطين » وفى مطلع هذه القصيدة يقول الشاعر :

لأجمل ضفة أمشى
فلا تحزن على قدمى
من الأشواك
ان خطاى مثل الشمس
لا تقوى بدون دمى !
لأجمل ضفة أمشى
فلا تحزن على قلبى
من القرصان
ان فؤادى المعجون كالأرض
نسيم فى يد الحب
وبارود على البغض
وفى هذه القصيدة يقول :

سنصنع من مشانقنا
ومن صلبان حاضرنا وماضينا
سلالم للغد الموعود
ثم نصيح : يا رضوان !

افتح بابك الموصود !

وقد تم اعتقال الشاعر بعد القاء قصيدته وقدم للمحاكمة فى محكمة عسكرية كان قاضيها ضابطا بحريا اسرائيليا • وسأل القاضى محمود درويش : !!اذا ذهبت الى القدس بدون تصريح فقال الشاعر لقد طلبت التصريح من الحاكم العسكرى فوعدنى به ولكنه لم ينفذ وعده وظل يماطلنى ••• انه لم يرفض اعطائى التصريح ولكنه كان يؤجل ذلك يوما بعد يوم « وأنا لا أستطيع أن أحضر خيمة لأقيم بجواره حتى يقرر اعطائى هذا التصريح » قال له القاضى : هل أنت نادم على ما فعلت وهل تعتذر عنه ؟ قال الشاعر : لا ••• لست نادما ولا أعترف أننى متهم •

وصدر حكم القاضى بسجن محمود درويش لمدة ستين يوما مع التنفيذ وتسعين يوما مع ايقاف التنفيذ ، والمفروض أن الحكم مع ايقاف التنفيذ ينفذ على الفور لو حدثت أى مخالفة من الشاعر خلال سنتين وذلك بالاضافة للحكم الأساسى على المخالفة الجديدة •

وقضى محمود درويش مدة السجن الثانى فى سجن « الرملة » حيث كتب معظم قصائد ديوانه الثالث « عاشق من فلسطين » داخل السجن •

وما بين ١٩٦٥ و ١٩٦٧ سجن الشاعر مرة ثالثة عندما حامت حوله شبهة النشاط المعادى لاسرائيل ، وفى هذه المرة انتدبت له المحكمة أحد المحامين ، وحاول المحامى أن يقول انه يعتذر باسم محمود درويش عن المخالفة التى ارتكبها الشاعر ويعد بألا يكرر الشاعر هذه المخالفة ، وسأل القاضى محمود درويش عن رأيه فيما يقوله المحامى فأجاب الشاعر « بأن المحامى يعبر عن وجهة نظره ولكننى لا أعترف بما يقول ولن أردد هذا القول أو أؤيده أبدا » وحكمت المحكمة على الشاعر بغرامة قدرها مائتى ليرة اسرائيلية •

وفى ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ ، أى قبل العدوان الاسرائيلى بيوم واحد ، صدرت أوامر اسحق رابين رئيس أركان الجيش الاسرائيلى آنذاك باعتقال

كل المثقفين العرب ، واختفى محمود درويش ولم تستطع السلطات الاسرائيلية العثور عليه لاعتقاله ، وكان هدف الاختفاء هو أن يشرف محمود درويش على اصدار جريدة « الاتحاد » العربية بعد أن تم اعتقال جميع المحررين فيها . وكان يوم الاثنين ٥ يونيو هو موعد صدور هـذه الجريدة التى تصدر مرتين كل أسبوع • وأصدر محمود بالفعل من مخبئه عددين من الجريدة • وكان هو المحرر الوحيد لهذين العددين بما فيهما من أخبار ومقالات وتعليقات مختلفة • وبعد صدور العدد الثانى كان من الواضح أن معركة يونيو سنة ١٩٦٧ قد تحددت نتائجها وأن الهزيمة قد حلت بالعرب فترك محمود مخبأه وعاد الى بيته ، وبعد خمسة أيام من عودته الى البيت تم اعتقاله بدون محاكمة وظل فى سجن « الدامون » لمدة شهر • ويقول محمود : انه كان مستريح النفس فى هـذا السجن ، فلقد كان الواقع خارج السجن مؤلما بعد الهزيمة العربية ، وفى مثل هذه الظروف يبدو السجن مريحا للنفس الى أبعد الحدود •

فى سنة ١٩٦٩ اعتقل محمود درويش للمرة الخامسة فى سجن « الجلمة » وذلك بعد أن نسف الفدائيون عدة بيوت فى حيفا • وقد بقى محمود درويش فى السجن مدة عشرين يوما •

وقد تعلم محمود درويش فى الأرض المحتلة حتى نال الشهادة الثانوية فقط ، وتعرض فى ذلك الوقت لكل مايتعرض له العرب من ضغوط شديدة حتى لا يتموا تعليمهم الجامعى وحتى يظـل مستواهم العلمى والثقـافى ضعيفا الى أبعد الحدود • وبعد أن أتم محمود دراسته عاش على الكتابة للصحف العربية التى تصدر فى اسرائيل ، وكان دخله من هذه الكتابات ضئيلا مما يفرض عليه نوعا من الضيق المادى الشديد ، وقد ظل فترة من الوقت يعيش فى حجرة فى بيت اميل توما وهو أحد الشخصيات العربية المعروفة فى الأرض المحتلة ، واميل توما هو أحد كتاب الأرض المحتلة وأحد السياسيين البارزين فيها وله كتاب بالعربية عن «جمال عبد الناصر».

ويوجد هذا البيت فى شارع عباس فى « جبل الكرمل » وهو حى من أحياء حيفا .

وقد عمل محمود درويش فى جريدة « الاتحاد » ومجلة « الجديد » وهما من صحف الحزب الشيوعى فى اسرائيل ، وهو الحزب الذى يفسح للأقلام العربية فرصة التعبير فى صحفه المختلفة ، وسوف نعود الى موقف الحزب الشيوعى من عرب الأرض المحتلة فى فصل آخر من فصول هذا الكتاب . كذلك اشترك محمود فى تحرير مجلة « الفجر » وهى مجلة أدبية عربية أصدرها حزب « المابام » وكان يرأس تحريرها يهودى مصرى اسمه « يوسف واشظ » كمـا ينطقه العرب أو « فاشد » كما ينطقه اليهود .

وقد سمعت الكثير عن محمود درويش قبل أن ألتقى به فى القاهرة فى فبراير عام ١٩٧١ ، ولقد وجدت ما سمعته عنه حقيقيا الى أبعد الحدود سـواء من ناحية الأوصـاف الشكلية أو من ناحية الطبيعة النفسية . فمحمود نحيف وطويل ، سريع الحركة فى شىء من العصـبية ، مرتفع الرأس فى اعتزاز لا يشوبه غرور ، وهـو يتميز فى علاقاته الشخصية بالعاطفية والاخلاص الشديد لمن تربطهم به أى علاقة انسانية ، وصوت محمود فى الحديث خفيض هادىء ، أما القاؤه للشعر فيبلغ درجة عالية من الجودة والأصالة والقدرة على التأثير الوجدانى ، ومحمود درويش على علاقة صداقة بزميله الشاعر سميح القاسم ، ومحمود محب للغناء والموسيقى وهو يحب صوت فيروز وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ ، كما أنه كثير الاستماع الى الموسيقى الغربية ، وهو يحب النكتة المصرية ويتابع البرامج الفكاهية فى الاذاعات المصرية المختلفة .

ومن الصفات الشخصية لمحمود درويش أنه خجول جدا ، ومن عاداته أنه يسهر كثيرا ويجد فى الليل متعته ، وفرصته للتفكير والتأمل .

وكل هذه الصفات تثبت ما فى شخصية محمود من بساطة وحب طبيعى

عميق للحياة •

ويحدثنا عن محمود درويش الكاتب اللبنانى الأستاذ محمود كروب وذلك بعد لقائه معه فى مهرجان الشباب فى صوفيا سنة ١٩٦٨ فيقول : « شاب نحيل ، وجه أليف جدا ، قريب الى القلب » ... ويتحدث عنه الشاعر الفلسطينى الكبير أبو سلمى فيقول : « لا تسل عن سرورى عندما كنت فى صالة فندق يوهانس هوف فى برلين أصيل ذات يوم من شهر أيار ـ مايو ـ ١٩٦٩ واذا بأحد شبابنا اسماعيل عبد الرحمن الذى هجر الشعر وأصبح دكتورا فى الاقتصاد يدخل الى صالة الفندق ومعه شاب فى مقتبل العمر نحيل الجسم يمسك بيده نظاراته ، اقترب منى والابتسامة تملأ وجهه ، ولكن الحزن يترقرق من عينيه ، صحت : محمود درويش ! وعانقته كأننى أعانق بلادى فلسطين كلها ... بلادى القائمة وراء الدموع والأسلاك » •

وبعض أشعار محمود درويش تتم ترجمته محرفة الى العبرية حيث يتعرض هذا الشعر دائما لهجوم النقاد اليهود باعتباره « داعية الى اثارة الجماهير وعاملا على تدمير الدولة الاسرائيلية » ، ويتحدث محمود درويش عن موقف اسرائيل من الأدب العربى فى الأرض المحتلة فيقول :

« ان الجهل التام بالأدب العربى فى اسرائيل ينبع من اعتبارات وحسابات سياسية بحتة ، مع أنه ليس من المقبول الحديث عن السياسة والشعر فى سياق واحد • ان أولئك الذين يسيطرون على أدوات الدعاية والنشر لا يريدون أن يقدموا للقارىء العبرى حقيقة الأدب العربى فى البلاد • انهم يخافون مضمون هذا الأدب • ويدركون أن وصول هذا الأدب الى الجمهور اليهودى سيحطم حواجز • فالأدب العربى هنا هو أدب احتجاج على وضع غير عادل ، كأى أدب احتجاج آخر فى العالم • واذا كان من المتاح لى أن أستعير مثلا من أدب الاحتجاج العالمى المعاصر ، فسأذكر اسم « جيمس بلودوين » الزنجى الأمريكى ، صاحب الكتاب المثير « لا أحد

يعرف اسمى » ، وأعرف أن رنين هــذا الكتاب ليس عــذبا على الأذن الاسرائيلية بسبب تشابه الواقعين ، ولكن القلائل ... القلائل جدا فى المجتمع الاسرائيلى هم الذين يعرفون أسماءنا » .

وهناك بعض الخطوط الأخرى فى شخصية محمود درويش وحياته ، فقد كان من عاداته أن يحضر « الأعراس العربية » كلما أتيحت له فرصة لذلك باعتبارها مكانا للتجمع الجماهيرى ، وباعتبارها مصدرا من مصادر الفن الشعبى العربى الذى يحبه ويتأثر به ويتعلم منه . ولقد عاش محمود درويش فى الأرض المحتلة معدما أو شبه معدم ، حيث كان مصــدره الوحيد للحياة هو قلمه ، وكانت كتاباته وفنه عصفورين سجينين فى الأرض المحتلة ... ومن هنا فقد كان يعيش على الكفاف فى ظل القيود التى فرضتها عليه السلطات الاسرائيلية حيث وقف محمود درويش من هذه السلطات دائما موقف المناضل والثائر . ويقول محمود درويش فى ذلك ان شعار السلطة : « اكتب ماتشاء وادفع الثمن الذى نشاء ... والثمن هو : فقدان العمل ... الاضطهاد ... الحجز فى البيت ... السجن ! ... وهكذا أصدرت السلطات العسكرية أوامر الاقامة الاجبارية ضــد الشعراء العرب التقدميين بدون استثناء » ... ويقول محمود درويش أيضا « لا يستطيع الشاعر أو صاحب المطبعة ، أن يطبع أى مجموعة شعرية الا بعد أن تجيزها المراقبة العسكرية » .

هذه كلها صور من صور الاضطهاد الذى لقيه محمود درويش ، ويلقاه كل فنان ومناضل بل وكل مواطن فى الأرض المحتلة .

وقد سافر محمود درويش الى موسكو للدراسة الجامعية فى أوائل سنة ١٩٧٠ واستطاع أن يحصل على هذه البعثة الدراسية بعد جهد كبير من خلال الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، ثم جاء محمود درويش بعــد ذلك الى القاهرة فى فبراير ١٩٧١ حيث يقيم بها الآن ويعمل فيها . وقد أثار وصول محمود درويش موجة من الاعتراض على موقفه وهو الأمر الذى سوف نناقشه فى فصل قادم من فصول الكتاب .

ملامح
فنية

ماذا يقرأ محمود درويش وكيف تكونت ثقافته الفنية ؟

مما لاشك فيه أن الثقافة الأدبية الأولى لمحمود درويش مستمدة من الوسط الأدبى العـربى الذى يعيش فيه الشـاعر ويعيش فيه جميـع المثقفين العرب فى الأرض المحتلة ، وأبرز عناصر التأثير فى هذا الوسط الأدبى يتمثل فى الجيل الأول من الأدباء العرب المقيمين فى الارض المحتلة وهو ينتسب الى أبناء ثورة ١٩٣٦ فى فلسطين ، وكل أبناء هذا الجيل من ذوى الثقافة العربية القديمة ، ومن ذوى الايمان العميق بالتراث العربى القديم والمتابعين أيضا للثقافة العربية المعاصرة عند روادها من أمثال طه حسين والعقاد والمازنى وغيرهم ، ونستطيع هنا أن نذكر بعض الأسماء من بين هؤلاء الأدباء العرب الذين واصلوا حياتهم فى الأرض المحتلة ، وكانوا على صلة قوية بالثقافة العربية القديمة وبالثقافة العربية المعاصرة حتى قيام دولة اسرائيل ، ومن هؤلاء حنا أبو حنا المدرس باحدى المدارس الثانوية العربيه بالقدس وجبرا نقولا وله كتاب عن « أبى العلاء المعرى » وغيرهما من أبناء هذا الجيل الذى ينتسب الى جيل الأدباء والمثقفين فى ثورة ١٩٣٦ هؤلاء جميعا كانوا على معرفة قوية بالتراث العربى القديم ، وعلى ادراك واضح لقيمته وأهميته ، كما أن هؤلاء كانوا يعرفون جيدا كل ما يتصل بفن شعراء ثورة ١٩٣٦ الكبار من أمثال ابراهيم طوقان وعبـد الرحيم محمود وأبو سلمى . وقد قرأ محمود درويش الشعر العربى القديم ودرسه

وتعرف عليه بصورة دقيقة واضحة واتصل بهؤلاء الرجال العارفين بالتراث العربى القديم وقد قدمه أحدهم وهو حنا أبو حنا فى ديوانه الثانى الذى صدر سنة ١٩٦٤ حيث يقول حنا فى هذا التقديم القصير :

« محمود درويش فنن أنبته جذع زيتوتتنا الخالدة منذ ثلاثة وعشرين عاما ... أورق وأثمر فأنشد للجـذع الراسخ ، والأرض الملوعة والطير المهاجر .. يحتضن أعشاشه ويدعو أسرابه الى العودة » .

ويشير محمود درويش الى بدايته الأدبية فى حديثه الذى أدلى به الى مجلة الطريق اللبنانية فيقول :

« لا أذكر متى بدأت بالضبط محاولة كتابة الشعر . ولا أذكر الحافز المباشر لكتابة « القصيدة الأولى » وان كنت أذكر أنى حاولت فى سن مبكرة كتابة « قصيدة طويلة » عن عودتى الى الوطن ، حذوت فيها حذو المعلقات فأثارت سخرية الكبار ودهشة الصغار » ... اذن فقد كانت بداية محمود درويش هى تقليد الشعر الكلاسيكى فى أقدم نماذجه وأشهرها وهى المعلقات ، ولكن هـذه مرحلة من مراحل الطفـولة الفنية ، وعلى الشاعر أن يتجاوزها بسرعة اذا كانت لديه موهبة حقيقية ، ومحمـود درويش صاحب موهبة أصيلة ، وشخصية فنية مستقلة ... ولذلك فقـد استطاع بفضل هذه الموهبة أن يتجاوز بسرعة مرحلة التقليد للشعر القديم وهى مرحلة لابد منها ، ولكنه أخذ من معرفته بالشعر القديم ومن معاشرته الفنية العميقة له صفات فنية ظلت مرتبطـة بشعره حتى اليوم ، وأهم ما استفاده محمود من قراءته الدقيقة للشعر القديم أنه ــ أولا ــ يملك معرفة واسعة باللغة العربية ، وبمفرداتهـا اللغوية والشـعرية ، فمحمود درويش يمتاز امتيازا واضحا فى شعره بثرائه اللغوى ، فهو لايتعثر فى البحث عن ألفاظه ولا يفتعل اشتقاقات لغوية غريبة ، ولا يحس القارىء فى قصائده بما نحسه أحيانا عند شعراء آخرين تكون تجاربهم الروحية أكبر من قدرتهم على التعبـير ، وينشأ عن ذلك نوع من الاضطراب الفنى

لا شك فيه ، ولعل من أبرز مظاهر السلبية والضعف فى الشعر الجديد ، أن عددا من شعراء المدرسة الجديدة يعانون من هـذا الفقر فى قاموسهم الشعرى ، فيضطربون ويرتبكون ويقصرون تقصيرا واضحا فى تعبيرهم . هذا العيب لا نجده عند محمود درويش الا فى حالات قليلة ، فلدى محمود قدرة واضحة على أن يجعل من قصيدته عملا فنيا قادرا على استيعاب تجاربه النفسية والروحية ... بلا تعثر فى أذيال العجز التعبيرى الذى يشيع عند الشعراء المتوسطين فى مدرسة الشعر الجديد ، بل وأحيانا عند بعض الشعراء المعروفين فى هذه المدرسة ، ومن الملاحظ عموما أن معظم الشعراء الممتازين من شـعراء المدرسة الجديدة قد بدأوا حياتهم بكتابة الشعر التقليدى « العمودى » بصورة جيدة مثـل : السياب وصـلاح عبد الصبور وحجازى والبياتى ومعـين بسيسو والفيتـورى وأدونيس وخليل حاوى وغـيرهم . بل ان بعض هؤلاء الشعراء يلجـأ أحيانا الى الشكل التقليدى فى بعض تجاربه الجديدة ، مثل تجربة السياب المشهورة فى قصيدته عن « بورسعيد » ، ففى هذه القصيدة الممتازة يجمع السياب بين الشكلين القديم والجديد معا . حيث كان فى المواقف الغنائية التى يعبر فيها عن مشاعره تعبيرا مباشرا صريحا واضحا ، يلجأ الى الشكل القديم للقصيدة العربية ، بينما كان يلجأ الى الشكل الجديد فى المواقف الوصفية التى يريد أن يجسد فيها موقفا أو يرسم صورة انسانية . وقصيدة السياب تبدأ فى مقطعها الأول بداية كلاسيكية واضحة حيث يقول :

يا حاصـد النار من أشلاء قتلانا

منك الضحايا وان كانوا ضحايانا

وبعد ما يقرب من ثلاثين بيتا تمضى كلها على الشكل التقليدى فى وحدة البيت والقافية ينتقل السـياب الى الشكل الجـديد ، حيث يتحول من الغنائية والتعبير المباشر عن عواطفه ومشاعره الى رسم الصور والمواقف الانسانية المختلفة فيقول عن « ضحايا بورسعيد » :

من أيما رئه ، من أى قيثار
تنهل أشعارى ؟
من غابة النار ؟
أم من عويل الصبايا بين أحجار ؟
من أى أحداق طفل فيك تغتصب ؟
من أى خبز وماء فيك ما صلبوا ؟
من أيما شرفة ؟ من أيما دار ؟
تنهل أشعارى
كالثأر ؟
كالنور فى رايات ثوار ؟
من مائك السهران أوتارى
أم من برجك الهارى
يبكى دما من جرح بحار ؟

وهكذا يجمع السياب وهو رائد من رواد الشعر الجديد بين الشكل القديم والشكل الجديد فى قصيدة واحدة ، وذلك عندما يحتاج الى التنويع فى موقفه الوجدانى والفنى ،فهو يريد أن يصور المأساة حيث يتيح الشعر الجديد هذا اللون من التصوير بصورة أفضل ، ويريد فى نفس الوقت أن يعبر عن مشاعره وانفعالاته بصورة مباشرة يحتملها الشكل القديم أفضل من غيره .

هذا نموذج واحد يؤكد تلك الفكرة الصحيحة التى تقول بأن الشاعر الجديد لابد أن يمتد بجذوره الى الشكل الشعرى القديم حتى يتمكن من تطوير شعره فى الاتجاه الجديد تطويرا عميقا يقوم على أسس سليمة . ومثل هذه التجارب الفنية تؤكد بوضوح أن الشاعر الجديد القادر على أن يعبر عن نفسه تعبيرا شعريا أصيلا من خلال الشكل الجديد للقصيدة ، لابد أن يكون على معرفة عميقة بالشكل القديم ، وعلى مقدرة أيضا فى

التعبير من خلال هذا الشكل ، لأن الشاعر الجديد لا يستطيع أن يتجاوز الشكل القديم الا اذا كان على معرفة غير قليلة به .

وقد توفرت لمحمود درويش هذه المعرفة الدقيقة بالشعر القديم ، بل اننا نجده حتى فى دواوينه الأخيرة التى تمثل أعلى درجات النضج الفنى عنده يفاجئنا بقصائد كتبها بالطريقة الشعرية القديمة رغم ما فيها من صور عصرية جديدة ، وان كان هذا اللون من الشعر التقليدى يكثر على وجه الخصوص فى مرحلته الأولى ، حيث نجد معظم ديوانه الأول « عصافير بلا أجنحة » مكتوبا بالشكل التقليدى ؛ وفى ديوانه الثانى « أوراق الزيتون » نجد نماذج متعددة من القصائد المكتوبة بالشكل التقليدى ... حيث يقول على سبيل المثال فى قصيدة « حبنا » .. وهى قصيدة قصيرة أنقلها هنا بأكملها :

حبنا بلبل ... وشوكة وردة
فافرشى لى على الجراح مخدة
لا أحب النشيد الا شهيدا
ينزف الروح والحشا بمودة
عندما رف فى الفضاء جناحى
وهبطت البستان ... أعشق وردة
كنت لا أسأل الطريق رجوعا
ليس فى الحب أى درب لعودة

على أن محمود درويش لم يستفد من معرفته الكبيرة بالشعر القديم ذلك القاموس الشعرى الغنى فقط ، ولا ذلك التدريب الفنى الواسع فى عالم القصيدة القديمة على استخدام اللغة وحسب ، بل لقد استفاد محمود درويش ميزة أخرى واضحة هى تلك « الموسيقى الشعرية » اللامعة التى نجدها فى شعره ... فعالم القصيدة العربية القديمة ملىء بالموسيقى ، وعلى الأخص ما نسميه عادة « بالموسيقى الخارجية » ... الموسيقى العالية التى

تنبع من القافية الواحدة واختيار الألفاظ ذات الرنين الخاص وما الى ذلك ، ولعل هذه الموسيقى الخارجية كانت من الأسباب التى تثير اعتراض النقد الحديث على الشعر القديم ... لأن الموسيقى الخارجية حالت فى كثير من الأحايين بين الشعر القديم وبين توفير «موسيقى داخلية» تخاطب الوجدان والقلب قبل أن تخاطب الأذن ... على أننا لسنا هنا فى مجال مناقشة هذه القضية الهامة بالنسبة للشعر القديم ، ولكن الذى يعنينا فى هذه الدراسة هو شعر محمود درويش ... لقد استفاد محمود درويش من دراسته للشعر القديم قدرته فى المحافظة على الموسيقى الشعرية فى قصائده المختلفة .. على أنه لم يستسلم للموسيقى الخارجية التى كانت كفيلة بأن تربطه نهائيا بالمدرسة الشعرية القديمة .

لقد استطاع محمود درويش أن يصل الى توازن دقيق واضح بين « الموسيقى الخارجية » و « الموسيقى الداخلية » ... فصوت قصيدته مسموع ، وهو بذلك يتخلص من ذلك الخفوت الموسيقى والفتور النغمى الذى نلاحظه فى عدد غير قليل من نماذج الشعر الجديد ، والذى يدفع النقاد الى وصف هذه النماذج بأنها « نثرية » ... أى أنها قريبة الى النثر بقدر بعدها عن الشعر . ولكننا بالنسبة لشعر محمود نحس بموسيقى هذا الشعر احساسا واضحا ، على أن محمود درويش كصاحب موهبة أصيلة يستطيع أن يتنبه فى اللحظة الفنية المناسبة الى أن الموسيقى فى القصيدة لا ينبغى أن تعلو الى حد الضجيج والصخب ، بحيث تفقد عذوبة الهمس وقدرته على النفاذ الى القلب والتأثير على الوجدان ... ان محمود درويش فى كثير من قصائده يوازن بالفن والاحساس الوجـدانى الصـادق بين الموسيقى الخارجية والموسيقى الداخلية ، ويجعل من قصيدته عملا فنيا مسموعا بالأذن والقلب معا . ونستطيع أن نتبين القدرة الموسيقية الواضحة عند محمود درويش دون عناء كبير ... نستطيع أن نلمسها فى أى قصيدة نختارها دون بحث طويل أو تردد ... ولنقرأ على سبيل المثال هذه المقاطع

من قصيدة محمود درويش عن الشـاعر الأسبانى العظيم جارثيا لوركا الذى قتله الفاشست من أنصـار فرانكو خلال الثورة الاسبانية سنة ١٩٣٦ :

عازف الجيتار فى الليل يطوف الطرقات .
ويغنى فى الخفاء .
وبأشعارك يالوركا ، يلم الصدقات .
من عيون البؤساء .

نسى النسيان أن يمشى على ضوء دمك .
فاكتست بالدم بسمات القمر .
عن أناشيد الغجر

أجمل البلدان اسبانيا ، ولوركا يا صبايا .
أجمل الفتيان فيها .
يا مغنى النار ! وزع للملايين شظايا .
اننا من عابديها .

هذا شعر يتوفر فيه كل مايحتاجه الشعر الجميل من قدرة موسيقية .. فنحن فى هذه المقاطع الشعرية نحس بصوت الموسيقى احساسا مطـربا متصلا غير متقطع ولا متهافت ، فالايقاع هنا مستمر : كأن الشاعر عازف ناى يقدم لحنه فى نفس واحد قوى ... طويل ومديد ، ومن ناحية أخرى فاننا بقدر ما نحس بالطرب الموسيقى فى هذه القصيدة فنحن نحس بنوع آخر من النغم ... نغم هامس سهل ، وهو نغم داخلى عميق يتسرب الى الوجدان فى نعومة وقوة وقدرة على التأثير .. انالقصيدة تطربنا وتشجينا وتدفعنا الى حالة من الخدر والصوفية ... خدر كالأحلام .. وصوفية مثل صوفية الشهداء التى تختلط أمامها كل الحدود ، فلا يكون فرق بين الموت والحياة .

هذه بعض الثمار التى خرج بها محمود من احتكاك موهبته الجديدة بالشعر العربى القديم ... على أننا بعد ذلك اذا أردنا أن نتابع نمو محمود درويش فسوف نجد أمامنا عدة مراحل متتالية :

المرحلة الأولى هى مرحلة الطفولة الفنية ويمثلها ديوانه الأول « عصافير بلا أجنحة » وقد صدر هذا الديوان سنة ١٩٦٠ وكان عمر الشاعر تسعة عشر عاما ، ويقول محمود درويش نفسه عن هذا الديوان « انه ديوان لا يستحق الوقوف أمامه . كنت فى سنتى الدراسية الأخيرة ، وكان الديوان تعبيرا عن محاولات غير متبلورة » . ورغم أن هذا الديوان يكشف عن بعض الحرارة والصدق والطموح الفكرى والفنى فى طفولة محمود درويش الفنية الا أنه ديوان ضعيف بكل معنى الكلمة ، فالتعبير فيه مباشر بل وساذج فى كثير من الاحيان ، والتجارب والأفكار فيه محدودة ، والصور الشعرية قائمة على الزخرف والبلاغة الخارجية والرغبة فى تقديم لون من ألوان الابهار اللفظى ، ومحمود درويش فى هذا الديوان متأثر أشد التأثر بشعر نزار قبانى ، والأصح أن نقول ان الشاعر لم يكن متأثرا بنزار بقدر ما كان يقلده ، كما ان موسيقى هذا الديوان عالية وخطابية وزاعقة بصورة واضحة ، ففى احدى قصائد هذا الديوان وعنوانها « قصة الطفل اللاجىء الذى لا يعرف بلاده » يقول :

حدثونى ! علنى أذكر شيا
من بلادى ... عابقا فى شفتيا
أنا لا أذكر « أيام الهنا »
فأعيدوها صدى فى أذنيا

وأعيدوها نداء صارخا
فى شفاهى وأعيدوها دويا
أنا لا أذكرها ، لكنها

أمل يغـــرق دنيـــا أبويا
ووميض ســـــاخن فى أعين
صمتها ، ينطق شعرا عبقريا

وقصائد الديوان تتفاوت فى مستواها ولكنها تدور كلها فى هذا الاطار الشعرى الضيق ... اطار الطفولة والرومانسية الهشة .. اطار اللفظ البراق والموسيقى الصاخبة والتجربة الروحية المحدودة . فالوطن عنده يتحرك فى اطار صور عامة لكل وطن معرض للظلم والاضطهاد ، فهو وطن مغتصب ومجروح ، ومليء بألوان الظلم والأسى والألم . أما الحب فهو يدور عنده فى اطار عواطف الرومانسيين التقليديين من أسى وحرمان وجراح ، وهو أحيانا يتأثر بلغة الرومانسيين الحسيين عندما يحاول أن يعبر عن الحب الجسدى العنيف ولكن بنفس الأسلوب الرومانسى المباشر الساذج حيث يقول مثلا فى احدى قصائد الديوان وعنوانها « خذنى اليك » :

اضغط على جسدى الطرى فقد نضجت
وادعك شفاهى ـ هكذا ـ انى احترقت
ادعك ! بلى .. بحـــرارة .. انى كبرت
خذنى اليك !
شـــــعرى تسل به ... ولا تحرم يديك
والجأ الى نهدين شمعيين قد بكيا عليك
طف أين شئت وحيث شــاء لك الهوى
انى لديك
انى أذوب على يديك
خذنى اليك

وفى هذا المقطع نموذج آخر من نماذج مرحلة الطفولة الفنية عند محمود درويش فى ديوانه عصافير بلا أجنحة ... انها طفولة الفن والتجربة حيث كان الشاعر فى بدايته الأولى يحاول أن يعبر عن نفسه ويحاول أن ينطلق

... ولكنه كان أشبه بالعصفور الصغير الذى لا يكاد يقوى على الطيران الى آفاق الفن الرحبة الواسعة . على أننا مع كل هذه العيوب الواضحة لانعدم فى هذا الديوان لمسة العذوبة والحرارة والثورة والتمرد ، وهى اللمسة التى توحى بأن صاحب الديوان هو زهرة غير ناضجة فى الفن والفكر والحياة ولكنها زهرة يمكن أن تنضج وتتألق .

ولعل مما يكشف شيئا عن نفسية محمود فى هذه المرحلة ، مرحلة الطفولة الفنية ، وعما كانت تمتلىء به هذه النفس من انفعـالات ثائرة واحساس عميق بمأساة الوطن والشعب منـذ البداية تلك المقدمة التى كتبها محمود درويش لديوانه الأول « عصافير بلا أجنحة » والتى يصور لنا فيها نفسيته التى تعيش فى جو من التمرد وتحيط حيـاتها المعنـوية بقاموس واحد تتناثر حوله ألفاظ الثورة والغضب والثأر وما الى ذلك . فرغم أنه كان صبيا آنذاك الا أن كثيرا من رؤاه الأولى الغامضة كانت تتصل بأحلام وطنه وشعبه فى معظم الأحوال .

يقول محمود درويش فى هذه المقدمة التى تأثرت بأسلوبه العام وهو الاسلوب الرومانسى الملىء بالمبالغات العاطفية والزخرفة والتزويق اللفظى :

« كان ذلك فى شهرى آب وأيلول «أغسطس وسبتمبر» من هذا العام ، آخر الصيف وأول الخريف ، الصيف الحار الفضولى ... الصيف الفنان .. الصيف الثائر القوى الذى يحمل فى قلبه تموز « يوليو » الثائر البطل ... الذى يقول لكل جرح : اثأر ! اثأر ! لقد أذن الفجر وسبح ! والخريف .. الفنان الحزين اليائس ... الذى ذوى وأسلم أمره وكل أيامه ولحظاته للريح تبعثرها بلا حساب »

« فى آب وأيلول ازدحمت الدنيا على بابى : الحب والعذاب والكفاح والثورة والألم والنداء المبحوح القادم البعيد .. البعيد .. وازدحمت فى أعصابى الانفعالات والاهتزازات المتلاحقة باستمرار وغرابة ... وأصبت بمرض .. أو سموه اذا شئتم اغماءة الكتابة ... كان على أن ألبى النداء مرغما »

ثم يقول عن قصائد الديوان :

« انها تقدس الحرية ، وتقبل الشهداء ، وتغنى على شباك حبيبى ، وتبكى مع شريد ضائع ... »

ثم يتحدث عن عنوان الديوان عصافير بلا أجنحة :

« ... عصافير خلقت لتطير وتحلق ، وتدوخ اللحظات فى تحليقها ، شاء لها القدر أن تقص أجنحتها ، وتنزف دمها على شوك الألم والحرمان هدرا وبلا نهاية ... لتعقد على قصيدة حمراء على فم التاريخ الانسانى المعذب ...

وشاء لها القدر أن تذرى الزوابع أعشاشها وتنتف ريشها الدى خلق ليجتمع ويكون جناحا فما كان .. عصافير خلقت لتغنى على الينابيع الزرقاء بانطلاق أزرق شاء لها القدر أن تضيع ، وتتحرق بلا سماء وبدون أرض وراء أسلاك الصمت والضياع !

لهذه العصافير أغنى وأتألم وأثور ولأجلها أصرخ فى وجه الشمس كى تحيك من خيوط أشعتها ريشا لها لتنطلق غدا من جديد ! ...

ولغد هذه العصافير أقدم قصائدى ... »

هذه هى الروح العامة لديوان محمود درويش الأول « عصافير بلا أجنحة » وهى الروح التى تصورها المقدمة وتجسدها أشعار الديوان نفسه .. انها روح الشاعر فى خطوته الأولى .. فى رومانسيته الحادة .. فى « مراهقته » الفنية والفكرية والعاطفية .

ولعل أكبر أهمية لهذا الديوان الأول أنه يكشف لنا عن الخطوة الواسعة التى خطاها محمود درويش من هذا الديوان الى ديوانه الثانى « أوراق الزيتون » ففى هذا الديوان الثانى درجة عالية من النضج الفنى والوجدانى ، ولعل هذا الديوان الثانى يكون هو البداية الفنية الصحيحة لمحمود درويش ، والروح الغالبة على هذا الديوان هى الروح الغنائية ، التى يعبر فيها محمود درويش عن نفسه وتجاربه تعبيرا مباشرا ، سواء كان

ذلك فى شعره الجديد ، أو فى شعره الذى يلتزم فيه الشكل القديم .

ولعل هذا الصوت الغنائى ، الذى يعبر تعبيرا مباشرا بل وخطابيا وصاخبا فى بعض الأحيان يبدو لنا بوضوح فى هذه القصيدة الأولى من قصائد « أوراق الزيتون » واسم هذه القصيدة « بطاقة هوية » ويقول فيها :

سجل !
أنا عربى
ورقم بطاقتى خمسون ألف !
وأطفالى ثمانية
وتاسعهم ... سيأتى بعد صيف !
فهل تغضب ؟!
سجل
أنا عربى
وأعمل مع رفاق الكدح فى محجر
أسل لهم رغيف الخبز
والأثواب والدفتر
من الصخر ...
ولا أتوسل الصدقات من بابك
ولا أصغر
أمام بلاط أعتابك
فهل تغضب ؟
سجل
أنا عربى !

وتمضى القصيدة بهذه الصورة المباشرة الخطابية الصارخة التى تذكرنا بالهتاف فى المظاهرات ، وتذكرنا أيضا بالشعر العربى القديم وخاصة شعر

« الفخر » : فى صوته المرتفع وموسيقاه الصاخبة وخطابيته العالية ... وكلما قرأت قصيدة « بطاقة هوية » لمحمود درويش تذكرت — على وجه الخصوص — قصيدة الشاعر الجاهلى « عمرو بن كلثوم » المشهورة التى يقول فيها :

ألا لا يجهلن أحـد علينا
فنجهل فوق جل الجاهلينا

أو يقول :

اذا بلغ الرضيع لنا فطاما
تخر له الجبابر ساجدينا

أو يقول :

ونشرب ان وردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدرا وطينـا

والتشابه هنا بين قصيدة محمود درويش وقصيدة عمرو بن كلثوم هو طبعا تشابه فى الروح الخطابية المباشرة والصوت المرتفع الصارخ ، أى أنه تشابه فى الموقف الفنى والوجدانى وليس فى الموقف الفكرى . فموقف محمود درويش فى قصيدته ليس فيه أى نزعة من نزعات التعالى والقبلية المتعصبة التى نجدها عند عمرو بن كلثوم ... ان موقف محمود درويش هو موقف الدفاع عن النفس ضد الاضطهـاد الذى تصبه اسرائيل على الانسان العربى فى الأرض المحتلة حيث تحاول أن تقلل من مستوى العربى وتثبت أنه انسان متخلف ... بلا قيمة ولا أهمية .

هذه هى المرحلة الأولى فى شعر محمود درويش بعد طفولته الفنية .. انها مرحلة التأثر بالشعر العربى القديم وخصائصه الفنية المختلفة ، على أن هذه المرحلة تطورت بعـد ذلك الى مرحلة ثانية ، هى المرحلة التى خضع محمود درويش فيها لتأثير شـعراء المهجر وشـعراء المدرسة الرومانسية الناضجة من أمثال على محمود طه وابراهيم ناجى . وشعراء

المهجر والشعراء الرومانسيون يمثلون مدرسة واحدة واتجاها متشابها فى الشعر العربى المعاصر . وقد استفاد محمود درويش من هذه المدرسة الرومانسية ما جعل شعره أكثر رقة وأقل مباشرة وأغنى بالعذوبة والأحلام مما كنا نجده فى المرحلة السابقة حيث الخطابة والصوت الصاخب المرتفع . ومحمود درويش يسمى هذه المرحلة فى حياته الفنية باسم مرحلة « الثورى الحالم » .... فهو يعبر عن ثورته على الأوضاع التى يعانيها العربى فى الأرض المحتلة ، سواء كانت هذه الأوضاع معنوية أو مادية ، ولكن تعبيره كان عاما ، أشبه بالحلم الغامض المبهم ، وذلك هو شأن الشعراء الرومانسيين الذين كان يقرأ لهم ويتأثر بهم فى تلك المرحلة من حياته الفنية ، فهو يرفض الواقع الذى يعيش فيه ، ويتحدث عن واقع يحلم به ، ولكنهلا يفصح عن عناصر الواقع الذى يرفضه ولا عن عناصر الواقع الجديد الذى يتمناه ... انه يحلم ويعبر عن أحلامه فى قصائد غنائية رقيقة وفيها قدر من التعبير المباشر أيضا ، ولعل هذه الأبيات تكشف لنا عن ذلك العنصر الغنائى الثورى الحالم عند محمود درويش فى هذه المرحلة حيث يقول فى قصيدة له بعنوان « عن انسان » :

يا دامى العينين والكفين
ان الليل زائل
لا غرفة التوقيف باقية
ولا زرد السلاسل
نيرون مات ، ولم تمت روما
بعينيها تقاتل
وحبوب سنبلة تجف
ستملأ الوادى سنابل

ولعلنا أيضا نجد هذه الروح الرومانسية الغنائية الحالمة فى هذه القصيدة التى يسميها الشاعر باسم « نشيد ما » وهى قصيدة وطنية ولكنها تكتسى

بغلالة رقيقة من «الغزل» ... فالحبيبة التى يخاطبها الشاعر هنا هى وطنه ، وتلك صورة تملأ شعره فى كل مراحله المختلفة فهو يهوى ذلك التوحيد والمزج بين صورة الحبيبة وصورة الوطن ... يقول محمود درويش فى هذه القصيدة :

عسل شفاهك واليدان
كأسا خمور
للآخرين

الدوح مرحة ، وحرش السنديان
مشط صغير
للآخرين
وحرير صدرك ، والندى ، والأقحوان
فرش وثير
للآخرين

وأنا على أسوارك السوداء ساهد
عطش الرمال أنا .. وأعصاب المواقد
من يوصد الأبواب دونى
أى طاغ ؟.. أى مارد
سأحب شهدك
رغم أن الشهد يسكب فى كؤوس الآخرين
يا نحلة
ماقبلت الا شفاه الياسمين !

فالصور هنا هى الصور الشعرية التى تملأ خيال الشعراء الرومانسيين الحالمين .. فالصدر الحريرى، والندى والأقحوان والسهد ، والشهد .. كلها

صور تتردد فى أشعار الرومانسيين وتسيطر على وجدانهم ، وقد سيطرت على محمود درويش أيضا فى هذه المرحلة من حياته الفنية .

والواقع أن ديوان « أوراق الزيتون » لايتوقف عند حدود « الغنائية » المباشرة السهلة البسيطة ، فالشاعر يتقدم فى بعض قصائد هذا الديوان الى مستوى أرفع من التصوير الفنى والوجدانى لتجاربه ، فيقلل من نزعة التعبير المباشر ويحاول أن يقدم صورا ومواقف ونماذج انسانية مختلفة يوحى الينا من خلالها بما يريد أن يقول ، كل ذلك دون أن يلجأ الى الرمز الغامض البعيد عن الوضوح ، كذلك فانه فى عدد كبير من قصائد « أوراق الزيتون » يضع حدا لتدفقه العاطفى حتى يمنع عن شعره ماعرفناه عنه فى مرحلة الطفولة الفنية من استطراد ومبالغات انه هنا يختار صوره الفنية ويختار التعبير عن انفعالاته العميقة فقط دون انفعالاته السريعة والسطحية والمليئة بالضجيج والصخب ، وهذا مقطع من قصيدة له بعنوان « رسالة من المنفى » ، يعبر فيه عن مأساة « الفلسطينى المشرد » ، ورغم وضوح فكرة القصيدة ، الا أن الشاعر هنا يتجنب تماما ذلك اللون من التعبير المباشر ، ويلجأ الى رسم صورة انسانية تجسد لنا علاقات هذا الفلسطينى المشرد بأسرته ، وتكشف مشاعره الحزينة ومواقف حياته اليومية التى تملى عليه الاحساس بالغربة فى كل لحظة وتؤكد لديه هذا الاحساس ، وهذا النوع من التصوير أنضج وأعمق من أى تعبير مباشر ، فنحن هنا أمام صورة انسانية قريبة الى القلب .. كأننا فى لقاء وجدانى خاص مع انسان يشكو فى صدق وبساطة أحزانه وآلام قلبه .. فننصت له ونتأثر به ولا تفارقنا ذكراه حتى بعد أن يرحل ، ويكون تأثيره النفسى عادة أعمق وأبقى من أى انسان صاخب يعرض شكواه فى حدة وعنف وصوت عال مرتفع .. ويعرض هذه الشكوى بأسلوب مزخرف مفتعل يهدف فيه الى الاثارة العاطفية بأى صورة من الصور .

يقول محمود درويش فى هذا المقطع من قصيدته « رسالة من المنفى »

على لسان ذلك المشرد الفلسطينى :

الليل ـ يا أماه ـ ذئب جائع سفاح
يطارد الغريب كيفما مضى
ويفتح الآفاق للأشباح
وغابة الصفصاف لم تزل تعانق الرياح
ماذا جنينا نحن يا أماه ؟
حتى نموت مرتين
فمرة نموت فى الحياة
ومرة نموت عند الموت
هل تعلمين ما الذى يملأنى بكاء ؟
هبى مرضت ليلة .. وهد جسمى الداء !
هل يذكر المساء
مهاجرا أتى هنا .. ولم يعد الى الوطن ؟
هل يذكر المساء
مهاجرا مات بلا كفن ؟
ياغابة الصفصاف . هل ستذكرين
أن الذى رموه تحت ظلك الحزين
ـ كأى شيء ميت ـ انسان ؟
هل تذكرين أننى انسان
وتحفظين جثتى من سطوة الغربان ؟
أماه يا أماه
لمن كتبت هذه الأوراق
أى بريد ذاهب يحملها ؟
سدت طريق البر والبحار والآفاق ..
وأنت يا أماه

ووالدى ، واخوتى ، والأهل ، والرفاق ...
لعلكم أحياء
لعلكم أموات
لعلكم مثلى بلا عنوان
ماقيمة الانسان
بلا وطن
بلا علم
ودونما عنوان
ما قيمة الانسان ؟

ولو توقفنا قليلا أمام هذه القصيدة فسوف نجد فيها نموذجا للنضج الشعرى الذى حققه محمود درويش فى ديوانه أوراق الزيتون .. ان المشرد الفلسطينى هنا يخاطب الأم : رمز الحنان والرعاية العاطفية ، والشاعر يضع صورة الأم فى مقابل صور القسوة التى يلقاها ذلك الانسان الفلسطينى ، وهذا التقابل بين صورة الأم وقسوة الواقع هو تقابل فنى دقيق يؤدى هدفه بصورة واضحة : « الليل ـ يا أماه ـ ذئب جائع سفاح » .. فالأم فى جانب والليل : ذلك الذئب الجائع السفاح فى جانب آخر ، الحنان المفقود البعيد فى جانب والقسوة الواقعية المريرة التى يعانيها الفلسطينى معاناة يومية فى جانب آخر . انها لمسة صادقة عميقة : أن يتذكر الانسان أمه كلما مسه الشقاء والعذاب والضنى . ولقد كان اختيار الشاعر أن يكون الخطاب موجها الى الأم ، والشكوى موجهة اليها اختيارا سليما وعميقا من الناحية الفنية والوجدانية معا . وهاهو الشاعر يواصل تصويره لمرارة المشرد فيروى لنا عذابه عندما يمرض فى احدى الليالى ولا يجد من يرعاه . انهـا صورة بالغة التأثير ، خاصة اذا نظرنا اليها فى اطارها الرئيسى ، وهو أنها صورة من أحزان الابن وغربته يضعها الشاعر أمام قلب الأم .. كيف يمكن أن تكون أحزان الأم عندما تتصور أن ابنها الغريب مريض وبلا أدنى رعاية ؟ ان قلبها يتمزق .. وقلبنا نحن يتمزق مع هذا القلب الحنون . وتكتمل

الصورة المفجعة عندما يقول لنا الشاعر ان هذه الأحزان التى يكتبها ذلك الانسان الفلسطينى فى رسالته لن تصل الى أمه ، لأن الرسائل الفلسطينية لاتصل من الغربة الى الأرض المحتلة .. انها رسائل ممنوعة ومحرمة . فكأن هذا الانسان المشرد يحتمل وحده آلامه دون أن يجد حتى تلك السلوى فى كتابتها الى أمه فى الأرض البعيدة ... أرض الوطن

واذا تركنا ديوان أوراق الزيتون نجد أن محمود درويش ينتقل بعد ذلك الى مرحلة جديدة هى أنضج مراحله الفنية على الأطلاق وهى تلك التى تتمثل على أفضل صورة فى دواوينه الثلاثة الأخيرة : « عاشق من فلسطين » و « آخر الليل » و « العصافير تموت فى الجليل » .. فمحمود درويش هنا يزداد ثقافة فنية ، ويزداد قدرة على التعبير ويكتشف أفضل مواهبه وأكثرها عمقا وأصالة . انه يصل هنا الى القدرة على « الايحاء » وهذه القدرة الفنية تحل محل التعبير المباشر الصريح المكشوف ، والايحاء الفنى أكثر تأثيرا على القلب من التعبير المباشر ، كما أنه أغنى فى قيمته الفنية من هذا التعبير المباشر أيضا .

وفى هذه المرحلة يتأثر محمود درويش تأثرا واضحا بالشعر الجديد وأعلامه من الشعراء العرب المعاصرين كالسياب ، والبياتى وعبد الصبور وحجازى وأدونيس وحاوى وغيرهم .

وفى هذه المرحلة الجديدة من فن محمود درويش نلتقى بعدد من الخصائص الفنية البارزة .

أولى هذه الخصائص أن محمود لم يعد الا فى القليل النادر يعبر عن تجاربه تعبيرا مباشرا ، بل انه هنا يلجأ الى الرمز ، والأساطير ، والقصة الشعرية للتعبير عن تجاربه المختلفة . على أن محمود درويش رغم لجوئه الى الرموز والأساطير والقصص الشعرية فى بناء قصائده فانه لم يفقد وضوحه الفنى ، ذلك لأنه شاعر مرتبط بالجماهير العربية فى الأرض المحتلة وهو يريد لشعره أن يصل الى هذه الجماهير ويساهم فى التعبير عنها ،

ولا يمكن أن يصل الشعر الغامض الى الجماهير ، ولايمكن أن يؤثر عليها ومن هنا حرص محمود على الوضوح فى اطار رموزه المختلفة ، وحرص على أن تكون رموزه بعيدة كل البعد عن التعقيد الفني الذى قد يجعل من القصيدة فى النهاية متعة للدارسين والباحثين وهواة كشف الألغاز وتفسيرها والاختلاف حولها ، أما الجمهور الكبير فلا يجد فى مثل هذا التعقيد أى غذاء فنى ، ومحمود درويش واع كل الوعى لهذه القضية ولذلك فهو يقول « الرمز عندى ، كما أراه ، ليس مبهما . ان من الممكن اكتشافه بسرعة ، هو أولا وأخيرا بديل للتعبير المباشر »

على أن هناك سببا آخر يشير اليه محمود درويش ويقف وراء لجوئه الى الرمز فى شعره ، وذلك هو محاولة التعبير عن تجاربه بعيدا عن سطوة الرقابة السياسية الاسرائيلية ، ان الرمز كما يقول محمود درويش نفسه يعتبر هنا نوعا من التحايل الفنى فى تصوير الواقع وتخطى الرقابة السياسية الاسرائيلية .

على أن محمود درويش رغم حرصه على درجة من الوضوح الفنى فى اطار رموزه المختلفة قد لجأ أحيانا الى نوع من الغموض الصوفى تظهر بوضوح فى عدد من قصائد الديوان الأخير : العصافير تموت فى الجليل . وسنعود فى الفصل القادم الى مناقشة هذا النوع من أنواع الغموض فى شعر محمود الأخير .

على أن محمود درويش لم يهرب ـ فى جميع الأحوال ـ من موضوعه الرئيس الذى يملأ عليه وجدانه وشعره ، بحيث نستطيع أن نقول دون أن نخشى الخطأ : ان كل شعر محمود درويش يتصل بموضوع أساسى واحد هو وطنه وجرحه فلسطين .

والرموز المختلفة التى لجأ اليها محمود درويش تساعد الفنان الشاب على الوصول بشعره الى درجة عالية من التأثير الوجدانى والفنى .. دون أن تجعل من شعره عالما معتما قاتما بعيدا عن الفهم . ونستطيع أن نقف

أمام قصيدة محمود درويش « القتيل رقم ٤٨ » وهى جزء من قصيدته الطويلة « أزهار الدم » **المنشورة فى ديوان « آخر الليل »** وهى القصيدة التى كتبها عن مجزرة « كفر قاسم » ـ والتى أشرنا اليها فى فصل سابق ـ حيث قام الجنود الاسرائيليون بقتل مايقرب من خمسين عربيا من قرية « كفر قاسم » فى ساعات قليلة .. وهذا القتيل رقم ٤٨ هو أحد القتلى العرب الذين سقطوا فى تلك المجزرة .. يقول محمود درويش :

وجدوا فى صدره قنديل ورد .. وقمر .

وهو ملقى ميتا ، فوق حجر
وجدوا علبة كبريت ، وتصريح سفر

وعلى ساعده الغض نقوش

قبلته أمه .. وبكت عاما عليه
بعد عام ، نبت العوسج فى عينيه
واشتد الظلام

عندما شب أخوه
ومضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة
حبسوه .. لم يكن يحمل تصريح سفر
انه يحمل فى الشارع صندوق عفونة
وصناديق أخر

آه أطفال بلادى
هكذا مات القمر

فالرموز هنا ليست معقدة ولا مغلقة أمام الفهم .. عندما يصور الشاعر لناهذا القتيل وفى صدره « قنديل ورد .. وقمر » فهو يقول لنا : انه كان انسانا طيبا يحمل عطر الحب فى قلبه ويحمل المشاعر النبيلة ولا يطوى نفسه على أحقاد سوداء أو أفكار شريرة .. وعندما يقول الشاعر فى آخر

القصيدة « آه أطفال بلادى ، هكذا مات القمر » فهو يقول لنا بلغة الصور الفنية « ... لقد وقعت المأساة وتمت » فليس موت القمر ، رمز النور والجمال والتفاؤل والاشراق ، الا تجسيدا لوقوع المأساة فى حياة المواطنين العرب الذين تعرضوا لمجزرة كفر قاسم ، وهم أنفسهم نموذج لغيرهم من المواطنين العرب فى بقية الأرض المحتلة .

على أن هذه الرموز فى النهاية هى أبسط درجات الرمز ، لأنها رموز تعتمد على بعض الصور الفنية الجزئية مثل « موت القمر » أو « قنديل الورد فى صدر القتيل » أو ماالى ذلك ، ولكن الرمز الفنى بصورتهالعميقة حقا هو ذلك الذى يعتمد على الصورة الشاملة التى يقوم عليها بناء هذه القصيدة نفسها .. فتصوير القتيل على أنه انسان طيب بسيط .. عامل مكافح ، يكتمل لدينا من داخل القصيدة فهو « .. ملقى ، ميتا فوق حجر » وقد وجدوا معه « علبة كبريت وتصريح سفر » و « على ساعده الغض نقوش » .. بهذه الصور الجزئية الموجزة يقدم لنا الشاعر لوحة كاملة مؤثرة لذلك الشهيد الذى سقط ضحية العدوان وهو لا يملك شيئا .. لايملك ثروة ولا سلاحا وانما « علبة كبريت وتصريح سفر » !

وتلك صورة انسانية رائعة استطاع محمود درويش أن يرسمها لنا بعمق فنى ، واستطاع أن يجعل منها صورة مشحونة بالعاطفة والقدرة على التأثير .

ثم يقدم لنا الشاعر بعد ذلك صورة أخرى : «أخو» القتيل « الذى مضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة » فحبسوه لأنه لم يكن يحمل معه « تصريح سفر » ! ..

يا للتناقض : كان أخوه الأكبر يحمل تصريح سفر فقتلوه ! أما الذى لا يحمل تصريح سفر فمصيره الحبس ! .. وتلك كلها جزئيات تصل بنا فى نهاية الأمر الى الصورة الكلية الشاملة .. صورة الاضطهاد الاسرائيلى الخالى من أى لمحة انسانية بالنسبة للمواطنين العرب .

هذا هو ما نلتقى به فى المرحلة الفنية الأخيرة لمحمود درويش: الرمز الشفاف الخالى من التعقيد ، ثم التجسيد الانسانى للتجربة ، فبدلا من أن يحدثنا محمود درويش حديثا مباشرا وعاما عن الشهداء فهو يرسم لنا صـــورة انسانية عميقة « للقتيل رقم ٤٨ » .

من ناحية أخرى نجد أن محمود درويش فى مرحلته الفنية الجـــديدة كثيرا مايعتمد على « الحوار » ، ونحن نجد فى شعره فى كثير من الأحيان « صوتين » يسيطران على القصيدة لا صوتا واحدا . وهذان الصوتان يكشفان دائما عن « مقدرة مسرحية » عند محمود درويش فلو أتاحت له الظروف أن يكتب مسرحيات شعرية لقدم شيئا له قيمة ولاشك ، ومحمود درويش نفسه يقول « اننى مشبع بالرغبة فى كتابة مسرحية شعرية » .. والحق أنه يملك كثيرا من عناصر الفن المسرحى الجيد .

ومن أبرز القصائد التى تقدم لنا هذين الصوتين فى شعر محمود درويش قصيدة « أغنية ساذجة عن الصليب الأحمر » ثم الجزء الثانى من هـــذه القصيدة وعنوانه « ملاحظة على الأغنية » ففى هذه القصيدة صوتان :

صوت صبى صغير يصور أحواله وأحوال أهله فى غضب بل وفى يأس . ثم صوت آخر يرد عليه ، ونحن لانعرف بالتحديد من صاحب الصوت الثانى ، هل هو صوت الأب ، أو صوت الشاعر .. أو هو صوت مجهول المصدر ، ولكن هذا الصوت الثانى على أى حال هو صوت الأمل ؛ صوت المستقبل .. وهو رد على الصوت الأول ، صوت اليأس

يقول الصوت الأول ، صوت الصبى اليائس الحزين :

هل لكل الناس فى كل مكان
أذرع تطلع خبزا وأمانى
ونشيدا وطنيا ؟

فلماذا يا أبى نأكل غصن السنديان
ونغنى ، خلسة ، شعرا شجيا ؟

يا أبى ، نحن بخير وأمان
بين أحضان الصليب الاحمر !

وفى هذا الحديث ، نبرة يأس وسخرية واحساس عميق بالمرارة .. ثم يواصل الصبى بعد ذلك حديثه فيقول :

وأنا أحلم بالحلوى وحبات الزبيب
فى دكاكين الصليب الأحمر
حرمونى من أراجيح النهار
عجنوا بالوحل خبزى .. ورموشى بالغبار
أخذوا منى حصانى الخشبى
جعلونى أحمل الأثقال عن ظهر أبى !

هذا هو صوت المرارة واليأس ، ولكن القصيدة تحمل الينا صوتا آخر هو صوت الأمل الذى يرد على الصوت الأول ويعترض عليه :

أخذوا منك الحصان الخشبى
أخذوا ، لا بأس ، ظل الكوكب

يا صبى !
يازهرة البركان ، يانبض يدى
اننى أبصر فى عينيك ميلاد الغد
... ...
أخذوا بابا ... ليعطـوك رياح
فتحوا جرحا .. ليعطوك صباح
هدموا بيتنا لكى تبنى وطن !
حسن هذا ... حسن

نحن أدرى بالشياطين التى تجعل من طفل نبيا
قل مع القائل .. لم أسألك عبئا هينا
يا الهى ! اعطنى ظهرا قويا !

وهذان الصوتان فى شعر محمود درويش نلتقى بهما فى كثيرمن قصائده الجديدة .. انهما صوتان يتحاوران . وهما على الأغلب يمثلان ذلك الصراع الذى يدور فى نفس العربى المقيم فى داخل الأرض المحتلة : صوت التساؤل والشك واليأس وصوت الأمل واليقين بالنصر . ومحمود درويش يحمل الينا من مواهبه الفنية ووجدانه الخصب مايجعلنا نتعاطف بكل قوة مع الصوت الثانى .. صوت الأمل واليقين بالنصر .

ونجد نموذجا آخر لهذين الصوتين فى قصيدة « نشيد الرجال » فى ديوان « عاشق من فلسطين » ويقوم بناء القصيدة كله على هذين الصوتين ، صوت التساؤل والحزن ، وصوت التفاؤل والتمرد والغضب وفى هذه القصيدة يجرى الشاعر حوارا مع المسيح ومحمد وحبقوق أحد أنبياء اليهود وكل هذه الشخصيات الدينية تمثل الدعوة الى الكفاح ومواجهة الألم والتمرد أما صوت الشاعر فهو يمثل صوت الانسان الحائر الذى يبحث عن طريق للمستقبل

... وفى هذا النشيد أيضا نجد مقطعا بعنوان « نشيد بنات طروادة » حيث يصور لنا الشاعر أحزان مدينة مهزومة ، ثم يعلق على هذا النشيد .. نشيد الهزيمة بدعوة الى النضال والثورة والنصر .

يقول « نشيد بنات طروادة » ؛ وطروادة هى رمز للمدينة المهزومة ، وللوطن المحتل ، وللأرض المغتصبة :

وداعا ياليالى الطهر
يا أسوار طروادة

خرجنا من مخابينا
الى أعراس غازينا

لنرقص فوق موت رجال طروادة
سبايا نحن ، نعطيهم بكارتنا
وما شاؤوا

لأنهم أشداء
ونرقد فى مضاجع قاتلى أبطال طروادة
وداعا ياليالى الطهر والأحلام
ياذكرى أحبتنا
سبايا نحن منذ اليوم
من آثار طروادة

وبعد هذا النشيد الحزين ، يرتفع صوت النشيد الآخر ، نشيد الثورة والتمرد بعنوان تعليق على النشيد :

بلى ... أصغيت للنغم
فلا تخضع لجناز الردى
قيتارك المشدود
من قاع المحيط لجبهة القمم
لئلا تجهض الأزهار والكبريت
فوق فم
سيزهر مرة طلعا وقنديلا
وشعرا يصهر الفولاذ
يرصف شارع النغم
... ...
نعم أصغيت للنغم
ولكنى ، تحريت السنا فى الدمع
لا ديمومة الظلم
لنحرق ريشة الماضى
ونعزف لحننا الرائد
فمن عزمى
ومن عزمك

ومن لحمى
ومن لحمك
نعبد شارع المستقبل الصاعد

وهكذا نجد هذين الصوتين يترددان كثيرا فى شعر محمود درويش ليكشفا لنا عن الصراع الذى يدور فى أعماقه وأعماق شعبه : بين التفاؤل والتشاؤم ، بين اليأس والأمل فى المستقبل ، بين الاستسلام والتمـرد والثورة .. ودائما يرتفع صوت التفاؤل والثورة .. ودائمـا يعزف لحن الأمل فى المستقبل . فى التحرر من الطغيان والظلم .

ومن ملامح هذه المرحلة الجديدة فى شعر محمود درويش أنه يعتمـد أحيانا على الأغانى الشعبية ويستمد منها بعض العناصر الفنية فى بنـاء قصيدته . فهو يبدأ قصيدته « موال » بمقطع من أغنية شعبية فلسطينية تقول :

يمـا مويل الهوى
يما ... مويليـا
ضرب الخناجر ولا
حكم النـذل فيا

ثم يستمر محمود درويش بعد ذلك فى قصيدته مستفيدا من ذلك المقطع من مقاطع الأغنية الشعبية استفادة فنية وفكرية معا ، ففى هذا المقطع الشعبى تعبير عن « الكرامة والاحتمال والصبر » والقصيدة كلها تدور حول هذه المعانى ، والشاعر يوحى الينا أنه يستمد قوته وأمله وتفـاؤله من تراث عريق .. هو تراث شعبه فى الكفاح والمقاومة واحتمال المصاعب .

على أن محمود درويش لايكثر من الاعتماد على التراث الشعبى والشعر الشعبى عموما ، فقليلا مايستمد من هذا التراث عناصر فنية تساعده فى بناء قصيدته . على عكس مانجد عند زميله الشاعر سميح القاسم الذى يعتمد على التراث الشعبى كثيرا .

ولكن محمود درويش يهتم بشيء آخر هو تسجيل صور الحياة الشعبية اليومية فى شعره والاستفادة من هذه الصور استفادة عميقة فى بناء قصائده وتقريبها من الوجدان الشعبى .. وتأكيد مايؤمن به الشاعر من أنه يخدم بفنه قضية شعبية هى قضية العرب فى الأرض المحتلة .. وهم هؤلاء العرب الذين يعيشون حياة صعبة ويكافحون فى ظل ظروفهم القاسية كفاحا مريرا ، فهو يقول فى قصيدة « اعتذار » مصورا بعض أحلامه :

حلمت بعرس الطفولة
بعينين واسعتين حلمت
حلمت بذات الجديلة
حلمت بزيتونة لا تباع
ببعض قروش قليلة

وفى قصيدة قمر الشتاء يقول :

سألم جثتك الشهيدة
وأذيبها بالملح والكبريت
ثم أعبها
كالشاى .. كالخمر الرديئة .. كالقصيدة

ويقول فى قصيدة « مطر » :

الشارع الخلفى يجرفه المطر
من أين تعبر ياعجوز ؟
جمدت يداك على العصا
حتى الحجر
يصطك .. والشفة العجوز
تشتى دعاء أبلها .. ماذا دهاه ؟
مازال يحمد ربه
ويموت من تحت المطر

وفى قصيدة « عنوان جديد » يقول :

تغير عنوان بيتى
وموعد أكلى
ومقدار تبغى تغير
ولون ثيابى ووجهى وشكلى
وحتى القمر
عزيز على هنا
صار أحلى وأكبر
ورائحة الأرض : عطر
وطعم الطبيعة سكر !

فكما نرى فى النماذج السابقة ، نجد محمود يستخدم الكثير من الصور الشعبية .. صور الحياة اليومية .. فالزيتونة ، التى تباع بقروش قليلة ، والشاى والكبريت ، والتبغ ، والخمر الرديئة ، وعصا العجوز ودعاؤه . كل هذه صور من الحياة الشعبية اليومية ، يستخدمها محمود درويش كثيرا فى بناء قصائده المختلفة .

ان محمود يكثر من استخدام صور الحياة اليومية فى شعره ، وقد شاع استخدام هذه الصور فى الشعر الجديد .. ولكن محمود درويش لايستخدم هـذه الصور من باب التقليد لأسـلوب فنى رائج ، بل انه يستخدم هذه الصور تعبيرا عن وجدانه الشعبى العميق وحساسيته الفنية للحياة اليومية وقدرته على التقاط الشعر الكامن فى هذه الحياة .

ومن الملامح الفنية لشخصية محمود درويش أنه يلجأ أحيانا الى مايسمى « بالتداعى الحر » ... فهو ينطلق من صورة معينة ثم يستسلم لهذه الصورة فتقوده الى صور أخرى تنبع منها وتتصل بها .. يقول فى احدى قصائده :

وكنت حديقتى ، وأنا غريب الدار

أدق الباب يا قلبى
على قلبى
يقوم الباب والشباك والأسمنت والأحجار !

فصورة الدار تستدعى وراءها صورة الباب ، ثم تستدعى صور الشباك والأسمنت والأحجار . ولعل هذا « التداعى » يبـــدو أكثر وضوحا فى قصيدته عاشق من فلسطين ، فالصور تستدعى بعضها البعض ، ويسجلها الشاعر كما تتوارد على خاطره ، وكما « تتوالد » : صورة بعد صورة .

يقول محمود فى « عاشق من فلسطين » :

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الأحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الكلمات والصمت
فلسطينية الصوت
فلسطينية الميلاد والموت
حملتك فى دفاترى القديمة
نار أشعارى

فالصور المتلاحقة فى هذا المقطع من القصيدة تعتمد اعتمادا واضحا على التداعى ، « فالميلاد » يستدعى « الموت » و « الكلمات » تستدعى الصمت ... ثم تتوالى الصور : العينان والوشم ، الأحلام والهم .. المنديل والقدمان والجسم .. انها كلها صور متلاحقة تدل على ميل نفسى وفنى الى الاعتماد على هذا « التداعى الحر » فى بناء القصيدة ، حيث تولد الصور الفنية وراء بعضها من خـــلال تيار وجدانى متـــدفق وعنيف ... والتيار الوجدانى فى المقطع السابق من قصيدة عاشق من فلسطين هـــو ولاشك ذلك اليقين العميق بأن كل ما حاوله الاحتلال الاسرائيلى من

ضغط وارهاب قد فشل تماما فى الغاء صفة « الفلسطينية » عن حبيبته التى هى فى نفس الوقت أرضه ووطنه ... ولاشك أن هذا النوع من التداعى الحر .. يكشف عن تدفق وجدانى عند الشاعر ولكنه يعـرض الشاعر لعيوب فنية أخرى سوف تتعرض لها فى فصل آخر من فصول الكتاب .

ومن ملامح محمود درويش الفنية والفكرية أيضا تعبيره المتكرر عن حاجته وحاجتنا جميعا الى شعر جديد ، يتخلص من كل الأخطاء والعيوب القديمة التى كنا ننكرها على شعرائنا ونرفضها منهم ... فهو يريد شعرا مرتبطا كل الارتباط بالانسان وهموم الانسان وأحلام الانسان لا شعرا تكون وظيفته هى الامتاع والترف والجمال الخارجى المجرد من أى وظيفة انسانية ، ففى قصيدة له عنوانها « عن الشعر » يؤكد هذا المعنى الذى يرفض أى وظيفة للفن تبحث عن الجمال الخارجى .. جمال الألفاظ والصور الفنية ، لا جمال الوجدان وجمال الانسان ، يقول محمود فى هذه القصيدة :

أمس غنينا لنجم فوق غيمة
ولبدر قرب نجمة
وانغمسنا فى البكاء

أمس عاتبنا الدوالى والقمر
والليالى ... والقدر
وتوددنا النساء
دقت الساعة والخيام يسكر
وعلى وقع أغانيه المخدر

قد ظللنا بؤساء
يا رفاقى الشعراء
نحن فى دنيا جديدة
مات ما فات ، فمن يكتب قصيدة

فى زمان الريح والذرة ،
يخلق أنبياء !

ثم يقول فى نفس القصيدة :

قصائدنا بلا لون
بلا طعم .. بلا صوت
اذا لم تحمل المصباح من بيت الى بيت
وان لم يفهم البسطا معانيها
فأولى أن نذريها
ونخلد نحن ... للصمت !!

فهو يدعو بوضوح الى وظيفة انسانية للشعر ... تجعل جماله الفنى فى خدمة الانسان وقضاياه الكبيرة وتجاربه الحساسة .. ولا تقف عند حدود الجمال الخارجى والترف والرفاهية الوجدانية .

وهو يحدد رسالته كشاعر فى مجتمعه المكافح تحديدا بديعا وعميقا فى قصيدة له بعنوان « امرؤ القيس » .. يقارن فيها بين امرىء القيس كشاعر قديم له رسالته الخاصة وبين الشاعر الجديد الذى يجعل منه محمود درويش مثلا أعلى ويؤمن به وبرسالته .. يقول محمود فى هذه القصيدة :

ليس لى قصر ، وما عرش أبى
غير فأس خشبية
لا أغنى مثلما غنيت تحت الكوكب
للخيول العربية
وتنادينى : تعال
ليس لى حان ، ولا عشر حسان
قدحى خال كجيبى والنساء
فى زمانى لا تحب الشعراء

اننى أدفع عن رأسى بطش الصولجان
وتناديني : تعال

لقد اختلف العصر بين امرىء القيس ومحمــود درويش .. والرسالة اختلفت ووظيفة الفن مختلفة أيضا ... ولقد كان امرؤ القيس يقف على الاطلال القديمة وقفة العاشق .. ولكن محمود درويش يقف على الاطلال وقفة المناضل الوطنى الذى تهدمت دياره بيد الطغيان وتحولت الى ذكريات وبقايا حياة .. ان الشاعر المناضل يشم فى هذه الأطلال على أرض فلسطين أشياء كثيرة رائعة .. يشم فيها رائحة أرضه وحقوله .. وهو لذلك يقول لامرىء القيس :

وقفة الأطلال يا شاعرنا
رمدتنى ، فتلفت اليك
وتحسست يديك :
أعطنى من زادك الباقى ، لعلى
أقطع الليل على أطلال دارى
ورماد النار فى موقد أهلى
والخوابى ... والجرار !
لأناديك : تعال
لا تسلنى :
كيف يضحى الكوخ قصرا
ونعيما ، حين يهدم ؟
لا تسلنى ! ... أنت أدرى !
كل ما عندى اله ... حين أحرم !

هذه هى رسالة الشاعر الجديد كما يؤمن بها محمود درويش ... انهـا رسالة الدفاع عن الديار التى حولها الطغيان الى أطلال .. وهى رسالة الفنان الذى يؤمن بالانسان ويؤمن بأن كل شىء هو من أجل الانسان

... وأن الجمال والفن هما أيضا من أجل الانسان .

هذه بعض الملامح الفنية الرئيسية فى شعر محمود درويش ... على أن محمود درويش هو فى النهاية شاعر حساس يعيش فى « حلم كبير » هو حلم « انتصار قضيته » المظلومة ، وهـذا الحلم يفرض نفسه على صوره الفنية وعلى طريقته فى التعبير ، فبالرغم من أنه شاعر يعبر عن قضية واقعية هى قضية العرب فى الأرض المحتلة ، ويعبر عن هذه القضية على أساس عقيدته الاشتراكية الانسانية التى تدافع عن العاملين المنتجين فى المجتمع والتى تطلب العدل لهؤلاء أولا وأخيرا .. رغم هذا كله فان محمود درويش كثيرا مايترك الواقع ويرتفع فوقه بجناحيه ، ذلك لأن الواقع الذى يعيش فيه هو واقع مرير ، ولو استسلم الشاعر للتفكير الواقعى العادى لما وجد أملا ولا طريقا للخلاص ... ولـكن محمود درويش يدرك بقلبه ، وبطريقة شبه صوفية أن قضية شعبه هى قضية عادلة ، وأن هذه القضية سوف تنتصر ... حتى لو لم تكن هناك الآن علامات قريبة أو ميسورة تدل على هذا النصر المنتظر ..

على أن فى شعر محمود درويش بعض العيوب والأخطاء الفنية المختلفة ، وهذا ماسوف نتعرض له فى فصل آخر من هذا الكتاب

الغموض
والتصوف

يستحق أحدث ديوان أصدره محمود درويش فى يونيو ١٩٧٠ أن نتوقف أمامه بعض الشىء ، فهذا الديوان يجسد لنا آخر مرحلة توصلت اليهـا شاعرية محمود درويش ، فبين سنة ١٩٦٠ حيث صدر الديوان الأول للشاعر وهو ديوان « عصافير بلا أجنحة » الى سنة ١٩٧٠ حيث صدر الديوان الأخير له وهو « العصافير تموت فى الجليل » رحلة فنية خصبة عمرها المادى عشر سنوات وعمرها الفنى أكثر بكثير من عشر سنوات . فقد مر محمود درويش فى خلال هذه الرحلة بدرجات متعددة من النمو والتطور .. بدأ فى طفولته الفنية يكتب الشعر بصوت صارخ وتعبير مباشر وصور مزخرفة وألفاظ براقة ... كنا نشعر فى تلك المرحلة بكل ألاعيب الطفولة فى شعر محمود درويش .. انه ــ فى شعره الأول ــ كالأطفال يدب بأقدامه ليشعرنا أنه موجود ... وهو يلبس الثياب المزركشة ويميل الى الألوان الزاعقة ، انه هنا كالأطفال يريد كل مايبهر الأنظار ويشد انتباه العابرين . ولكن محمود يتطور من طفولته تلك ليعيش فى جو رومانسى حالم أكثر رقة وعذوبة وشفافية ، ثم يتطور من مرحلة الرومانسية الى الرمز الذى لا يسرف فى الغموض والتعقيد ، وتمتلىء قصيدته بنضج التكوين والتفكير ويبتعد عن الصخب والتعبير المباشر وعن كل ما يتصل بفن الطفولة أو فن المراهقة . وتبرز فى أشعاره مواقف انسانية خصبة ونماذج من البشر تدخل قلوبنا لتملأنا ايمانا بقضاياها التى هى فى آخر الأمر قضية واحدة ... قضية الانسان المظلوم والعدل الضائع والأرض المسروقة فى فلسطين .

فاذا وصلنا بعد هذه الرحلة الى ديوان « العصافير تموت فى الجليل » فاننا نلتقى بأرقى درجات الشعر عند محمود درويش . وقد حرص الشاعر

فى هذا الديوان أيضا على أن تكون « العصافير » فى عنـوانه . كانت عصافير ديوانه الأول بلا أجنحة ، فهى لا تقوى على الطيران ، أما عصافيره الجديدة فانها تموت فى الجليل ، والجليل هنا ـ جزء من فلسطين ولكنها أيضا رمز للكل ... لفلسطين المحتلة .

ماذا نجد فى هذا الديوان ؟ ... ان أهم ما نلتقى به فى هذه المجموعة من القصائد هو التركيز الشعرى الدقيق ، لم يعد الشاعر هنا يسـمح للكلمات باغرائه ، انه يختار وينتقى بدقة ، حتى تصبح الكلمات القليلة مليئة بالشعر الكثير ، ولنقف مثلا أمام هذا المقطع من قصيدة « غريب فى مدينة بعيدة » حيث يقول الشاعر :

عندما كنت صغيرا
وجميلا
كانت الوردة دارى
والينابيع بحارى
صارت الوردة جرحا
والينابيع ظمأ

اننا لا نجد هنا أى استطراد أو محاولة للتزويق والزخرفة ... انه مقطع شعرى ملىء بالتركيز الدقيق ، فالشاعر يحكى لنا حزنه وحزن شعبه فى كلمات قليلة ولكنها غنية بالايحاء الشعرى ... العالم الجميل الذى كان يعيش فيه طفولته تحول الى فردوس ضـائع .. الورود فيه جـراح ، والينابيع ظمأ . كانت الأشـياء الصـغيرة كبيرة فى الماضى وغنية وخصبة ، فالوردة دار وعالم ودنيا بأكملها ، والينبوع الصغير بحر . ففى الحياة السعيدة الحرة المطمئنة تكبر الأشـياء وتتسع الدنيـا وتصبح الأوراق أشجارا ، والهمسة سيمفونية ، وقطرات الماء أنهارا متدفقة . ولكن الألم والمرارة يقتلان كل شىء ويترجمانه الى لغة أخرى مختلفة فالورود الكثيرة تتحول الى أشواك جارحة والمياه المتدفقة تعنى ألوانا من الظمأ القاتل ...

ان قصة محمود درويش وشعبه مكثفة ومركزة أشد التركيز فى هذا المقطع الشعرى المكون من كلمات قليلة .

وفى قصيدة « أغنية لم يلحنها ميكس تيودوراكس » ... ذلك الموسيقار اليونانى الذى اعتقلته السلطات العسكرية فى أثينا ... فى هذه القصيدة يصور لنا الشاعر اختناق أثينا فى ظل الحكم العسكرى الاستبدادى :

فى كل أمسية نخبىء فى أثينا
قمرا واغنية ، ونؤوى ياسمينا

قالت لنا الشرفات :
لا منديله يأتى
ولا أشواقه تأتى
ولا الطرقات تحترف الحنينا
نامى ! هنا البوليس منتشر
هنا البوليس ، كالزيتون ، منتشر
طليقا فى أثينا

... ...

الحب ممنوع
هنا الشرطى والقدر العتيق
تتكسر الأصنام ان أعلنت حبك
للعيون السود ،
قطاع الطريق
يتربصون بكل عاشقة
أثينا ... يا أثينا ... أين مولاتى ؟
ـــ على السكين ترقص
جسمها أرض قديمة
ولحزنها وجهان :

وجه يابس يرتد للماضى
ووجه خاض فى ليل الجريمة
والحب ممنوع
هنا الشرطى . واليونان عاشقة يتيمه
غدها وموعدها شراع ضاع فى الماضى
وحاضرها وليمة
لعصابة تأتى ... وقطاع الطريق !

هنا شاعرية تعرف معنى التركيز الدقيق ، وتكثيف الايحاءات الفكرية والوجدانية الكبيرة العميقة فى كلمات قليلة وصور دقيقة راقية . ان المدينة المختنقة هنا ، والتى ليست هى أثينا وحدها ، بل هى رمز لكل أرض مجروحة ... هذه المدينة بأحزانها وهمومها تطل علينا بوضوح وقوة من خلال الصور التى يملأ بها الشاعر قصيدته ، يكفى أن نقرأ مطلع القصيدة حتى نتصور الرعب الكبير الذى يقبض على روح المدينة ويملأها بالحزن والقهر .. « فى كل أمسية ، نخبىء فى أثينا قمرا وأغنية . ونؤوى ياسمينا ».. فكل شىء جميل هو متهم من بين المتهمين فى أثينا : القمر والأغانى والياسمين . واذا كان كل هذا الجمال خائفا ومقهورا فى تلك المدينة ... اذن فالمدينة كلها مقهورة بكل من يعيش فوقها من البشر . والصورة تتضح لنا وتضىء أمامنا بخطوط وظلال أخرى دقيقة عميقة : « .. قطاع الطريق يتربصون بكل عاشقة » و « الحب ممنوع . هنا الشرطى .. واليونان عاشقة يتيمة » . كل هذه الصور تغنينا عن مئات الكلمات والصور وتغنينا عن أى استطراد أو أى شرح آخر للاضطهاد السياسى فى اليونان أو فى أى أرض محاصرة مظلومة . ان العشاق فى العادة يهمسون ، وهم يحملون على وجوههم قلق الهوى وهم العاطفة ... ولكن هذه المظاهر كلها تبدو عند محترفى الاستبداد السياسى نوعا من التآمر والتمرد ، فكل هامس متآمر ، وكل مهموم خارج على النظام ولذلك فهم ضد العشق ... ضد الحب . انهم

لايعرفون العاطفة ، ولذلك فهم يتربصون بكل انسان قلق مهموم ... ومادام قطاع الطريق هؤلاء يتربصون بكل عاشقة فان كل شيء في المدينة سيء ورديء وخارج من الحياة والجمال والاشراق والبهجة .. وتلك هي أثينا ، أو فلسطين ، أو أنجولا أو أي وطن آخر مغلوب على أمره .

وعندما يريد الشاعر في قصيدة أخرى أن يصور يوم الانتصار الذي ينتظره وينتظره معه شعبه وتنتظره المدينة المقهورة والحبيبة الحزينة .. عندما يصور لنا هذا اليوم فانه يقول في كلمات قليلة مليئة بالايحاء والتركيز والنبض الانساني :

عندما نرجع كالريح
الى منزلنا
حدقي في جبهتي
تجدي الورد نخيلا
والينابيع عرق
تجديني مثلما كنت
صغيرا
وجميلا

فالمنزل هنا هو الوطن ، والعودة الى المنزل هي يوم الانتصار والتمرد على الحزن والقهر ، والعودة كالريح تعني العودة بالثورة والعنف لا العودة بالابتهالات والآمال والأماني والتوسلات ، والورد الذي يتحول الى نخيل هو الجمال الذي يتحول الى ظل وطعام للفقراء العائدين ، وينابيع العرق هي كل قطرة تسقي الأرض أو تسقي الظامئين .. وهي قطرة ماء لم تهبط على الناس كما تهبط المصادفات والمفاجآت بل جاءت بالعمل والتعب والجراح .. وفي هذا اليوم المنصور « تجديني مثلما كنت صغيرا وجميلا » ... ففي يوم النصر على القهر يعود الانسان الى براءته وطفولته وتعود الدنيا الى وسامتها وعذوبتها وتبدو الأشياء كلها في جمال الطفولة وبكارتها

الحلوة النبيلة .

انها كلمات قليلة وصور مركزة ... ولكن ما أغناها بالشعر والايحاء الوجدانى العميق .

هذا التركيز الشديد الذى تمتلىء به قصائد ديوان « العصافير تموت فى الجليل » هو الذى يعطى لهذا الديوان درجة عالية من الغنى الشعرى والخصوبة الفنية . ففى كلمات قليلة وصور دقيقة يحملنا الفنان الى عالم شعرى واسع خصب ملىء بالرؤى والأحلام والهموم والمعارك والمشاعر الانسانية الأصيلة .

على أن هذا التركيز ليس هو وحده الذى يعطى لشاعرية محمود درويش فى ديوانه الأخير قيمته وأهميته ونضجه الكبير ، فهناك أيضا نوع خاص من « الغموض » فى هذا الديوان ... انه ليس الغموض السابق الذى نجده عند محمود درويش فى مرحلته الرمزية والذى نجد خير نموذج له فى ديوانه « آخر الليل » .. كلا ، هنا درجة أعلى من الغموض ... الضوء هنا أكثر خفوتا ، والعالم هنا خال من «الأدلاء» الذين يكشفون لنا الطريق .. كل من يدخل هذا العالم عليه أن يكتشفه بنفسه ، وليس هناك فرصة للاكتشاف عن طريق الحواس ... فالعين لا تكشف الطريق ، ولا القدمان تمشيان فى منعطفات معروفة ، كل شىء هنا يعتمد على الاحساس الوجدانى ، على الحدس والبصيرة ... ولابد للانسان لكى يفهم هذا العالم ويتجاوب معه ويقرأ لغته واشاراته ورموزه ، أن يكون نقيا متجردا الى حد كبير من المنطق العادى ، والصور المادية العادية ... على الانسان هنا أن يرى كل شىء ولو كان الظلام دامسا ، وعليه أن يصل الى هدفه بلا دليل ، وعليه أن يفهم لغة الصمت ، وأن يبتهج وينطلق بمشاعره الى حالة من حالات التجلى الكامل ... ولن يتم له شىء من ذلك الا بقسوة تدريبه لنفسه على النقاء والصفاء .

هذا هو عالم محمود درويش فى « العصافير تموت فى الجليل » ...

وهذا مايقودنا الى معنى آخر ، هو أن محـمود فى هذا الديوان لايقف عند حدود الشاعر الثائر الذى عرفناه من قبل ... انه هنا : صوفى ، يعيش فى عالم التصوف ، وتتراءى له أحلام المتصوفين وخيالاتهم الغامضة الرائعة التى لايراها الا من صفيت بصيرتهم وتطهرت وتخلصت من حدود الحواس العادية .. حاسة اللمس والبصر والسمع والتفكير المنطقى العادى ... هنا المادة غير مرئية والأصوات غير مسموعة ، والنور قابع فى قلب الظلام ، والبهجة الكاملة تنطلق من قلب الهم والحزن والمرارة ... فمن يقوى على هذا العالم غير المتصوفين ؟!

وهذه الصوفية عند محمود درويش ليس معناها التجرد من قضيته ، بل انه متصوف يحمل قضيته على كتفيه .. انه متصوف من أجل قضيته وفى ميدان هذه القضية . ان المتصوفين الدينيين يصلون الى حالات الوجد بعد أن يحسوا احساسا كاملا بأن المنطق العـادى لا يكفى لتفسير العـالم عندهم ، وبأن الحواس العادية لاتكفى لتبرير الوجود والأشياء ... انهم لا يقبلون ادراك عظمة الكون والخالق بالعقل ، ولا يستطيعون استيعاب التعقيد الذى تمتلىء به هـذه الدنيا من خـلال الحواس . ولذلك فهم ينطلقون من الأسر .. فلا يلتزمون بالحواس العادية ولا بالمنطق العـادى ويبدأون فى ربط أنفسهم بحالة من حالات « الوصال الوجدانى » العميق مع كل شىء خفى فى هذه الدنيا ... ويحسون بعد أن تحرروا أنهم فهموا أكثر وعرفوا أكثر ووصلوا الى يقين لم يصلوا اليه فى دنيا العقل العـادى والحواس العادية .

تلك هى نفسها الحالة الصوفية التى يعبر عنهـا محمود درويش ، بل ويعيشها فى ديوانه « العصـافير تموت فى الجليل » ... انهـا صوفية تعتمد على منطق مشابه لصوفية المتدينين ، فالواقع الذى يعيشه الشاعر فيه كثير من الصعوبات والعقبـات ، وربما لو استسلم الشـاعر للمنطق العادى ، فانه سوف ينتهى الى اليأس والاستسلام ... كيف يعود شعبه

الفلسطينى الى أرضه بعد أن خرج وتشرد وتمزق ؟ كيف تنتهى اسرائيل بعد أن حققت لنفسها كل هذه القوة ؟ .. كيف .. كيف .. كيف .. الخ هذه « الكيفات » الكثيرة العديدة . ولكن الحياة لا تمضى بهذه الصورة فهناك شيء أكبر من المنطق وأعمق منه . وسوف يجد السياسيون والمفكرون تسميات عديدة هنا ... سوف يقول البعض ان هناك شيئا أكبر وأبعد من الوقائع هو منطق التاريخ وحركة التاريخ . ولكن الشــاعر يترك المنطق العادى ويتجاوز الظــواهر الخارجية والتسميات المختلفــة الى نوع من « الصوفية الثورية » ... فهــو يعيش بهذا الايمان الغــامر بأن قضيته منتصرة لأنها عادلة ، وهو لا يعبأ الا ببرهان واحد هو « عدل قضيته ».

هذا الغموض الصوفى عند محمود درويش فى ديوانه الجديد تتفجر من خلاله ينابيع رائعة للشعر ، وفى قصيدة « ضباب على المرآة » نلتقى بموقف من هذه المواقف الصوفية العميقة العذبة ، ولا نكاد نعثر فى هذه القصيدة على صورة تخضع للمنطق العادى ، انها صور مبعثرة متناثرة ممزقة حائرة محيرة يجمعها جو واحد هو الجو الصوفى الغامض ، وتربط بين هذه الصور جميعا روح هذا الصوفى الذى يعيش فى حالة من حالات « الوجد » وما يمنحه هذا الوجد للصوفى من عذاب وسعادة فى وقت واحد . وكل مقطع من مقاطع هذه القصيدة ينتهى بكلمة واحــدة هى « ... وآه » ... وهذه التأوهات تملأ القصيدة بروح شفافة رقيقة من الشكوى والأنين والحنين ... وهى مشاعر تقترن بصعود الشــاعر الى مستوى أعلى من الادراك الروحى والوجدانى للتجربة التى يعبر عنها .

يقول محمود فى هذه القصيدة الصوفية :

نعرف الآن جميع الأمكنة
نقتفى آثار موتانا
ولا نسمعهم
ونزيح الأزمنة

عن سرير الليلة الأولى ، وآه ..
فى حصار الدم والشمس
يصير الانتظار
لغة مهزومة
أمى تنادينى ، ولا أبصرها تحت الغبار
ويموت الماء فى الغيم ، وآه ...

وفى مقطع آخر من هذه القصيدة يقول الصوفى الشاعر :
بيتك الان له عشر نوافذ
وأنا أبحث عن باب
ولا باب لبيتك
والرياح ازدحمت مثل الصداقات التى
تكثر فى موسم موتك
وأنا أبحث عن باب ، وآه ...

فالصور هنا وفى كل أجزاء القصيدة لا تجمعها الا هذه الرؤية الصوفية للخلاص من المحنة ، وللحياة فى الواقع الملىء بالآلام والجراح ... نآه المجروح الصامد تتكرر بعد كل مقطع والصور تزدحم على وجدانه من هنا وهناك ، وهى صور خالية من الوضوح ، تولد كلها من عالم شعرى غامض له منطقه الخاص . ولكن الاحساس العام الذى نخرج به هو الاحساس الوجدانى الصوفى ... احساس الاغتراب فى العالم الواقعى ، والانتساب الى عالم آخر هو حلم الشاعر بواقع جديد يسوده العدل والطمأنينة .. ولكنه ليس ميسورا فى اليد وليس ممكنا من خلال الحواس العادية ... فليولد اذن هذا العالم الجديد من دنيا التصوف الثورى الذى لا يعبأ بالحدود أو القيود ولا يقيم وزنا لوقائع الزمان والمكان .

والصوفى مستبشر دائما ومتيقن مما يراه حتى لو كانت رؤاه غائبة عن الآخرين ، والصوفى أيضا لا يعبأ بما يعترى الجسد من عوارض مادية

حتى ولو كان الموت نفسه هو أحد هذه العوارض ... فالوجود الحقيقى أبقى من كل العوارض المادية ... ان روح الأشياء والكائنات باقية ... والموت انتقال من حال الى حال وهو حلول من شيء فى شيء آخر ...

وفى قصيدة بعنوان « آه ... عبد الله » يحدثنا الشاعر عن حياة شهيد من الأرض المحتلة ... وحياة الشهيد ليست فى حياته ولكنها فى مـوته ، فهو بعد أن مات عاش ، وبعد أن اختفى ظهر وتكلم ونطق بأقوال لا تفنى ولا تزول :

قال عبد الله للجلاد :
جسمى كلمات ودوى
ضاع فيه الرعد
والبرق على السكين ،
والوالى قوى
هكذا الدنيا ...

وأنت الآن ياجلاد أقوى
ولد الله ...
وكان الشرطى
عادة لا يخرج الموتى الى النزهة
لكن صديقى
كان مفتونا بها ،
كل مساء

يتدلى جسمه كالغصن ، من كل الشقوق
وأنا أفتح شباكى
لكى يدخل عبد الله
كى يجمعنى بالأنبياء

هذه كلها رؤى متصوف شاعر ، فالميت يتنزه ، والشهيد عبد الله يجمع

شاعرنا بالأنبياء ، لأن الشهيد يرتقى من منزلة البشر العاديين الى منزلة أصحاب الرسالات ، وهو يدخل من الشباك كالعطر أو كالنسيم ، لأنه متحرر من قيود المادة وأشكالها ... والواقع فيه شرطى ووال ... وفيه الله أيضا . انها كلها صور لايضبطها منطق العقل العادى ، ولكنها صور يلهمها : الوجد والتصوف والانطلاق من الرؤى التى تجاوزت حدود الكثافة المادية الى عالم الشفافية حيث يرى المتصوف كل ما يختفى فى هذا العالم من كنوز .

تلك هى روح الديوان الأخير لمحمود درويش : « العصافير تموت فى الجليل » .. وهى روح شاعريته فى مرحلتها الجديدة ، انها روح التركيز البالغ الدقيق والغموض الشفاف والصوفية التى ترى ماتراه العيون والتى تتجاوز عالم الظاهر الى عالم الباطن والخفاء والصفاء والسر والكشوفات الروحية الخصبة .

مع
الطبيعة

منحت الطبيعة فلسطين جمالا لا شك فيه ، وهناك بيت مشهور للشاعر علي محمود طه لعـله لا ينطبق على بيئة طبيعية كمـا ينطبق على البيئة الفلسطينية ، وفى هذا البيت يقول الشاعر :

لا تقل أخصب الثرى

فهنا أورق الحجر •••

فالحجر فى فلسطين ليس حجرا عقيما لا ينبت ولا ينجب بل هو حجر أخضر مثمر ، تنبت فيه أشجار الزيتون ، وتورق على قمم جباله أشجار أخرى تتلألأ باللون الأخضر الساحر ، أما الأراضى الرملية فى فلسطين ، ففيها تنبت أشجار البرتقال والليمون ، حيث يمتلىء الهواء الفلسطينى بعطر رائع يملأ القرى ويتسلل الى المدن ••• وهكذا •••• فقد أعطت الطبيعة هذه البلاد كثيرا من لمساتها المليئة بالجمال والسحر والاشراق •

وفى ظل الطبيعة الفلسطينية ينطلق خيال الانسان الى عالم من الشعر النقى الصافى ، ولذلك لم يكن من الغريب أن تكون هذه الأرض بالذات مهدا لكثير من الشعراء والحكماء والأنبياء ، فالطبيعة الجميلة المتنوعة تملأ القلب بالعواطف الكبيرة وتدفع العقل الى تأملات غنية خصبة ••• ومن بين أحضان الطبيعة الفلسطينية خرجت مزامير داود ، وهى نوع من الشعر الذى تمتزج فيه العـاطفة الحارة بالحكمة العـاقلة ، وعلى أرض فلسطين أيضا ولدت تأملات سليمان الحكيم فى الكون والانسان ، وعلى نفس الارض ظهر نشيد الانشاد الذى سجلته التوراة ، ونشيد الانشاد هو أروع قصيدة غزل عرفتها الآداب الانسانية القديمة ، ويرى كثير من الباحثين أن هذه القصيدة الفريدة هى فى ظاهرها غزل بينما هى فى باطنها تصوف عميق

وشعر دينى أصيل . وعلى الأرض الفلسطينية أيضا ولد المسيح وولدت كلماته المليئة بالعذوبة والصفاء والروح الانسانية العميقة الشفافة .. فكأن الله قد جعل فلسطين بيئة طبيعية تنبت الليمون والبرتقال والزيتون كما تنبت الشعر والحكمة والجراح والأحزان الكبيرة .

وأى شاعر حساس يولد فى الأرض الفلسطينية لابد أن يتنبه بقلبه وعقله معا للطبيعة ، ولا يمكن لمثل هذا الشاعر أن يتجاهل البحر والرمل والصخور الخضراء والليالى القمرية الساحرة وحفيف الأوراق وعطر البرتقال والليمون ... لا يمكن للشاعر الموهوب الا أن يصغى الى هذه السيمفونية ويتأثر بها والا كان هناك نقص واضح وفادح فى ذوقه واحساسه بالحياة .

وشاعرنا محمود درويش ، ابن قرية البروة الفلسطينية هو شاعر حساس متفتح القلب والعقل ، وهو الى جانب ذلك شاعر محب لوطنه حبا صوفيا عميقا ، والمحب العاشق هو أول القادرين على الاحساس بجمال حبيبه ، واكتشاف هذا الجمال . ولذلك فنحن نجد عند محمود درويش احساسا عميقا بالطبيعة الفلسطينية التى تنعكس على شعره بقوة ووضوح .

ولا شك أن نشأة محمود درويش قد عمقت احساسه بالطبيعة ، وعلاقته الوجدانية معها ، ذلك لأنه ولد فى قرية فلسطينية ، وعاش فترة طويلة من صباه فى هذه القرية ، والذين يعيشون فى القرية يحسون بالطبيعة أكثر من أهل المدينة ، حيث تلعب الطبيعة فى المدينة دورا ثانويا فى حياة الانسان ، وخاصة مع انتشار وسائل الحياة الحديثة التى تجعل من المدينة العصرية كيانا صناعيا لا طبيعيا ، فحيث يجد انسان القرية متعة تحت ظلال الأشجار وفى النسمات التى تهب منطلقة لا تعوقها عمارات شاهقة ولا زحام معقد ، نجد أن أهل المدينة يبحثون عن الأماكن المكيفة الهواء بأساليب صناعية ، ويتوارى القمر فى سماء المدينة أمام الأنوار والأضواء الصناعية ، ولكن القمر فى القرية يلعب دور البطولة ، ولذلك فأغلب الشعراء الذين

يعبرون عن الطبيعة ويصورونها فى أشعارهم هم من أبناء الريف ، الذين عاشوا طويلا مع الطبيعة فتسربت الى نفوسهم واستطاعت أن تتمكن منهم كل التمكن .

على أن محمود درويش لم يقدم الينا فى شعره وصفا مجردا للطبيعة ، فهو من هذه الناحية بعيد تمام البعد عن « شعر الطبيعة » بهذا المعنى . فهناك شعراء كثيرون جعلوا الطبيعة موضوعا لهم ، يصورونها ، ويكتشفون أسرارها ، ويعبرون عن جمالها . ان الطبيعة فى شعر هؤلاء هى غاية فى ذاتها . ولكن محمود درويش لم يتخذ من الطبيعة فى شعره موضوعا مستقلا ، ولم يجعل منها غاية جمالية يستغلها فى فنه الشعرى : مصورا لها مفتونا بها معبرا عما فيها من عناصر متناسقة أو غير متناسقة ، فالموضوع الأول والأكبر عند محمود درويش ، هو تجربته الانسانية الوطنية ، ومن خلال هذه التجربة تتحدد نظرته الى سائر الموضوعات الأخرى . وعلى رأس هذه الموضوعات التى يستغلها محمود درويش استغلالا فنيا كبيرا للتعبير عن تجربته تقف الطبيعة فى المقدمة . ان كل شعر محمود درويش تقريبا ينبع أولا وأخيرا من تجربته كفلسطينى عربى عاشق لوطنه متأثر الى حد بالغ العمق والحرارة والحدة بمأساة هذا الوطن . لقد نطق محمود درويش بالشعر عندما أحس بالمأساة الفلسطينية ولمسها بوجدانه وعقله معا . هزته المأساة هزا عنيفا وملأت عليه يقظته ورؤى نومه ، وهاله مافيها من عنف وقسوة ، فأصبحت مشاعره تغلى برفض ماجرى من ناحية وبالاصرار على تحقيق العدل الكامل بالنسبة لهذه القضية المظلومة فى نفس الوقت .

هذه هى نفسية محمود درويش التى يصدر عنها كل انتاجه الفنى الغزير الخصب .

فالرؤية الوجدانية الأساسية عند محمود درويش هى رؤيته لمأساة وطنه وهى الرؤية التى تسيطر عليه سيطرة كاملة ، والتى يرى من خلالها

كل الموضوعات الأخرى وعلى رأسها « الطبيعة » • فهو يستخدم الطبيعة فى شعره ليعبر من خلالها عن شىء أبعد منهـا هو رؤيته الخاصة لمأساة الوطن والانسان ، وهى الرؤية التى تسيطر عليه تمام السيطرة •

ومن النشأة الأولى لمحمود درويش فى احدى القرى الفلسطينية ، ومن الرؤية التى تسيطر على وجدانه جاءت أول ظاهرة نلتقى بها فى كل مايكتبه عن الطبيعة • فالطبيعة فى شعر محمود درويش ليست هى الجمال المجرد ، فهناك ارتباط دائم بين جمال الطبيعـة وبين حاجة الانسان ومطـالبه • فالفلاحون لا يفضلون « الورد » على « القمح » • ولا شك ان الباحثين عن الجمال المجرد سوف يفضلون الوردة الواحدة بعطرها وجمالها على آلاف السنابل . ولكن القروى الذى يعيش فى قلب الطبيعة ، ويدرك احتياجات الانسان فى قريته ، انما يبحث عن معنى آخر للجمال ••• هناك تكون السنبلة أجمل من الوردة . لأن السنبلة تمده بحبة القمح التى يعيش منها ويواصل بفضلها حياته . ويبدو صوت الساقية أعذب من خرير أى مياه أخرى ، لأن صوت الساقية يرتبط بعملية كبيرة هى نمو الزرع وازدهار الثمار • يقول محمود درويش فى قصيدة له عنـوانها « عن الصمود » :

انا نحب الورد
لكنا نحب القمح أكثر
ونحب عطر الورد
لكن السنابل منه أطهر

ان الشـاعر يعبر فى هذه الأبيات تعبيرا صريحا عن معنى الطبيعة فى نظره ، فمعناها الأساسى يرتبط بعلاقتهـا مع الانسان ، أى ان الجانب الانسانى هو الذى يعنيه أولا وقبل كل شىء . ففى عالمه ــ كفلسطينى ــ حيث الانسان العربى ضائع ومهدد بألا يجد لقمة خبز لأولاده ، تـكون السنابل أكثر جمالا وسحرا وطهرا من أجمل ورود الأرض . ان سـنبلة

القمح هى التى تملك أن تمنح الأطفال والرجال والنساء قدرة على الاستمرار فى الحياة والتغلب على أحزانهم وفجائعهم الكثيرة ، انها تملك القدرة على أن تمسح الدموع والأحزان وتحمل الفرح والابتسام الى القلوب . ان المعنى الانسانى لسنبلة القمح فى مثل هذه الظروف القاهرة العصيبة التى يعيش فيها العربى فى فلسطين المحتلة هو الذى يعطيها قيمتها وجمالها وروعتها فى نظر الشاعر . ولنتصور قلب أم أو قلب أب وأمامهما طفل يتضور جوعا .. أى سعادة فى الدنيا أعلى وأعمق من تلك السعادة التى تحملها الى قلبيهما سنبلة القمح ؟.. ان هذه السنبلة بالنسبة اليهما هى كل الجمال وكل السعادة . انها أروع مافى الحياة .

وهناك شىء آخر يرتبط بسنبلة القمح ويزيد فى معناها الانسانى ، فهذه السنبلة قد نمت ونضجت بعد أن وقف الانسان وراءها يكدح ويكافح ويمنحها من جهده وعرقه . فالسنبلة الواحدة تحمل معها قصة كفاح انسانى حقيقى . ومن هنا يرى محمود درويش صورة الانسان وكفاحه فى هذه السنبلة البسيطة . ذلك لأن الذى يعنى هذا الشاعر هو انسان بلاده ، وما أصابه من محنة كبيرة وأسى جارف مرير . فالشاعر يحمل مأساة هذا الانسان فى قلبه ، ولاتهزه ظاهرة من ظواهر الطبيعة الا اذا كان لها علاقة بهذا الانسان ، سواء كانت هذه العلاقة هى احتياج الانسان الى هذه الظاهرة الطبيعية ، أو كانت تشير الى جهد الانسان الكامن وراء هذه الظاهرة الطبيعية . ومن هنا كان تفضيل الشاعر لسنبلة القمح على الورد وعطر الورد .

وليست المسألة هى أن الشاعر هنا يحمل نظرة « نفعية » ينظر بها الى الطبيعة ، بمعنى أنه لايحب من ظواهر الطبيعة الا ماهو مفيد ونافع .. كلا .. ليست القضية هى تفضيل « المنفعة » على « الجمال » فالقضية على حقيقتها هى تفضيل النظرة الانسانية على النظرة المجردة . ومحمود درويش لا يقبل النظرة المجردة ، ولا يحتملها .. لأنه انسانى تهمه التجارب

الانسانية فى نظرته الى كل ظواهر الحياة . أهم مايعنيه ويستولى على عواطفه واهتمامه هو الانسان ، وانسان بلاده المجروح الكادح المحزون على وجه الخصوص .

يقول محمود درويش فى نفس القصيدة التى تحدث فيها عن الورد والقمح وهى قصيدة « عن الصمود » ، وفى هذه الفقرة بالذات يخاطب الناس فى بلاده :

فاحموا سنابلكم من الاعصار
بالقدم المسمر !
هاتوا السياج من الصدور
من الصدور فكيف يكسر ؟ ؟
النار تلتهم الحقول الضارعات
وأنت تسهر !
اقبض على عنق السنابل
مثلما عانقت خنجر
الأرض والفلاح والاصرار
قل لى : كيف تقهر
هذى الأقانيم الثلاثة
كيف تقهر ؟

وهكذا يرى الشاعر أن مصير وطنه ، ومصير الانسان فى هذا الوطن مرتبط أشد الارتباط بالدفاع عن السنابل ، وفى معانقتها كأنها خنجر يحمى به الانسان نفسه من التحديات التى يوجهها اليه عدو شديد القسوة والوحشية .

ويؤكد محمود درويش على ايمانه أولا وقبل كل شىء « بالعنصر الانسانى » فى الطبيعة وذلك فى قصيدة أخرى بعنوان « الورد والقاموس» وهى احدى قصائد ديوانه الرابع « آخر الليل » ، وقد كتب هذه القصيدة

بعد هزيمة ٥ يونيو التى لم تدفع به الى اليأس كما حدث لكثير من المثقفين العرب ، بل دفعته الى مزيد من الايمان بقضيته :

وليكن ..
لابد لى أن أرفض الورد الذى
يأتى من القاموس
أو ديوان شعر .

ينبت الورد على ساعد فلاح
وفى قبضة عامل

ينبت الورد على جرح مقاتل
وعلى جبهة صخر ...

وفى هذه الأبيات يؤكد محمود درويش أنه يرفض ذلك الشعر المزيف الذى يهتم بجمال الطبيعة اهتماما شكليا دون أن يعرف حقيقة ما يعانيه الانسان .

فالشاعر الذى يستمد الصور الجميلة من القواميس والكتب والخيالات المجردة انما يكذب على الفن والناس ، ذلك لأن الجمال الحقيقى انما يعيش مع كفاح الانسان ونضاله ، فالورد الحقيقى انما ينبت على ساعد الفلاح أو فى قبضة عامل أو على جرح مقاتل أو على جبهة صخرة .. والشاعر هنا يرفض الجمال الخارجى الزائف المفتعل ، الذى لا يهتم بالحقيقة الانسانية الأصيلة ، والشاعر هنا أيضا يهاجم هؤلاء الذين يحاولون خلق صور مزركشة مزخرفة للحياة الحقيقية المليئة بالمعاناة ، فان مثل هذه الصور تزوير فى تزوير ، والورد الذى تقدمه الينا هذه الصور لا يعطينا عطرا وانما يعطينا سما زعافا لا جمال فيه ولا صدق ولا حياة .

وعندما يقول الشاعر « انه يرفض الورد الذى يأتى من القاموس » ، فانما يقصد بذلك أنه يرفض الاعتماد على البلاغة القائمة على الخيال

والمستمدة من الكتب ، لأنه يؤمن بالفن الذى ينبع من الحياة ومن الواقع، من تجربة الانسان .

وفى قصيدة أخرى بعنوان « موال » من ديوانه « آخر الليل » يؤكد محمود درويش على العنصر الانسانى فى الطبيعة حيث يقول :

اذا خسرت الصديقة
فقدت طعم السنابل
وان فقدت الحديقة
ضاع حلم الحقيقة !

فوجود الانسان هو الذى يعطى للطبيعة قيمتها ومعناها وطعمها ، واذا اختفى الانسان اختفى معنى الطبيعة عند الشاعر ، وربما كان العكس صحيحا أيضا ، فلقاء الطبيعة والانسان هو الذى يخلق الحركة والحياة والتوهج . ولابد أن نلاحظ فى هذه الأبيات الأخيرة ذلك التعبير الجديد الذى يقدمه الشاعر وهو تعبير « حلم الحقيقة » ، وليس هذا التعبير تصغيرا للحقيقة أو تقليلا من شأنها ، ولكن الشاعر يرى فى الحقيقة قوة مسيطرة عليه .. وكثيرا مايعبر محمود درويش فى شعره — كما أشرنا من قبل — عن سيطرة حلم كبير على حياته النفسية ، وهو حلم غير عابر ، انه حلم لايفارقه أبدا ، وهو يعيش فى هذا الحلم دائما ولاينفصل عنه ، والحلم هو حلم الحرية والخلاص من أزمة شعبه وأرضه والقضاء على التمزق الذى يعانيه الوطن ويعانيه الأهل فى نفس الوقت . وهكذا .. عندما تتحول الحقيقة الى حلم ثابت قوى فانها تكبر بذلك وتسيطر على روح الشاعر ونفسيته سيطرة كاملة .

ولعلنا نزداد احساسا بالمعنى الانسانى الذى يراه محمود درويش فى الطبيعة عندما نقرأ هذا البيت فى قصيدة « أغنية ساذجة عن الصليب الأحمر » :

عندما تفرغ أكياس الطحين

يصبح البدر رغيفا فى عيونى
ثم يقول الشاعر فى نفس القصيدة :
يا أبى ! هل غابة الزيتون
تحمينا اذا جاء المطر ؟
وهل الأشجار تغنينا عن النار ؟
وهل ضوء القمر
سيذيب الثلج ، أو يحرق أشباح الليالى ؟

فى هذه الأبيات كلها تأكيد لاحساس الشاعر بضرورة الربط بين الطبيعة والانسان . فالقمر يتحول الى رغيف خبز عندما يكون الانسان جائعا . ولا جدوى من غابة الزيتون اذا لم تحم الانسان من المطر ، ولا جدوى من الأشجار اذا لم توفر للانسان نارا فى برد الشتاء . ولا جدوى من ضوء القمر ، اذا كان الانسان يعيش حياة تعيسة لايجد فيها احتياجاته ولايتخلص فيها من مصاعب حياته المادية والمعنوية .

وهكذا فالشاعر يربط ربطا قويا وأساسيا بين الطبيعة والانسان ، ويرى أن الانسان هو الأصل ، وأن العنصر الانسانى فى الطبيعة هو الذى يعطيها قيمتها ومعناها .. ولا قيمة للطبيعة عند محمود درويش بعيدا عن الانسان . فهو ليس من عشاق الطبيعة المجردة ، ولا من عشاق الجمال المجرد .. انه من عشاق الانسان والجمال الانسانى .

هذا هو المعنى الأساسى الأول الذى يملأ شعر محمود درويش فى نظرته الى الطبيعة .

ولكننا نجد للطبيعة معانى أخرى متعددة فى قصائد هذا الشاعر ، وكلها ولاشك مرتبطة بتجربته الانسانية والوطنية التى تتمثل فى مأساة فلسطين

فنحن نجد عند الشاعر الى جانب اهتمامه بانعكاسات المأساة الانسانية فى الطبيعة شعورا عميقا بأن الطبيعة ثابتة لاتتغير أو تزول ، وهذا الثبات فى الطبيعة هو الحقيقة الأساسية رغم كل مظاهر التغير فى التفاصيل الصغيرة ،

فالبحار تتعرض للمد والجزر ، ولكنها لا تزول من الوجود ، والربيع يتلوه الصيف والخريف والشتاء ، ولكن الربيع لابد أن يعود ، والأشجار والازهار والسنابل يمكن اقتلاعها ، ولكنها تتجدد عن طريق بذور قليلة بسيطة . وهذا الثبات فى الطبيعة وراء التغيرات الجزئية والشكلية يخلق علاقة وثيقة بينها وبين الشاعر . فالشعب فى نظر محمود درويش ، مهما تعرض للأزمات والمصاعب فانه لايمكن أن يتلاشى أو يزول ، وقد يتعرض الشعب لمذابح كثيرة ولكن هذه المذابح لايمكن أن تقضى عليه ، فالبذرة الصغيرة تملك فى أعماقها قوة كبيرة ، وكذلك فان الشعب يمكن له أن يسترد حيويته وقوته حتى ولو لم يبق منه الا عدد قليل ومحدود من أبنائه

ان الطبيعة تعطى مثلا كبيرا للقدرة على التجدد والاستمرار مهما كانت العواصف .. يقول محمود درويش فى قصيدة بعنوان « عن انسان » وهى القصيدة التى أشرنا اليها فى فصل سابق :

يادامى العينين ، والكفن !
ان الليل زائل
لا غرفة التوقيف باقية
ولا زرد السلاسل !
نيرون مات ولم تمت روما
بعينيها تقاتل
وحبوب سنبلة تجف
ستملأ الوادى سنابل !

والبيت الأخير بالذات هو الذى يجسد معنى الثبات عن طريق التجدد فى الطبيعة ، وهو المعنى الذى يلتفت اليه محمود درويش ، ويحس أن له مقابلا فى الحياة البشرية ، فالانسان أيضا ثابت فى اطار من التجدد مثل الطبيعة تماما . والسنبلة التي تجف ، يمكن لحبوبها أن تملأ الوادى سنابل وكذلك الشعب الذى يصيبه ما أصاب شعب فلسطين من متاعب ومصاعب

ومآس كثيرة .. هذا الشعب يستطيع أن يتجدد ويملأ الوادى ، ولو لم يبق منه الا عشرات الأفراد الذين أصابهم التعب كما تصاب حبات القمح الصغيرة .. التى تعود فتملأ الوادى سنابل .

ويرتبط بمعنى الثبات فى الطبيعة عن طريق التجدد والتغييرات الجزئيه التى لا تقضى على ظواهر الطبيعة الرئيسية معنى آخر هو أن الطبيعة لا تعرف الموت . فالحبة عندما ندفنها فى الأرض لا تموت وانما تثمر . والشجرة التى تتعرى أغصانها من الأوراق فى الخريف تعود بعد ذلك الى الاخضرار فى الربيع ، والماء يتحول الى بخار ثم ينزل مطرا من جديد . فالطبيعة ــ اذن ــ لا تعرف الموت أبدا . وكل محاولة لقتل الطبيعة تنتهى الى الفشل . والشاعر ــ كعادته ــ يربط بين هذا المعنى الذى يستمده من الطبيعة وبين شعبه ووطنه ، ففيهما قوة الطبيعة ، انهما لايموتان أبدا ، ومهما تعرضا لمظاهر الموت الخارجية فانهما لابد عائدان الى الحياة من جديد . هكذا يؤمن الشاعر ايمانا لا يتردد . وهو يجد فى الطبيعة ما يؤكد له هذا المعنى دائما حيث يقول :

الموت والميلاد فى وطنى المؤله توأمان

ذلك لأن الموت تتبعه الحياة على الفور . فهناك بعث دائم متجدد للشعب مهما كانت المصاعب والظروف القاهرة ... يقول محمود درويش فى قصيدته « رد الفعل » :

سدوا على النور فى زنزانة
فتوهجت فى القلب شمس مشاعل
كتبوا على الجدران رقم بطاقتى
فنما على الجدران مرج سنابل

وهكذا فكلما ضاق الخناق عليه تجدد وازداد اشتعالا وتوهجا ،فالضغط لا يقتله وانما يحييه ، والمصاعب لاتسد عليه الطريق ، وانما تفتح أمامه سبلا واسعة عريضة . ونجد هذا المعنى الكبير الذى يستمده محمود

درويش من ظواهر الطبيعة يتكرر فى كثير من قصائده . ففى قصـيدته « الأغنية والسلطان » يقول :

أخبروا السلطان
ان البرق لا يحبس فى عود ذرة
للأغانى منطق الشمس
وتاريخ الجداول
ولها طبع الزلازل
والأغانى ، كجذور الشجرة
فاذا ماتت بأرض
أزهرت فى كل أرض
كانت الأغنية الزرقاء فكرة
حاول السلطان أن يطمسها
فغدت ميلاد جمرة !
كانت الأغنية الحمراء جمرة
حاول السلطان أن يحبسها
فاذا بالنار .. ثورة !

وهكذا فان الضغوط والعقبات لا توقف حركة الحياة بل تفجرها وتزيدها اشتعالا وقوة . وهذا هو القانون الذى يسيطر على الطبيعة ، وهو بالتالى القانون الذى يسيطر على حياة الشعب كما يتصورها الشاعر وكما يؤمن بها ... وهو قانون لا يعرف الموت ولا يعترف به ، بل هو قانون يقول بأن الحياة أقوى من جميع العقبات التى تتعرض لها .. ولنقـرأ أيضا هـذا النموذج من قصيدة للشاعر بعنوان « ولادة » :

يا أمى
جاوزت العشرين
فدعى الهم ونامى

ان قصفت عاصفه
فى تشرين
ثالثهم
فجذور التين
راسخة فى الصخر .. وفى الطين
تعطيك غصونا أخرى
وغصون !

انه فى هذه الأبيات يقول لأمه : لقد بلغت العشرين فلا تخافى على ... وحتى لو أصابنى مكروه قضى على حياتى فأنت قادرة على العطاء ، مثلك مثل الطبيعة ، والجذور الراسخة تعطى على الدوام غصونا جديدة .. ولعل أمه هنا هى وطنه ، فهو كثيرا مايمزج بين صورة الأم وصورة الوطن . وبهذا المعنى فنحن أمام رؤية لا تعترف بالموت ولا تخشاه ، وتحس أن حياة الوطن مثل حياة الطبيعة : باقية ودائمة ، ولايمكن للموت أن يقضى على الوطن القادر على التجدد ، كما لايمكن للموت أن يقضى على مظاهر الطبيعة القادرة على التجدد .

ومحمود درويش الى جانب ذلك كله يصور لنا الطبيعة وهى تعكس الحالات النفسية التى يمر بها ، فالطبيعة تأخذ منه كما تعطيه .. لقد أعطته ايمانا بالتجدد والقدرة على مغالبة الموت ، وهو يعطيها هنا مافى نفسه ، ففى حالة حزنه نرى الطبيعة حزينة ، وهذه صورة لحزن الطبيعة مع حزن الشاعر يقدمها لنا فى قصيدته « ثلاث صور » :

كان القمر
كعهده ــ منذ ولدنا ــ جامدا
الحزن فى جبينه مرقرق
روافدا .. روافدا
قرب سياج خربة

حر حزينا ... باردا

ففى هذه الصورة « يسقط » الشاعر حزنه على صورة القمر وهذا النوع من « الاسقاط » شائع فى الشعر ، بل وفى كل ألوان الفن ، فما دامت الطبيعة عنصرا يستخدمه الفنان فى بناء عمله الفنى ، فهو يعطيه لون نفسه ، فاذا كان حزينا فهو يعطيها لونا قاتما واذا كان مليئا بالسعادة والفرح فهو يعطيها لونا مشرقا زاهيا . وكما رأينا الشاعر فى القصيدة السابقه يعكس ألوان نفسه الحزينة على الطبيعة ، فهو يعطينا فى قصيدة أخرى ألوانا زاهية متفائلة مشرقة ، وذلك عند مايحس بالفرح والسعادة ، فهو يقــول فى قصيدته « عنوان جديد » :

وحتى القمر
عزيز على هنا
صار أحلى وأكبر
ورائحة الأرض عطر
وطعم الطبيعة سكر
كأنى على سطح بيتى القديم
ونجم جديد
بعينى تسمر

فاللحظة الأولى التى كان فيها القمر جامدا حزينا ، تنساب منه روافد قاتمة تعيسة ، كانت لحظة أسى ويأس ، بينما نجد القمر يكبر ويزداد حلاوة وجمالا ، وتبدو الأرض والطبيعة مثل نفسية الشاعر فى هذه اللحظة المبتهجة المشرقة . فالطبيعة اذن تحمل أحاسيس الشاعر وتجسدها لنا ، وتشاركه فى حالاته النفسية المختلفة فان كان حزينا شاركته الحزن ، وان كان سعيدا شاركته السعادة .

وهذا الاستخدام للطبيعة هو استخدام عادى ، يتكرر كثيرا فى نماذج الشعر الانسانى ، وليس لمحمود درويش فيه تميز خاص على غيره من

الفنانين ، وان كان محمود يحتفظ لنفسه باستقلاله الفنى فى اختيار صوره وتحديد هذه الصور .. حيث يبدو تصويره للقمر فى حالة الحزن وحالة الفرح تصويرا جميلا مليئا بالحيوية الفنية الواضحة .. ففى الصورة الأولى يبدو القمر « جامدا » و « باردا » و « الحزن فى جبينه مرقرق .. روافدا .. روافدا » وهى كلها صور حساسة تستمد عناصرها من عاطفة الحزن وما توحى به هذه العاطفة من ايحاءات مختلفة ، بينما نجد القمر فى الصورة الثانية « صار أحلى وأكبر » .. وهى صورة مستمدة من عاطفة الفرح ، التى تكبر معها الأشياء وتزدهر وتصبح أكثر جمالا وروعة . وفى هـذه الصورة الأخيرة بالذات لمسة من « الطفولة » المشرقة واحساسها بالأشياء فى حالة الفرح والسعادة ، فالقمر « صار أحلى وأكبر » و « .. طعم الطبيعة سكر » و « رائحة الأرض عطر » ... هذا نوع جميل أصيل من الفرح ، انه فرحة الأطفال والشعراء ، فرحة النفس البسيطة التى لا تخفى مشاعرها ولا تضفى عليها أى لون من التعقيد .. بل تصرخ بالبهجة ، كمـا تصرخ بالأسى فى لحظات الحزن والضيق ، وهى هنا شأنها شأن الاحساس الطفولى بالحياة تقيس جمال الأشياء بحجمها المادى الكبير .. فالأطفال كثيراما يقولون عن الشىء الجميل فى نظرهم : انه كبير .

والعودة الى الطفولة وأحاسيسها البسيطة المشرقة الصريحة هى نبع من أصفى ينابيع الشعر ، وهو نبع يعرفه محمود درويش جيدا ، ويشرب منه دائما ويسقى منه أشعاره .. وهو عندما يعود الى أحاسيس الطفـولة ورؤاها ودنياها البسيطة انما يعود بانسانيته الى البراءة والصدق والطهر الكامل والانطلاق والحماس للطبيعة والانسان والحياة . وكبار الشعراء هم الذين يعرفون كيف يشربون من نبع الطفولة الصافى البرىء الملىءبالطهر والنقاء .

واذا تركنا هذا « الاستخدام الذاتى » للطبيعة فى شعر محمود درويش ، فاننا نجد أمامنا صورة أخرى للطبيعة ، فعندما يريد الشاعر أن يصور لنا

« الحرية » كما يفهمها ويحس بها ، فانه لايجد خيرا من صورة الطبيعة وازدهارها كمعادل فنى للحرية ، ففى قصيدة له عن جبال « الأوراس » فى الجزائر يقول :

يا كبرياء الجرح ! لومتنا
لحـاربت المقـــابر
فملاحم الدم فى ترابك
مالها فينـــا أواخـر
حتى يعود القمح للفلاح
يرقص فى البيـــادر
ويغرد العصفور حين يشاء
فى عـــرس الأزاهـر
والشمس تشرق كل يوم
فى المواعيد البـــواكر

ان الشاعر يؤكد هنا أن « الحرية » معناها ازدهار الطبيعة ، فالحرية هى عرس الطبيعة ، وانتصار الجزائر انما يتجسد فى رقص القمح ، وتغريد العصافير واشراق الشمس ، على أن الشاعر لاينسى وهو يصور لنا هذه الصورة أن « عرس الطبيعة » مرتبط أشد الارتباط بالانسان ، ففى قلب هذا العرس الذى يرسمه الشاعر للطبيعة يقف « الفلاح » ، ذلك الكائن الذى تستمد الطبيعة منه معناها وتكتسى بأثواب الفرح والحزن حسب ما يحس به هذا الانسان حبيب الطبيعة وخادمها وعاشقها من مشاعر مختلفة .

وهكذا نجد أن « عرس الطبيعة » يرتبط أشد الارتبــاط بالمعـانى الانسانية العامة ، وأهمها معنى الحرية التى يسعى اليها كل شعب مقيـد مأسور ، والتى كافح من أجلها ثوار الجزائر ، ويكافح من أجلهـا اليوم ثوار فلسطين .

وفى شعر محمود درويش تتكرر كثيرا صورة « الريح » و «العاصفة» وهاتان الصورتان هما ولاشك تعبير عن نفسية الشاعر ، وهى ليست نفسية هادئة مستريحة ، بل هى نفسية ثائرة ، تحس بالألم العميق للمصير الذى تعرض له شعب فلسطين وتعرضت له أرض فلسطين ، والرؤى التى يراها مثل هذا الشاعر الممتلىء بالعواطف الحارة العنيفة لايمكن أن تكون نسيما هادئا ، ولا آزهارا باسمة ، وانما لابد لهذه الرؤى أن تكون من لون مشاعره . ولذلك فهو كثيرا مايرى الطبيعة رياحا وعواصف . كالرياح والعواصف التى هبت على شعبه وأرضه ، وكالرياح والعواصف التى مازالت تهب ، والتى يجب أن تهب فى المستقبل لتعيد الحقوق العادلة الى أصحابها . ولن يتم ذلك بدون ريح وعاصفة . ان رؤية الشاعر للرياح والعواصف ، وتكراره لهاتين الصورتين فى شعره انما يدل دلالة قوية على ما فى نفسه من لهيب ، ومافى وجدانه من حدة واندفاع . ولا يكاد يوجد شاعر عربى معاصر وقف عند الرياح والعواصف واستخدمها فى شعره مثلما فعل محمود درويش . بل من المؤكد أنه الشاعر الوحيد الذى استخدم هاتين الصورتين بكثرة لا تتكرر عند شاعر عربى آخر . انه يتحدث عن الطبيعة فى ثورتها وعنفها وغضبها أكثر مما يتحدث عنها فى هدوئها ووداعتها . لأن ثورة الطبيعة هى صورة من ثورة نفسه وغضبها على مايراه من ظلم وتعسف لا حدود لهما فى الواقع الانسانى الذى يعيشه شعب فلسطين . ولا يكاد محمود درويش يسمح لنفسه أن تهدأ وتستقر ، فهو يدعو حبيبته فى قصيدة له بعنوان « لا تتركينى » الى أن تساهم فى استمرار انفعاله العنيف الحار :

لا تتركينى

حرا بحزنى

واحبسينى

بيد تصب الشمس

فوق كوى سجونى
وتعودى أن تحرقينى
ان كنت لى
شغفا بأحجارى بزيتونى
بشباكى .. بطينى

انه يطلب من حبيبته أن تشعل فيه على الدوام عواطفه وأن تدفعه الى أقصى درجات الانفعال ، فالقضية التى يؤمن بها تحتاج الى كل هـذه الحرارة ، وكل هذا الانفعال الكبير . ومثل هذه النفسية اذا تعلقت ببعض ظواهر الطبيعة فانها تتعلق بالظواهر العنيفة على وجه الخصوص .. تتعلق بالرياح والعواصف ، لانها نفس مليئة بما يشبه الرياح والعواصف .

على أن الرياح والعواصف لهما مغزى غير مابينهما وبين نفس الشاعر من تشابه ، فالرياح والعواصف يقتلعان ما أمامهما من الاغصان الضعيفة والأوراق الهشة ، والشاعر يريد أن يقتلع كل مايوحى اليه بالضـعف ، فالقضية التى يدافع عنها تحتاج الى القوة والعنف ، بعد أن عانت طويلا من الضعف والتخاذل . ان الرياح والعواصف لاتبقى أمامها الا كل ماهو أصيل وراسخ ، وهذا مايؤمن به الشاعر ومايحرص عليه كل الحرص ؛ ففى قصيدته « وعود من العاصفة » يقول :

وليكن ...
لابد لى أن أرفض الموت
وأن أحرق دمع الأغنيات الراعفة
وأعرى شجر الزيتون
من كل الغصون الزائفة
فاذا كنت أغنى للفرح
خلف أجفان العيون الخائفة
فلأن العاصفة
وعدتنى بنبيذ

وبأنخاب جديدة
وبأقواس قزح
ولأن العاصفة
كنست صوت العصافير البليدة
والغصون المستعارة
عن جذوع الشجرات الواقفة

وهكذا ، فالشاعر يريد شيئا من الرياح والعواصف، تلك التي انعقدت بينه وبينها أواصر علاقة وطيدة ، بحيث استطاع أن يأخذ منها وعودا كثيرة ... انه ينتظر من هذه الرياح والعواصف أن تقضى على أى كائن زائف ، أو بليد ، أو مستعار ، أو ضعيف ، فالرياح والعواصف لن تبقى أمامها الا على ماهو قوى وصلب وقادر على الوقوف والصمود . وعندما يتعرض الشاعر مع بنى وطنه لمحنة كبيرة ، فهو يحس بصورة الرياح والعواصف وهى تولد أمامه وتتفجر بقوة فى نفسه وشعره ... يقول فى قصيدة « رد الفعل » :

ماكنت أعرف أن تحت جلودنا
ميلاد عاصفة
وعرس جداول

وهو يخاطب وطنه الذى تجسد أمامه فى « ذات العيون السود » فيقول فى قصيدته « خارج من الاسطورة » :

اننى أقرأ فى عينيك ميلاد النهار
اننى أقرأ أسرار العواصف

وهو يقول فى قصيدة أخرى مخاطبا طفلا من بلاده :

أخذوا بابا ... ليعطوك رياح
فتحوا جرحا ... ليعطوك صباح ...

وفى قصيدة عن قرية « كفر قاسم » يقول :

افتحى الأبواب يا قريتنا
افتحيها للرياح الأربع
ودعى خمسين جرحا يتوهج

وفى قصيدة « السجين والقمر » يقول :

الريح منزلنا
وصوت حبيبتى قبَل

وفى قصيدة « الأغنية والسلطان » :

كان صوت الدم
مغموسا بلون العاصفة
وحصى الميدان أفواه جروح راعفه
وأنا أضحك مفتونا بميلاد الرياح
عندما قاومنى السلطان
أمسكت بمفتاح الصباح
وتلمست طريقى بقناديل الجراح
آه كم كنت مصيبا
عندما كرست قلبى
لنداء العاصفة

وهكذا تملأ الرياح والعواصف شعر محمود درويش ، انهما أكثر ظواهر الطبيعة اثارة لوجدانه ، وفيهما تتجسد مشاعره الحقيقية فى رؤيته لواقع بلاده ومستقبلها ، فلن تتحرك قضيته خطوة الى الأمام بدون أن تعقد علاقات أصيلة مع العواصف والرياح ، وبدون أن تأخذ عهدا على هذه العواصف والرياح ، وبدون أن تهب فى كل مجالات حياتها العملية والنفسية بنفس القوة التى تهب بها الرياح والعواصف ، لتقتلع الأعشاب السامة التى زرعها العدو الاسرائيلى فى الأرض الفلسطينية ، ولتقتلع ماقد يملأ النفس العربية من تردد أو ارتباك .. ان الشاعر يتحالف مع قوة

الطبيعة ، ولا يتحالف مع ضعفها ، انه يريد أن يركب أقوى سفن الطبيعة ليصل الى غايته البعيدة ... وليس هناك أقوى من الريح والعاصفة . وقد يكون فى كلمة العاصفة هنا بالذات « عندما كرست قلبى لنداء العاصفة » اشارة بعيدة خفيفة الى الفدائيين الذين يرتبطون بتنظيم « العاصفة » العسكرى الذى يقف فى طليعة الفدائيين الفلسطينيين فى هذه المرحلة ، خاصة ، وأن قصيدة « الأغنية والسلطان » قد كتبت بعد يونيو ١٩٦٧ ، وبعد أن اشتدت حركة المقاومة ... على أن المعنى العام الأساسى للعاصفة فى شعر محمود درويش هو المعنى المستمد من الطبيعة .

بقيت ملاحظتان أخيرتان على موقف محمود درويش من الطبيعة ، أما الملاحظة الأولى فهى أنه كثيرا مايتحدث عن « الزيتون » فى شعره وقليلا مايتحدث عن « البرتقال » . وهناك فكرة شائعة عن فلسطين هى أنها أرض « البرتقال » . وكثيرا ماتتكرر هذه الفكرة فى الأدب العربى الذى يتناول مأساة فلسطين ويتحدث عنها ، سواء كان هـذا الأدب مكتوبا بأقلام فلسطينية أو صادرا عن أدباء من مختلف البيئات العربية الأخرى .

ولكن محمود درويش فى شعره لايلتزم بهذه الفكرة الشائعة عن أرض البرتقال ، ولا يكاد البرتقال يتردد فى قصائده الا فى حالات قليلة نادرة ، ولاشك ان الشاعر أو الفنان الأصيل وحـده هو الذى يعبر دائما عن رؤية خاصة غير تقليدية ولا متكررة ، وهذا هو مانجده عنـد محمود درويش ، فهو لايكرر غيره ، لا عن تعمـد وافتعال ولكن عن صـدق وأصالة ، انه يستوحى تجربته الخاصة التى قد تختلف مع غيره كل الاختلاف ، ولذلك فان الأرض عنده تبدو وكأنها أرض الزيتون لا أرض البرتقال ، واذا بحثنا عن تفسير آخر غير استقلال الشاعر واستقلال شخصيته الفنية ، فاننا سنجد عدة أسباب حددت رؤية الشاعر بهذه الصـورة . فمحمود درويش من قرية « البروة » وهذه القرية بالذات توجد فى منطقة تنتشر فيها أشجار الزيتون بكثرة ، بل تكاد أشجار الزيتون أن تكون هى الزراعة

الرئيسية فى تلك المنطقة ، ولذلك امتلأ وجدان الشاعر بالتعلق بشجرة الزيتون فأحبها وصادقها بعد أن عاشرها طويلا وأحس بهـا احساسا وجـدانيا عميقا . ومنطقة « البروة » بالذات هى أغنى مناطق فلسطين بأشـجار الزيتون ، كما أن الزيتون الذى ينبت فى هذه المنطقة هو أفضل وأنقى وأقدم أنواع الزيتون فى فلسطين كلها . اذن فالزيتون له شخصية قوية تفرض نفسها على أبناء هذه المنطقة . وله فى المنطقة وجود حى ملموس أحس به الشاعر منذ طفولته وارتبطت حياته وحياة أهل قريته بهذا الزيتون منذ البداية . ومن هنا كان من الصدق والواقعية والتعبير الوجدانى السليم أن يحتل الزيتون مكانة أساسية فى شعر محمود درويش قبل غيره من مظاهر الطبيعة فى فلسطين .

وهناك معنى آخر يساند اختيار محمود درويش للزيتون ومحبته له والاهتمام به فى شعره ، فالزيتون من الأشجار القليلة التى تحمل بالنسبة للوجدان الانسانى بعض المعانى الرمزية الكبيرة ، فالزيتون شجرة ترمز السلام بالنسبة لكل انسان على هذه الأرض ، وهى لا ترمز للسـلام المناقض للحرب فقط وانما ترمز للسلام المرتبط بالحياة المعادى للخراب ، المتصل بالازدهار والاخضرار فى الطبيعة والانسان . ان شجرة الزيتون هى رمز للحياة الخضراء المتألقة المنتجة فى كل ميدان . ومادام الزيتون يحمل كل هذه الرموز والمعانى العميقة فهو أقرب الى روح الفن ووجدان الفنان من أشجار البرتقال التى لاتحمل أى معنى من هذه المعانى على الاطلاق .

ومن ناحية أخرى فان أشجار الزيتون هى « أشجار الفقراء » يزرعها هؤلاء الفقراء ويملكونها فى كثير من الأحيان ، وليس معنى هذا أن الأغنياء لايملكون شيئا من الزيتون ، فالغنى عادة يستطيع أن يشارك الفقراء فيما يملكون ، بينما لايستطيع الفقراء مشاركة الأغنياء فى كل شىء . ولكن علاقة الفقراء بالزيتون تعود الى امكان امتلاك رقعة صغيرة من الأرض

مزروعة بالزيتون ، لأن أشجاره وافرة الثمار ، صغيرة الحجم ، تعتمد على المطر ، ولكن البرتقال يحتاج الى مناطق واسعة هى تلك التى تسمى باسم « البيارات » ولابد لمن يملكها أن يكون على شىء من الثراء . أما الزيتون فمن الممكن لأى مواطن عادى فقير أن يملك بضع شجيرات يعيش عليها ومن أجلها دون حاجة الى « البيارات » .

ومحمود درويش هو واحد من هؤلاء المواطنين الفقراء أنفسهم ، عاش تجاربهم وأحلامهم وأحزانهم ، وهو فى شعره انما يعبر عنهم تعبيرا فنيا وانسانيا عميقا . ولذلك فلقد كان من الطبيعى أن تكون الصورة الواضحة فى شعره ووجدانه هى صورة شجرة « الزيتون » ، شجرة الفقراء ، شجرة السلام ، شجرة الخضرة والازدهار فى الأرض وفى حياة الانسان ، شجرة الرسوخ والثبات والعمـــر الطويل ، ذلك لأن الزيتون له فى الأرض جذور قوية كما يمتد العمر بأشجاره طويلا مع السنوات العديدة المتتالية أما البرتقال فلم يلتفت اليه الشاعر كثيرا لخلوه من معظم المعـــانى التى ترتبط بأشجار الزيتون .

ولقد كان الديوان الثانى لمحمود درويش هو « أوراق الزيتون » . أما الزيتون فما أكثر مانلقاه فى قصائده ودواوينه .

ولست بحاجة الى تقديم نماذج شعرية كثيرة تثبت اهتمام محمـــود درويش بشجرة الزيتون فما أكثر ماتظهر صورة الزيتون فى أشعاره ... ففى قصيدة « صدى من الغابة » يقول :

من غابة الزيتون
جاء الصدى
وكنت مصلوبا على النار
أقول للغربان : لاتنهشى
فربما أرجع للدار

وفى قصيدة « مطر » يقول :

يا نوح
هبنى غصن زيتون
ووالدتى ... حمامة
وفى قصيدة له عنوانها عن « الصمود » :
لو يذكر الزيتون غارسه
لصار الزيت دمعا !

وهكذا نجد أن صورة الزيتون أكثر انتشارا فى شعر محمود درويش من البرتقال .. .

انها صورة أقرب من أى صورة أخرى مرتبطة بأرض فلسطين وتربتها المغتصبة .

الملاحظة الثانية والأخيرة تتصل بموقف محمود درويش من القمر ... ان صورة القمر تتردد كثيرا فى شعر محمود ، ولكنها ليست الصورة المألوفة التى نعرفها فى الأدب العربى بل وفى معظم الآداب الانسانية ... فالقمر هو عادة رمز للجمال والوسامة والسحر ، وقد أصبح تشبيه الجميل بأنه مثل القمر أمرا شائعا لا عند الأدباء والشعراء وأهل الفن وحدهم ولكن عند الناس العاديين أيضا ... فهناك اتفاق على أن القمر هو المثل الأعلى للجمال فى عيون البشر .

ولكن محمود درويش فى معظم شعره يقدم لنا صورة متناقضة تماما مع هذه الصورة ... فهو لايحب القمر ولايعترف له بالسحر والجمال ... فى قصيدة له بعنوان « خائف من القمر » يقول :

خبئينى . أتى القمر
ليت مرآتنا حجر
ألف سر سرى
وصدرك عار
وعيون على الشجر

لاتغطى كواكبا
ترشح الملح والخدر
خبئينى ... من القمر

والشاعر هنا يقول لنا انه يخاف من القمر ، لأن القمر يكشف أسرارا وعواطف ينبغى أن تختفى وتظل بعيدة عن العيون المعادية ، وهذه الفكرة تكشف لنا عن روح الشاعر بل والانسان الذى يعيش فى الأرض المحتلة مليئا بالمخاوف والهموم ، تحاصره الشكوك من كل جانب واتجـاه ... انه يعيش فى مجتمع معاد له كل العداء وهو المجتمع الاسرائيلى حيث لايستطيع بسهولة أن يكشف أفكاره ولا مشاعره وعواطفه المختلفة ... ومن هنا كان القمر عنصرا مساعدا للعدو وليس عنصرا مساعدا للانسان الخاضع للحصار والمطاردة .

وفى قصيدة أخرى بعنوان « أبى » يقول محمود :

غض طرفا عن القمر
وانحنى يحفن التراب
وصلى ...
لسماء بلا مطر
ونهانى عن السفر

فالأب هنا لاينظر للقمر ولا يتأثر به ، لأن القمر رمز للأحلام ، والأب لايحلم ، والقمر رمز للخيـالات السـاحرة ، والأب يعيش فى الواقع ويحرص على التمسك بالأرض والتراب الذى يعيش فوقه ... فالتراب أهم من القمر ، أو من أى مظهر آخر من مظاهر الجمال والخيال والأحلام فى نظر هذا الأب الذى يشعر بالتهديد المستمر لفقدان الوطن .

وفى قصيدة ثالثة بعنوان « قمر الشتاء » يقول محمود درويش :

سألم جثتك الشهيدة
وأذيبها بالملح والكبريت

ثم أعبها
كالشاى
كالخمر الرديئة
كالقصيدة
فى سوق شعر خائب
وأقول للشعراء :
ياشعراء أمتنا المجيدة
أنا قاتل القمر الذى
كنتم عبيده !!
ويقول فى آخر القصيدة :
لم أقتل سوى نذل جبان
بالأمس عاهدنى
وحين أتيته فى الصبح .. خان !

ولعل هذه القصيدة بالذات هى أكثر القصائد وضوحا وتحديدا فى رؤيته الخاصة للقمر .. فهو قد قتل القمر .. وقال للشعراء « .. أنا قاتل القمر الذى كنتم عبيده » ... فالقمر الذى كان موضوعا للغزل والعشق عند الشعراء أصبح عدوا لدودا عند محمود درويش ... وهو عدو يستحق القتل . لماذا ؟ « لم أقتل سوى نذل جبان . بالأمس عاهدنى وحين أتيته فى الصبح .. خان ! » . فالقمر الذى كان يسطع فى سماء قريةالشاعر وعلى أرض فلسطين كلها ليكشف مافيها من جمال ، قد أصبح الآن يسطع على عالم آخر « ليضىء » مافيه من ظلم واغتصاب ، انه عالم المجتمع الاسرائيلى الذى قام على أنقاض المجتمع الفلسطينى . وهذا مايصوره الشاعر بأنه خيانة ... وكأن القمر قد ساهم فى الكشف عن ذلك العالم الجديد القبيح ، عالم اسرائيل ، عالم الظلم الذى يجرح أحلام الشاعر وعواطفه وذكريات طفولته .

ولعل محمود درويش يشير هنا أيضا الى أن القمر كان موضوعا للغناء عند الشعراء الآخرين أما بالنسبة له ولغيره من شعراء المقاومة فان الغناء الحقيقى ينبغى أن يدور حول الانسان وتجاربه المختلفة وجهوده من أجل التحرر والكرامة .

هذه صورة القمر عند محمود درويش ، وهى صورة خاصة ومستقلة ومختلفة عن الصورة المألوفة لدى معظم الشعراء والفنانين ... انها صورة تكشف عن تمرد محمود درويش على الفن التقليدى والجمال التقليدى ، وتكشف عن حنينه الى جمال جديد ينبع من الوجدان الانسانى أولا وقبل كل شىء ..

الحب والمرأة

حبنا أن يضغط الكف على الكف ، ونمشي
واذا جعنا تقاسمنا الرغيف
فى ليالى البرد أحميك برمشي
وبأشعار على الشمس تطوف !

محمود درويش

محمود درويش شاعر عاطفى بالمعنى العميق لهذه الكلمة ، وهو شاعر تنبع موهبته من محبة الحياة وعشق الجمال فى الطبيعة والانسان ، وليس شاعرا تنبع موهبته من « الكراهية » أو « النقمة » أو « اليأس » ... ان شعر محمود درويش شعر غنى بالعاطفة الانسانية فى كثير من قصائده ، بل فى كثير من أبيـاته ، والحقيقة أن محمود درويش من أغنى شـعراء العاطفة فى تاريخ الشعر العربى كله .. وهو يعبر عن العاطفة .. عاطفة الحب ، تعبيرا جديدا ومتنوعا ومبتكرا فى صوره وخيالاته المختلفة ... انه عاشق من الدرجة الأولى اذا صح التعبير ... يملأ العشق قلبه بالعواطف الخصبة الحارة ، وهى عواطف تفيض من هذا القلب على كل قضية أخرى تتصل بحياة الشاعر أو بفكره

على أن العاطفة فى شعر محمود درويش ليست عاطفة مجردة ، لأنها ترتبط كل الارتباط بالقضية التى يعيش معها فى كل لحظة من حياته وهى قضية وطنه ، كما أن هذه العاطفة تتأثر كل التأثر بالجو الخانق التعيس الذى تعيش فيه الأقلية العربية داخل الأرض المحتلة ، فالحب فى شـعر محمود درويش هو زهرة يحيط بها كثير من الشوك .

يقول محمود درويش لحبيبته فى قصيدة عنوانها « قصائد عن حب قديم » :

تشهيت الطفولة فيك

مذ طارت عصافير الربيع

تجرد الشجر

وصوتك كان ، يا ما كان ،

يأتينى من الآبار أحيانا
وأحيانا ينقطه لى المطر
نقيا هكذا كالنار
كالأشجار .. كالأشعار ينهمر
ويقول فى نفس القصيدة :
ونعبر فى الطريق ...
مكبلين ...
كأننا أسرى
يدى ، لم أدر ، أم يدك احتست وجعا
من الأخرى

هذه بعض الصور الفنية التى يعبر بها محمود درويش عن عاطفته .. انها صورة جديدة وغنية بدفئها وصدقها ... فعندما يريد أن يصور لنا أن صوت حبيبته يسيطر على كيانه كله فهو يقول :

وصوتك كان يا ماكان
يأتينى من الآبار أحيانا
وأحيانا ينقطه المطر

فصوتها يأتيه من كل مكان وهو صوت يمتزج بكل مظاهر الطبيعة فكأنه جزء من هذه الطبيعة وعنصر من عناصرها

وعندما يريد الشاعر أن يصور لحظة من لحظات حبه ، لاينسى أنه هو وحبيبته يعيشان فى ظروف قاسية ولذلك فهو يمشى مع حبيبته فى « الطريق مكبلين » .. «كأننا أسرى» ... « يدى لم أدر ، أم يدك احتست وجعا ... من الأخرى » ... انها صورة جديدة وغريبة وصادقة حقا لعاشقين يعيشان فى ظروف من القهر .. مثل تلك الظروف التى يعيش فيها العرب فى الأرض المحتلة

اننا سرعان مانجد فى الشعر العاطفى لمحمود درويش صورة عميقة لمأساته وقضيته ، فهو لايجرد العاطفة أبدا أو ينعزل بها عن قضيته ...

انه شاعر قضية ، شاعر مأساة ، شاعر « جرح لايساوم » ، ولذلك فالحب عنده مرتبط كل الارتباط بوطنه وقضيته ، وهذا الارتباط لايقلل من الحب ، بل يجعله عميقا ومؤثرا الى أبعد حد ، فهو فى النهاية حب محروم ، وهو حب محرم أيضا ، فليس فى حياة الأرض المحتلة فرصة طبيعية لحب طبيعى ناجح ، فكل انسان عربى فى هذه الأرض معرض للاضطهاد والموت فى أى لحظة ... فالحب هنا عصفور مطارد بألف بنـــدقية ؛ فهو ينتقل مضطربا من غصن الى غصن يبحث عن مأمن قد لايجده على الاطلاق .

ولعل أكثر القلوب احتياجا الى الحب ، ومعرفة لقيمته ودوره فى حياة الانسان هى قلوب هؤلاء المحرومين المعرضين للاضطهاد . الحب بالنسبة لهذه الحياة الصعبة القاسية هو مصدر الأمل الوحيـــد ، ونافذة الهواء الوحيدة ، وشعاع الشمس الذى يملأ الحياة بالحرارة والدفء .

فى حوار بين الشاعر وبين حبيبته يقول لنا محمود درويش فى قصيدة أشرنا اليها من قبل :

عندما كنت صغيرا وجميلا
كانت الوردة دارى
والينابيع بحارى
(صارت الوردة جرحا
والينابيع دماء)
ــ هل تغيرت كثيرا ؟
ــ ماتغيرت كثيرا
عندما نرجع ، كالريح ، الى منزلنا
حدقى فى جبهتى
تجدى الورد نخيلا
والينابيع عرق
تجدينى مثلما كنت
صغيرا وجميلا

فاذا كانت حبيبته تبحث عن صورة مشرقة جميلة له ... فلن تجدها الا بعد أن يعود الى منزله ، رمزا لعودة كل فلسطينى عربى الى أرضه المغتصبة .. فالحب الناجح المطمئن مرتبط بعودة الأرض وانتصار الانسان العربى

وهو يرى أن نجاحه فى حبه مرتبط كل الارتباط بنجاحه فى نضاله واستمراره فى هذا النضال من أجل قضيته ، فلو انحنى وسلم لأعدائه فان حبه سوف يموت وينتهى ولا يعود جديرا بأي شيء من عطايا الحب وهداياه ، لأن هذا الحب مرتبط بموقفه من أرضه وشعبه وأهله :

يداك فوق جبينى
تاجان من كبرياء
اذا انحنيت انحنى
تل وضاعت سماء
ولا أعود جديرا
بقبلة أو دعاء
والباب يوصد دونى

ومحمود درويش كثيرا مايمزج بين « الحبيبة » و « الوطن » ويجعل منهما شيئا واحدا .. كثيرا مايتحدث عن الحبيبة ثم يقوده الحديث الى فلسطين وجرحها وأحلامها أيضا . لقد وصل محمود درويش فى تعبيره الفنى عن تجربته العاطفية الى درجة عالية من الاحساس العميق بأن كل لحظة حب يحس بها نحو فتاته هى فى نفس الوقت لحظة عاطفة من أجل الأرض المجروحة . لأن الحبيبة دائما تذكره بالوطن ... بل ان الحبيبة هى الوطن فى نفس الوقت :

ما الذى يجعل الوطن
بين عينيك أجملا ؟
والأساطير والزمن
تتمناك منزلا ؟
... ...

أنت عندى أم الوطن
أم أنا الرمز فيكما ؟

فهو هنا يمزج مزجا فنيا جميلا بينه وبين الحبيبة وبين الوطن ... الكل فى واحد لاينقسم ولا يتجزأ

وفى قصيدته المشهورة « عاشق من فلسطين » والتى أشرنا اليها من قبل يقول محمود درويش عن حبيبته :

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الأحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الكلمات والصمت
فلسطينية الصوت
فلسطينية الميلاد والموت

فالشاعر هنا يؤكد على كلمة « فلسطينية » لأنه يجد فيها أجمل معانى الحب والعاطفة الانسانية . ذلك لأن حبه لفتاته امتزج امتزاجا كاملا بحبه لوطنه وايمانه به ، وأصبح كل مايحس به من جمال متركزا فى أنها « فلسطينية » ... ففى هذه الصفة يجتمع كل السحر الحقيقى الأصيل .

وفى نفس هذه القصيدة ، قصيدة عاشق من فلسطين يرسم لنا صورة لحبيبته ، تخرج تماما عن نطاق التصوير الفنى للحبيبة العادية لتصبح صورة للوطن كله :

رأيتك عند باب الكهف ... عند الغار
معلقة على حبل الغسيل ثياب أيتامك
رأيتك فى المواقد ... فى الشوارع
فى الزرائب فى دم الشمس ...
رأيتك فى أغانى اليتم والبؤس
رأيتك ملء ملح البحر والرمل

وكنت جميلة كالأرض ... كالأطفال .. كالفل
وأقسم :
من رموش العين سوف أخيط منديلا
وأنقش فوقه شعرا لعينيك
واسما حين أسقيه فؤادا ذاب ترتيلا
يمد عرائش الايك
سأكتب جملة أحلى من الشهداء والقبل :
« فلسطينية كانت ولم تزل »

فالحبيبة هنا هى الوطن ، والوطن هو الحبيبة .. والصور الفنية الجديدة التى يرسمها الشاعر فى هذه القصيدة صور رائعة ومثيرة .. فهو يرى الحبيبة وهى تعلق على حبل الغسيل ثياب أيتامها ... ويراها فى الشوارع والزرائب وفى دم الشمس .. ويراها فى أغانى اليتم والبؤس وفى ملح البحر ... وتلك كلها صور توحى الينا بمدى مايحسه الشاعر من امتزاج الحبيبة والوطن بكل مظاهر الحياة وخاصة تلك الحياة القاسية المكافحة التى يتكون اطارها من « البؤس واليتم والزرائب وثياب الأيتام »

ومع ذلك فهو يغنى للحبيبة أو الوطن أجمل أغنية ... لانها :
فلسطينية كانت ولم تزل !

فما دام الاسرائيليون يريدون القضاء على الصفة « الفلسطينية » للأرض وللحبيبة فلتكن هذه الصفة هى أحلى أغنية وأجمل نشيد

على أن الارتباط العميق بين الوطن والحبيبة فى شعر محمود درويش ، وهو ارتباط يشمل شعر محمود العاطفى كله .. هذا الارتباط يقودنا الى موقف آخر فى شعره العاطفى . فالحب عند محمود درويش هو اشتراك فى الحياة الصعبة القاسية التى يعيشها العربى فى الأرض المحتلة . ان حب محمود درويش هو حب الفقراء المكافحين ، وليس حب المترفين الذين يجعلون من الحب وردة تسعدهم فى وقت الاسترخاء والراحة والرفاهية ، ولذلك فهو يصور لنا حب الفقراء هؤلاء فى كثير من قصائده ... فاذا

به حب عميق له شخصيته النبيـلة المـؤثرة .. وهى فى نفس الوقت صورة جديدة لذلك الحب الكبير الأصيل الذى يعبر عنه محمود درويش :

حبنا أن يضغط الكف على الكف ، ونمشى
واذا جعنا تقاسمنا الرغيف

ويقول فى قصيدة أخرى :

أحبك حب القوافل واحة عشب وماء
وحب الفقير الرغيف
كما ينبت العشب بين مفاصل صخرة
وجدنا غريبين يوما
ونبقى رفيقين دوما !

وهو يحس بالحنين العميق الى الحب ، بل يرى ان الحب هو خلاصه من مأساته ، وهو أمله الكبير فى الخلاص :

من بئر مأساتى ... أنادى مقلتيك
كى تحملا خمر الضياء الى عروقى
ماذا يثير الناس ! لو ألقيت رأسى فى يديك
وطويت خصرى فى الطريق

ويعبر محمود درويش نفسه عن هذا الربط الذى يقصد اليه بين الحب وقضيته الوطنية والانسانية فيقول فى حديثه الى الأستاذ محمد دكروب فى مجلة الطريق اللبنانية :

« انى أكتب فى هذه الفترة عن الحب الذى يولد وسط قضية ، فيحمل ملامحها وهمومها ويصبح جزءا لايتجزأ منها . أريد أن أكسر الحائط الذى يفصل بين العاشقين وبين الشارع فالعاشقان ليسا عاشقين فقط ، ولكنهما ضحية واحدة وأمل واحد وكفاح واحد . لقد تحدثنا كثيرا عن التحام الخاص بالعام ، ولكن هذه الظاهـرة أصبحت تأخذ شكلا تلقائيا عنـدى خاصة فى الأغانى التى أكتبها الآن . ان طعم العلاقات بين العاشقين يحمل مذاق الواقع الخشن »

على أن محمود درويش يصور لنا أحيانا وطنه فى صورة « امرأة »
مسئولة عن مصيرها ... أساءت التصرف وسمحت للآخرين ... لغير أهلها
الحقيقيين بأن يمتصوها ويسيئوا اليها :

أتحبها ؟
أحببت قبلك
وارتجفت على جدائلها الظليلة
كانت جميلة

لكنها رقصت على قبرى ، وأيامى الطليلة
وتخاصرت والآخرين ... بحلبة الرقص الطويلة
وأنا وأنت نعاتب التاريخ
والعلم الذى فقد الرجولة

من نحن ؟
دع نزق الشوارع
يرتوى من ذل رايتنا القتيلة
فعلام لا تغضب ؟

وشفاهها للراقصين الآخرين
ونهدها يحلب
انا حملنا الحزن أعواما وما طلع الصباح
والحزن نار تخمد الأيام شهوتها
وتوقظها الرياح

والريح عندك ، كيف تلجمها
ومالك من سلاح ...
الا لقاء الريح والنيران
فى وطن مباح ؟!

هذه صورة نادرة ، وقليلا ماتتكرر فى شعر محمود درويش ... صورة

المرأة اللاهية المسئولة عن مصيرها ، والتى استسلمت لاغتصاب الآخرين ؛ والمرأة هنا رمز للوطن ... ومحمود درويش فى معظم شعره لايرمز للوطن الا بصورة غالية كريمة عزيزة .. باستثناء مانراه فى هذه القصيدة ، حيث تبدو المرأة ـــ رمز الوطن ـــ خاطئة مقصرة متساهلة فىأمر مصيرها وحياتها

هناك صورة أخرى للمرأة فى شعر محمود درويش ترمز لاسرائيل :

كفــــاك يا صــــديقتى ... ذئبـــان جائعـــان
مصى بقايا دمنــــا ، وبعــــدنا الطـــــوفان
وان ســــغبت مــرة .. لا تتركى الجثمـــــان
وان ســــئمت بعدها ، فعنـــــدك الديدان
انا خلقنـــــا غلطـــة .. فى غفـــــلة من الزمان
وأنت ياصديقتى العجوز .. ياصديقتى المراهقة
كونى على أشـــــلائنا كالزنبقـــــات العـــابقة

ثم يقول فى نهاية هذه القصيدة ـــ وهى قصيدة ضعيفة على أى حال فى تركيبها وصياغتها الفنية وليست فىمستوى شعر محمود درويش الجيد :

يا ويل من تنفست رئاته الهواء
من رئة مسروقة !
ياويل من شرابه دماء
ومن بنى حديقة ... ترابها أشلاء
ياويله من وردها المسموم

ومعظم النماذج الشعرية السابقة مستمدة من ديوان « أوراق الزيتون » وديوان « عاشق من فلسطين » . ولكن أجمل وأبقى ماغناه محمود درويش للحب انما نجده فى ديوانه « آخر الليل » . لسوف نجد محمود درويش فى هذا الديوان الذى يرتقى فيه الى درجة عالية من القدرة الفنية ، يربط أيضا بين الحب والوطن ولكن بصورة أجمل واعمق .. فهو يقول مثلا :

الأرض ، أم انت عندى

أم أنتما توأمان
من مد للشمس زندى ؟
الأرض ، أم مقلتان ؟
سيان ، سيان ... عندى
أو يقول :
وطنى جبينك فاسمعينى
لا تتركينى
خلف السياج
كعشبة برية
كيمامة مهجورة
لا تتركينى
... ...
وتعودى أن تحرقينى ،
ان كنت لى ،
شغفا بأحجارى بزيتونى
بشباكى ... بطينى
وطنى جبينك ، فاسمعينى
لا تتركينى !

وفى قصيدته عن مذبحة كفر قاسم ، يصور لنا محمود درويش ، عاشقا يعود الى حبيبته بعد أن قتله اليهود فى المذبحة ... انه يعود من الموت ليتحدث الى فتاته ، ويصور لنا الشاعر هنا كيف يموت الحب وتموت الحياة على يد الاسرائيليين عندما يقول بلسان العاشق المقتول :

لك منى كل شىء
لك ظل لك ضوء
خاتم العرس ، وما شئت

وحاكورة زيتون وتين
وسآتيك كما فى كل ليلة
أدخل الشباك فى الحلم ، وأرمى لك فلة
لا تلمنى ان تأخرت قليلا
انهم قد أوقفونى
غابة الزيتون كانت دائما خضراء
كانت يا حبيبى
إن خمسين ضحية
جعلتها فى الغروب
بركة حمراء ... خمسين ضحية
يا حبيبى ... لا تلمنى
قتلونى ... قتلونى
قتلونى

انها صورة رائعة للحب المقتول ... والحب هنا رمز للحيـاة المقتولة والوطن المقتول .. ولكن الحبيب يعود رغم الموت الى حبيبته ، وكذلك تعود الحياة ، ويعود الوطن

وفى قصيدة عنوانها « الموعد » يصور لنا محمود درويش « الحب فى بلاده » تصويرا انسانيا فى غاية العمق والروعة والقدرة على التأثير .. فماذا يكون الحب فى وطن مجروح معرض لألوان العذاب والألم ، وكيف يمكن أن تكون صورة الحب فى قلب مواطن عربى يعيش فى هذه الأرض المحتلة : فلسطين ، وهو مهدد بأن يفقد حياته فى كل لحظة ، مهدد بأن يفقد حبيبته ، مهدد بأن يفقد خبزه وخبز أسرته .. انه حب حزين وهوى ملىء بالعذاب .. يقول محمود فى تصويره الرائع للحب فى الوطن الجريح :

وطنى حبنا هـــلاك ... والأغانى مجـــرحه
كلمـــا جاءنى نداك ... هجر القـــلب مطـــرحه

وتلاقى على رباك بالجروح المفتحة
لا تلمنى ففى ثراك أصبح الحب .. مذبحة

وفى احدى قصائد ديوان « آخر الليل » يثير محمود درويش قضية هامة ، فهو لا يجد ما يمنعه ، كفنان صاحب نزعة انسانية عميقة ، من التعبير عن الحب كعلاقة انسانية تربط بين شاب عربى وفتاة يهودية ... ان هذا الحب من الناحية الانسانية ممكن ولا شك ، لأن العربى الانسان يفرق تفرقة كاملة بين « اليهودية » و « الصهيونية » ... بين العلاقة الانسانية العامة والعلاقة المريرة التى فرضتها الصهيونية على العرب . وفى هذه القصيدة الرائعة لمحمود درويش وهى قصيدة « ريتا والبندقية » ، يتحدث الشاعر عن حب بين شاب عربى وفتاة يهودية .. ثم يحدثنا آن هذا الحب كان يمكن أن ينجح ويتحول الى علاقة انسانية أصيلة . ولكن الذى يعوق هذه العلاقة ويعطلها ليس قلب العاشق العربى ولا قلب العاشقة اليهودية .. ان العائق هو الصهيونية .. هو المدفع الصهيونى .. هو البندقية الصهيونية ، لأن الصهيونية ضد الحب ... ضد التقاء القلب بالقلب ، وهى بسبب ذلك كله ضد الحياة ، وضد الجمال ، وضد كل مظهر من مظاهر الانسانية ... ان القوة المعادية للحب هى قوة معادية لكل شىء مثمر بالنسبة للحياة والانسان ، وهذه القوة المعادية للحب هى الصهيونية.

الفتاة اليهودية فى هذه القصيدة اسمها ريتا ، و « ريتا » بالذات اسم يتكرر كثيرا فى الشعر العاطفى لمحمود درويش .. ان « ريتا » هى «ليلى» محمود درويش وموضع عشقه وهواه ... أما العاشق العربى فيتكلم فى قصيدة محمود درويش بلسان الشاعر :

بين ريتا وعيونى بندقية
والذى يعرف ريتا ، ينحنى
ويصلى

لاله فى العيون العسلية
.. وأنا أذكر كيف التصقت
بى ، وغطت ساعدى أحلى ضفيرة
وأنا أذكر ريتا
مثلما يذكر عصفور غديره
آه .. ريتا
بيننا مليون عصفور وصورة
ومواعيد كثيرة
... .
آه ... ريتا
أى شىء رد عن عينيك عينى
سوى اغفاءتين
وغيوم عسلية
قبل هذى البندقية !

وهكذا يسقط الحب تحت سطوة العدوان الصهيونى الذى ترمز اليه « البندقية » فى هذه القصيدة .. وليست قصة الحب بين عاشق وعاشقة هى وحدها التى أفسدتها هذه البندقية .. فهذا الحب هو أيضا رمز للحياة والسلام الذى يمكن أن يملأ أرض فلسطين ويجمع بين المسلمين والمسيحيين واليهود .. بين العاشق العربى .. وريتا العاشقة اليهودية .. لولا العنصرية والنازية الجديدة .. لولا الصهيونية التى تقوم على العدوان والتوسع والكراهية العميقة للعرب .

ويلاحظ بعض نقاد محمود درويش أننا لانستطيع أن نخرج من شعره العاطفى بصورة امرأة معينة لاننساها وانما نذكرها دائما مرتبطة بالشعر العاطفى لمحمود .. وهذه الملاحظة صحيحة وتبريرها ولاشك أن « المرأة » مرتبطة فى شعر محمود درويش بقضية كبيرة .. أى أن التجربة العاطفية

الخاصة ممتزجة كل الامتزاج بتجربة انسانية أعم وأشمل ، ولذلك فقد ذابت الملامح « الذاتية » للعاطفة عند محمود فى العاطفة الكبيرة .. عاطفة الحب للأرض المغتصبة والوطن المجروح .

بقيت هناك ملاحظات أخيرة على التجربة العاطفية فى شعر محمود درويش : الملاحظة الأولى هى أن محمود يعبر دائما عن عواطف قوية غير مريضة ولا ملتوية ولا ذليلة . فالعاطفة عنده كبرياء ورجولة وكرامة للقلب العاشق والوجدان المحب ، وقد سجل الشاعر توفيق زياد فى دراسته له عن محمود درويش هذه الملاحظة نفسها حيث قال : « ان محمود فى حبه لايعرف الذل ولا التزلف» . وهذه ملاحظة واضحة وأساسية فى شعر محمود العاطفى .. انه ليس عاشقا مريضا ، ولا عاشقا من أصحاب الدموع الغزيرة والشكوى المتواصلة المريرة .. بل هو عاشق صادق بسيط مرفوع الجبين حتى فى أشد لحظات أساه العاطفى .

والملاحظة الثانية هى أن شعر محمود درويش العاطفى كثيرا ما يمتزج امتزاجا عميقا بالطبيعة ، ذلك لأنه عاشق يعيش فى العراء ، يعيش فى الشوارع .. فليس للحب فى الأرض المجروحة المغتصبة عش يأويه أو بيت يضم العاشقين بين جناحين دافئين ... فالهوى فى هذه الأرض حزين ،يمشى فى الطرقات ولا يعرف الاستقرار ، ومن هنا يمتزج هذا الهوى بالمطر والنسيم والنجوم ، وتشترك كل مظاهر الطبيعة فى مباركة هذا الهوى الحزين . « وصوتك كان ياما كان يأتينى من الآبار أحيانا ، وأحيانا ينقطه لى المطر ، نقيا هكذا كالنار .. كالأشجار .. كالأشعار ينهمر » . فالحب مختلف هنا ــ كالزهور البرية ــ بالأمطار والآبار والأشجار. وفى قصيدته « قصائد عن حب قديم » نجد نموذجا آخر لهذا الحب الممتزج بالطبيعة امتزاجا عميقا ، حيث يلتمس فى الطبيعة دفئا ويبحث عن رداء يحميه من العرى والضياع .. انه نموذج شعرى رائع ، منسوج بدقة وعمق وأناقة :

ترجل مرة كوكب

وسار على أناملها ولم يتعب

وحين رشفت ، عن شفتيك ، ماء التوت
أقبل عندها يشرب
وشاركنا وسادتنا ، وقهوتنا
وحين ذهبت لم يذهب !

ان النجم يشارك العاشقين حياتهما ، ويبقى بعد لحظات الهوى دون أن يرحل .. فهو ذكرى للحب الحزين المغترب .. ومشاركته فى الحب نوع من رعاية الطبيعة وحنانها على العاشقين .. ان النجم هنا « مندوب » من الطبيعة لتأكيد هذه العاطفة وتأييدها وحمايتها من متاعب الأيام .

والملاحظة الثالثة والأخيرة هى أن محمود درويش يلتفت كثيرا الى « العيون » .. انها تلعب دورا كبيرا فى قصائده العاطفية ، وهو يتوقف أمامها كثيرا ، ويخاطبها ويستمع اليها ويستوحى منها قطرات من العاطفة المخلصة العميقة النقية . ففى قصيدته « عاشق من فلسطين » يقول :

خذينى تحت عينيك ..

وفى نفس القصيدة يقول عن حبيبته :

فلسطينية العينين والوشم

وفى « قصائد عن حب قديم » يقول :

وفى عينيك ياقمرى القديم
يشدنى أصلى
الى اغفاءة زرقاء
تحت الشمس ... والنخل
بعيدا عن دجى المنفى
قريبا من حمى أهلى

وهكذا فالشاعر العاشق يشعر بالحرية كلما نظر الى عينى حبيبته ... لأنهما بالنسبة له وطن وطمأنينة وعش جميل يختبىء فيه عصفور قلبه من عواصف الأيام وأحزان الزمان .

المسيح يصلب في القرن العشرين

فى شعر محمود درويش نلتقى برمز يتردد كثيرا فى قصائده هو رمز « الصليب » ... ذلك لأن الشاعر العربى الذى يعيش فى الأرض المحتلة يحس أنه مصلوب هو وشعبه وأرضه . والصليب رمز يرتبط بفلسطين القديمة ارتباطا كاملا ، فلقد أعد اليهود على هذه الأرض منذ ألفين من السنين تقريبا صليبا ليقتلوا فوقه المسيح ، وكان المسيح يمثل الدعوة الى العدل وتجديد المجتمع اليهودى على أساس من المبادىء الانسانية الرفيعة ، ولكن اليهود حاربوه وقرروا قتله ، وبقيت قصة الصليب منذ ذلك الحين رمزا للفداء والتضحية من أجل خلاص الانسان ... وما حدث لفلسطين فى العصر الحديث يشبه الى حد كبير قصة « الصليب » ، فلقد تمزقت فلسطين على يد الصهيونية ... صلبها اليهود وأسالوا الدماء من جسدها ... وأصبحت مأساتها نموذجا غير عادى لأفظع قصة تعرض لها شعب من الشعوب خلال التاريخ الانسانى المعاصر . ولو جاء المسيح ليعيش فوق أرض فلسطين فى القرن العشرين ، ودعا دعوته الى الانسانية والمثل العليا الكريمة التى كان يدعو اليها ، لكان من الضرورى أن يعمل اليهود الصهيونيون على قتله وصلبه لأنهم أقاموا دولتهم على أساس معاد تماما لكل القيم الانسانية التى دعا اليها المسيح ... لقد ذبحوا البشر وأشعلوا العداء بين الناس وأقاموا دولتهم على أساس من الظلم والتعسف والاغتصاب ... وكل هذه المبادىء التى أقيمت فوقها دولة اسرائيل تناقض تمام المناقضة تلك المبادىء التى عاش المسيح من أجلها وعانى الآلام والمصاعب فى سبيل انتشارها .

ومن هنا شاع رمز الصليب فى شعر محمود درويش ، خاصة وأنه كما

يكشف شعره كثير القراءة للكتب الدينية .. ففى شعره كثير من الاشارات التى تدل على اهتمامه بالثقافة الدينية اهتماما واعيا ذكيا . ورمز الصليب فى شعر محمود درويش يشير الى الجو النفسى الذى يعيش فيه الشاعر ، ويشير أيضا وبقوة الى المأساة الفلسطينية ... فالشاعر يحس أنه يعيش فى جو من الاضطهاد والمطاردة من العدو الاسرائيلى ، وفلسطين نفسها ممزقة ومصلوبة على يد هذا العدو نفسه . ومن هنا امتلأ شعر محمود درويش بصورة الصليب ورمز الصليب ، ويكثر هذا الرمز على وجه الخصوص فى ديوانه الثانى « عاشق من فلسطين » ... فلقد ترددت صورة الصليب فى هذا الديوان بكثرة ملحوظة .

وفى قصيدة من قصائد هذا الديوان عنوانها « صدى من الغابة » يقول محمود « وقد أشرت الى هذه القصيدة فى فصل سابق » :

من غابة الزيتون جاء الصدى
وكنت مصلوبا على النار
أقول للغربان : لا تنهشى
فربما تشتى السما ... ربما
أنزل يوما عن صليبى ... ترى
كيف أعود حافيا عارى

فالشاعر هنا مصلوب مثل وطنه فلسطين ، ومثل جميع القيم التى يمثلها المسيح وغيره من الأنبياء والثوار والمصلحين ، ولكن الأمل لا يفارق الشاعر فى النصر وفى الخلاص من هذا الصليب .. فى الخلاص من هذه المحنة « .. فربما تشتى السما .. ربما تطفىء هذا الخشب الضارى » .. ولنلاحظ أن الصليب هنا صليب من النار ، وهى صورة تضاعف معنى العذاب وتؤكده ، وفى قصيدة أخرى بعنوان « قال المغنى » يقول محمود درويش مستخدما صورة الصليب أيضا :

المغنى على صليب الألم

جرحه ساطع كنجم
قال للناس حوله
كل شيء ... سوى الندم :
هكذا مت واقفا
واقفا مت كالشجر
هكذا يصبح الصليب
منبرا ... أو عصا نغم
ومساميره ... وتر
هكذا ينزل المطر
هكذا يكبر الشجر

وفى هذه القصيدة يتحول الصليب الى منبر لاعلان القضية العادلة والتعبير عنها ، وتتحول مساميره الى أوتار يغنى من خلالها لقضيته النبيلة.. ومن خلال هـذا الاحتمال للعذاب ينتصر العدل وينزل المطر ويكبر اشجر .

وفى قصيدة أخرى بعنوان « شهيد الأغنية » يقول محمود درويش :

ماكنت أول حامل اكليل شوك
لأقول : ابكى !
فعسى صليبى صهوة ،
والشوك فوق جبينى المنقوش
بالدم والندى ... اكليل غار
وعساى آخر من يقول :
أنا تشهيت الردى !

فصورة الصليب تتكرر كثيرا فى شعر محمود درويش ... ولا شك أن محمود هو واحد من أصدق الذين استخدموا هذه الصورة فى شعرنا المعاصر ، فهى صورة تتكرر كثيرا عند الشعراء المعاصرين ، ولكننا نحس

أحيانا انها نقل وتقليد لبعض الشعراء الغربيين مثل « اليوت » ، وليست صورة نابعة من احساس حقيقى وتجربة حقيقية . أما محمود فيستخدم هذه الصورة فى موضـعها ... وأى درجة من الآلام تلوح أمام هـذه المأساة آلاما سهلة وبسيطة لأن العذاب الذى تحمله ويتحمله المواطن العربى الفلسطينى هو نوع من عذاب الصليب الذى أعده اليهـود يوما لقتـل المسيح وتعذيبه . وارتباط الصليب بفلسطين ارتباطا تاريخيـا ووجدانيا يبرر من ناحية أخرى اسـتخدام الصليب عند محـمود درويش ويبرر اختياره للصليب فى قصائده كرمز لآلامه كعـربى ورمز لالام شعبه فى فلسطين . وهذا مانلتقى به على صورة شديدة التركيز ، شديدة التأثير فى قصيدة لمحمود درويش بعنوان رباعيات .. حيث يقـول فى الرباعية الأولى :

وطنى ! لم يعطنى حبى لك
غير أخشاب صليبى
وطنى ، يا وطنى ، ما أجملك !
خذ عيونى ، خذ فؤادى ، خذ .. حبيبى !

فالصليب هو تلك المنحة التى نالها الشاعر والانسان العربى محمود درويش هو ورفاقه من أبناء فلسطين ... انه منحة الحب الصوفى العميق والتى تمنحها الأرض المغصوبة بالظلم والدم لكل عاشق من عشاق ترابها وجراحها وما فيها من عذاب وقهر وأمل عريض فى نفس الوقت .

الدين
والثورة

صورة الصليب التى تنتشر فى قصائد محمود درويش رمزا للعذاب الذى يعانيه الانسان فى الأرض المحتلة ... هذه الصورة تتصل بفكرة الدين عند محمود درويش ورفاقه . وقد ظهرت الفكرة الدينية فى البداية عند شعراء المقاومة على شكل ثورة من ثورات الشك والتمرد ، وبلغت ثورة الشك هذه حدا يكاد يعتبره المؤمنون الحادا وكفرا كاملين ، ولعل ثورة الشك هذه قد تأثرت بما يمكن أن نسميه باسم « طفولة الأفكار اليسارية » التى شاعت فى بعض الفترات بين شعراء الأرض المحتلة ، صحيح أن الفكر اليسارى الاشتراكى العالمى قد وصل بعد ذلك الى مرحلة عالية من النضج والاكتمال والتفتح والفهم الصحيح للحضارة والثقافة الدينية ، ولكن مرحلة الطفولة اليسارية كانت تبرر لبعض هؤلاء الشعراء « الثورة على الدين » .. على أن هؤلاء الشعراء أنفسهم قد استطاعوا بعد ذلك أن يصلوا الى فكرة أنضج وأعمق ، وتجاوزوا ثورة الشك ، وربطوا بين الدين والثورة ... بين الدين وتغيير الحياة ، بين الدين والكفاح من أجل المستقبل الانسانى .

ولا نكاد نعثر على أثر واضح لثورة الشك هذه عند محمود درويش اللهم الا فى بعض قصائده الأولى ، مثل قوله فى قصيدة له بعنوان « الموت فى الغابة » :

نامى !
فعين الله نائمة
عنا .. وأسراب الشحارير

والحقيقة عند كل مؤمن — هى أن عين العدل الالهى لا تنام ، ولكن صوت محمود درويش هنا هو تعبير عن لحظـة عابرة من لحظات اليأس

والشك .. وهى ليست لحظة أصيلة فى شعره ولا متكررة !

ونجد ملامح « ثورة الشك » هذه بوضوح أكثر عند زميل محمود درويش الشاعر الموهوب سميح القاســم ... ولنقف لحظــة مع ثورة الشك لنلتقى بعد ذلك بصورة أخرى للربط العميق بين الدين والثورة من أجل الحرية والعدل .

يعبر سميح القاسم فى قصيدة عنوانها « رسالة الى الله » عن ثورته على الدين وشكه فى أن الدين له جدوى ، وذلك لأنه يرى « المتدينين » أبناء الله ضائعين معذبين فى هذه الحياة .

يقول سميح فى قصيدته :

سيد الكون أبانا

ألف آمنا ، وبعد

من حقول البؤس هذى الكلمات

من سفوح جوعت ، من قمم

نسرها أهوى على الشمروخ فى يأس .. ومات

من بحار لم تعد فيها جزيره

لم يعد فيها سوى أشرعة الذكرى المريرة

من جنين كبلت فيه الحياة

كل ما تحمل هذى الكلمات

يا أبانا ، يا أبا ايتامه ملوا الصلاة

يا أبانا نحن ما زلنا نصلى من سنين

يا أبانا نحن ما زلنا بقايا لاجئين

أرضنا

من عسل ــ يحكى ــ بها الأنهار

ــ يحكى ــ من حليب

أنجبت ــ يحكى ــ كبار الأنبياء

وعشقناها
ولكنا اتتهينا فى هوانا أشقياء
وحملنا كل آلام الصليب
يا أبانا ، كيف ترضى لبنيك البسطاء
دون ذنب ــ كل آلام الصليب
يا أبانا نحن بعد اليوم لسنا بسطاء
لن نصلى لك كى تمطر قمحا
لن نداوى بالحجابات وبالرقية جرحا
نحن أنجبنا على الحزن كبار الأنبياء
وخلقنا من أمانينا التى تكبر .. ربا
شق من مأساتنا للفجر دربا

ولكن سميح القاسم ينتهى من ثورة الشك فى نفس القصيدة الى طلب الغفران فى النهاية ، باعتباره خاطئا فى شكه ، ومدفوعا بسبب عذابه الى هذا الشك :

عفوك اللهم ، ان كانت حروفى مستفزه
أنا انسان من الطين
أنا الخاطىء مذ كنت
ومولاى المنزه

هذه الثورة .. ثورة الشك فى الدين ، يخلقها الاحساس العاطفى الحاد لدى الشاعر بأنه ضائع ... وأنه محروم من رعاية الله .. ولكن ثورة الشك هذه سرعان ما تزول وتتحول الى ايمان عميق وربط كامل بين « الدين والثورة » ... فسميح القاسم نفسه يقول فى قصيدة أخرى مستفيدا من قراءاته فى الكتب الدينية المختلفة :

أنا قبل قرون
لم أتعود أن أكره

لكنى مكره
أن أشرع رمحا لا يعيا
فى وجه التنين
أن أشهر سيفا من نار
أشهره فى وجه البغل المأفون
أن أصبح « ايليا » فى القرن العشرين

وايليا هو « نبى يهودى حارب عبادة الأوثان ، وينسب اليه أنه قتل كهنة بعل » فالشاعر هنا يوحد بين الدين والثورة ... بين الدين وتغيير الواقع وتحرير الانسان .

على أن المعنى الذى يرتبط فيه الدين والايمان بالثورة نجـده على أوضح ما يكون عند شاعرنا محمود درويش ، واذا كنا لا نجد فى شعر محمودرويش الا مظاهر قليلة لنزعة الشك الدينى ، فاننا نجد عنده نماذج واضحة عميقة فى نزعته الى ربط الدين بالثورة ، وبالتغيير وبالكفاح من أجل المستقبل الانسانى .

ويكشف لنا شعر محمود درويش عن ثقافة واضحة فى ميدان الكتب الدينية فلقد قرأ الشاعر هذه الكتب واستخرج منها تفسيرات خاصة ، ومواقف محددة تخدم تلك الفكرة التى يعبر عنها .. وهى أن الدين ليس مجرد طقوس وعبادات فقط ، بل هو فى جوهره ثورة من أجل الانسان .. ثورة من أجل العدل والحرية والكرامة .. ويهتم محمود درويش على وجه الخصوص بالكتب الدينية اليهودية ، ولعل دافعه الى ذلك أن يستخرج من هذه الكتب ما يدين الاسرائيليين ... بلغتهم ومن كتبهم المقدسة نفسها ... ولقد توقف محمود درويش أمام نبى من أنبياء اليهـود بالذات هو « حبقوق » ــ بفتح الباء وتشديد القاف ــ وهو أحد أنبياء اليهود الذين جاء ذكرهم فى العهد القديم كثائر على اليهود وعلى اسرائيل ، وقد جاء على لسانه فى العهد القديم : « الى متى يارب أستغيث ولا تستجيب ،

أصرخ اليك من الظلم ولا تخلص ، لماذا تريني الاثم وتشهدني الاصر ويجرى قدامى الاغتصاب والظلم ويحدث الخصام ويقوم النزاع » .

ثم يقول حبقوق أيضا :

« ويل لمن يبنى مدينة بالدماء ويؤسس قرية بالاثم » .

وماذا تكون اسرائيل .. اذا لم تكن مدينة مبنية بالدماء وقرية مؤسسة بالاثم ؟! .. ان محمود درويش يستعيد صورة هذا النبي اليهودى دائما ، فهو نبي ثائر على قومه ، ثائر على سلوك بنى اسرائيل ... ولو كان هذا النبي حيا اليوم بأفكاره التى جاء بها العهد القديم لكان من أعتى أعداء بنى اسرائيل .

يقول محمود درويش فى قصيدة له بعنوان رباعيات :

حبقوق ! عد الينا .. عد وبشر من جديد
وارو مأساة مدينة

فوق تاج الدم قامت والعبيد
ووراء الدم نار ، وضغينة !

وفى هذا المقطع يشير محمود درويش الى كلمات « حبقوق » السابقة :

« ... ويل لمن يبنى مدينة بالدماء ، ويؤسس قرية بالاثم » .

ونلتقى بصورة « حبقوق » مرة أخرى عند محمود درويش فى قصيدة له عنوانها « نشيد الرجال » .. ففى هذه القصيدة يدير محمود درويش حوارا بينه وبين هذا النبي الثائر على آثام اليهود .. يقول محمود درويش فى هذا الحوار :

ــ آلو ... هالو !
أموجود هنا حبقوق ؟
ــ نعم من أنت ؟
ــ أنا ياسيدى عربى
وكانت لى يد تزرع

ترابا سمدته يدا وعين أبى
وكانت لى خطى وعباءة
وعمامة ودفوف
وكانت لى ...
ـ كفى يا ابنى
على قلبى حكايتكم
على قلبى سكاكين ..

هذا هو الموقف الجديد الذى يستخرجه محمود درويش من قلب ثقافته الدينية .. انه يكشف عن الصفحات الثائرة فى التاريخ الدينى الانسانى .. ولقد كان حبقوق بالذات ثائرا على اليهود ومحتجا عليهم معتقدا أنهم يخونون مبادئهم الدينية .. ويبنون حياتهم بالدماء والآثام !

ونجد محمود درويش أيضا وفى نفس قصيدته « نشيد الرجال » يقدم الينا صورة للمسيحية كما يفهمها .. انها المسيحية المناضلة من أجل مستقبل البشر .. ففى حوار يتخيله الشاعر مع المسيح يقول :

ـ ألو ... أريد يسوع ؟
ـ نعم ... من انت
ـ أنا أحكى من اسرائيل
وفى قدمى مسامير ... واكليل
فأى سبيل
اختار يابن الله ... أى سبيل ؟
أأكفر بالخلاص الحلو ، أم أمشى ؟
ولو أمشى وأحتضر ؟
ـ أقول لكم ... أماما أيها البشر

فالمسيح كما يتصوره محمود درويش .. وكما يفسره هو داعية للنضال من أجل المستقبل الانسانى .. انه داعية الى شعار « .. أقول لكم .. أماما

أيها البشر » .. فليس هناك دعوة للاستسلام والتراجع أمام الظلم

ونفس التصور يقدمه لنا محمود درويش للاسلام .. وهو يقدمه لنا فى حوار يتخيله بينه وبين محمد ، النبى العربى الكريم :

ــ ألو .. أريد محمد العرب

ــ نعم ! من أنت ؟

ــ سجين فى بلادى

بلا أرض ... بلا علم .. بلا بيت

رموا أهلى الى المنفى

وجاءوا يشترون النار من صوتى

لأخرج من ظلام السجن ... ما أفعل ؟

وبعد أن يطرح الشاعر هذا السؤال ... ما العمل ؟ يتخيل اجابة النبى العربى الكريم .. ماذا تكون :

تحد السجن والسجان

فان حــلاوة الايمان

تذيب مرارة الحنظل !

وهكذا فان روح الأديان واحدة .. انها روح الثورة والتمرد على الظلم وعلى كل أعداء الانسان .. وبهذه الصورة النبيلة الثائرة المتمردة يفهم محمود درويش الدين ... ويربط بينه وبين الثورة برباط نهائى وثيق ... فالدين ثورة ، ورفض للظلم ، ودعوة للبطــولة والنضال ضــد أعداء الانسان .. ان الدين قوة تشعل الثورة والمقاومة ولاتدعو الى التســليم والرضا بمرارة الواقع المظلم .

إنسانيون
لامتعصبون

يمثل محمود درويش مع شعراء المقاومة فى الأرض المحتلة موقفا انسانيا فريدا ... لقد تعرض هؤلاء الشعراء لاضطهاد مادى ومعنوى بالغ العنف والقسوة ، وتعرض شعبهم العربى الفلسطينى لهذا النوع من الاضطهاد نفسه ، وسالت دماء هذا الشعب فى مجازر لم تنته منذ سنة ١٩٤٨ الى اليوم ، ولقد كان هذا كله كفيلا بأن يخلق فى نفوسهم نوعا من الحقد المرير ضد اليهود ، كشعب وكعنصر انسانى معا . ولو حدث ذلك لنفسية الشعراء والمواطنين العرب لكان ذلك شيئا طبيعيا ، فهو رد فعل منتظر لما يتعرض له العرب من قسوة واضطهاد بصورهما لنا الشاعر العربى فى الأرض المحتلة تصويرا عميقا مؤثرا الى أبعد حد ، ولو قرأنا أى نموذج من نماذج شعر المقاومه فى الأرض المحتلة فسوف نجد هذه الصور المثيرة للاضطهاد الاسرائيلى الموجه الى العرب . ويكفى أن نتذكر أحداث كفر قاسم التى تعرضنا لها فى فصل سابق والتى قتل فيها مايقرب من خمسين عربيا من تلك القرية فى ساعات قليلة .. ليلة العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ . وقد انتهت هذه المجزرة ـ كما أشرنا فى الفصل الثانى ـ بمحاكمة مدبرها وهو ضابط اسرائيلى كبير اسمه «شدومى» .. وتقرر فى آخر الأمر تغريمه قرشا واحدا ... عقابا له على اغتياله لخمسين انسانا عربيا فى ليلة واحدة !

هذا هو بعض العذاب الذى تعرض له العربى فى الأرض المحتلة كما تصوره مذبحة كفر قاسم . ومع ذلك لانجد فى جميع النصوص التى وصلت الينا لشعراء المقاومة نصا يوحى بالحقد العنصرى ضد اليهود .

ان نظرة محمود درويش وزملاءه من شعراء المقاومة هى نظرة انسانية

نبيلة وشاملة . نظرة تدعو الى العـدل ولا تدعو الى الانتقام والثـار والحقد . نظرة تدعو الى اعادة الحقوق الضائعة دون أن تنزلق الى مهاوى العنصرية التى اندفعت اليها النازية ذات يوم ، عندما وجد هتلر ، مفكر النازية وزعيمها ، أن اليهود يسيطرون على الاقتصاد الألمانى وعلى غيره من مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية فى ألمانيا ، ولم يكن الحل من وجهة النظر النازية هو تحقيق العدل والمساواة بين الجميع ، بل كان الحل هو استئصال العنصر اليهودى والقضاء عليه أينما كان وكيفما كان ... وقد كتب هتلر فى كتابه « كفاحى » يقول عن اليهود :

« ان قذارتهم المادية ليست شيئا مذكورا بالنسبة الى قذارة نفوسهم ، فقد اكتشفت مع الأيام أنه ما من فعل مغاير للأخلاق وما من جريمة فى حق المجتمع الا ولليهود يد فيها . واستطعت أن أقيس مدى تأثير « الشعب المختار » فى تسميم أفكار الشعب الألمانى وتخديره وشل حيويته ، بتتبعى نشاطه فى الصحف وفى ميادين الفنون والأداب والتمثيل ، فقـد امتد الأخطبوط اليهودى الى هذه الميادين جميعا وفرض سيطرته عليها ووسمها بطابعه . فمعظم المؤلفين يهود ومثلهم الناشرون والفنانون الخ ... وهذا التغلغل فى كل ميدان من ميادين النشاط التوجيهى يشكل طاعونا خلقيا أدهى من الطاعون الأسود وأشد فتكا ، ذلك أن تسعة أعشار المؤلفات والنشرات والمسرحيات واللوحات الفنية التى تروج للأباحية المطلقة هى من صنع اليهود » ...

هذا نموذج من أفكار هتلر الذى يمثل الموقف النازى فى مواجهتـه لليهود تمثيلا واضحا ودقيقا . ويتضمن هذا الموقف ضد النازية نوعا من الادانة المطلقة الشـاملة لكل يهودى على ظهر الأرض بلا اسـتثناء ، فاليهودى ، لمجرد أنه يهودى يجب التخلص منه وابادته والقضاء عليه من وجهة النظر النازية .

والغريب أن يكون الوجه الآخر للنازية هو الصهيونية ، كل ذلك بعلم

بأن ذاق اليهود ألوانا عنيفة من الاضطهاد على يد النازيين ..

ان الصهيونية تكرر المأساة النازية نفسها ضد العرب ، فالصهيونية تفرض حركة ابادة واضطهاد واسع على العرب فى الأرض المحتلة ، والصهيونية تحاول ان تتوسع فى الأرض العربية على حساب الشعب العربى بكل الأساليب الملتوية .

والنازية كانت تقوم على اعلاء العنصر الالمانى فوق جميع العناصر البشرية ، والصهيونية تقوم على نفس الفكرة ولكن بالنسبة لليهود ، انها تعتمد على فكرة التفوق بالنسبة للعنصر اليهودى على غيره من العناصر البشرية ، ويكفى أن نشير الى عبارة قالها بن جوريون بعد عدوان ١٩٥٦ على مصر ... ان بن جوريون يرى أن هذا العدوان على العرب هو نصر عالمى لم يحققه شعب آخر ، فهو يقول : « لم يكن انتصارنا فى سيناء هو النصر الأكبر فى تاريخ اسرائيل فقط ، بل انه النصر الأكبر فى تاريخ العالم قاطبة » ... ففى هذه العبارة تجسيد واضح للاحساس بالتفوق الكامل على العرب وعلى غيرهم من الشعوب ، وهو نفسه الشعور بالتفوق عند النازيين ، ويصاحب هذا الشعور بالتفوق استعلاء واضح على العرب يلخصه قول كاتب يهودى فى تصريح رسمى له « اننا ننظر الى العرب باستعلاء ، ولا نأخذ أمورهم مأخذا جديا ... ونحن نشعر بالتفوق عليهم ومن الصعب التصور بأن هذا الشعور سيختفى ذات يوم ... »

ويرسم لنا شاعر من زملاء محمود درويش صورة مباشرة قاسية لموقف اليهود من العرب فى قصيدة له بعنوان « انسان مشنوق » ... هذه القصيدة هى احدى قصائد سالم جبران الذى يعش فى الأرض المحتلة ... يقول الشاعر فى المقدمة النثرية لقصيدته « عرضت فى أسواق اسرائيل لعبة للأطفال تصور عربيا مشنوقا » ... ثم يقول الشاعر فى قصيدته ، وهى قصيدة بسيطة مباشرة تضع اصبعها على الجرح بلا مواربة أو مداراة :

انسان مشنوق

أحلى لعبة
أحلى ملهاة للأولاد
تعرض فى السوق
كلا ... ليست فى السوق
فلقد بيعت ... نفدت من أيام
لاتبحث عنها ، وليفهم طفلك
نفدت من أيام
يا أرواح الموتى
فى معتقلات النازيين
الانسان المشنوق
ليس يهوديا فى برلين
الانســان المشنوق
عربى مثلى من شعبى
يشنقه اخوتكم
عفوا ... يشنقه أشباه النازيين
فى صهيون
يا أرواح الموتى
فى معتقلات النازيين
لو تدرون ! ... لو تدرون !

هذه صورة يقدمها لنا شاعر المقاومة ، سالم جبران ، رفيق محمود درويش وزميله فى الفن والمأساة ... ويحس الشاعر احساسا واضحا بتلك العلاقة الوثيقة بين النازية والصهيونية ... ويعبر عن رؤيته للصلة المشتركة بين المذهبين المتعصبين الخاليين من أى نزعة انسانية سليمة .

ومع ذلك كله فان شاعر المقــاومة فى الأرض المحتلة على كثرة مارآه وقاساه يعبر عن نزعة انسانية حقيقية ، انه يعادى الصهيونية ، ويعادى الظلم

الذى تمثله الفكرة الصهيونية وتمثله الدولة الاسرائيلية ، ولكنه لايحمل حقدا على اليهودى كيهودى ، ولايحمل عداء للديانة اليهودية ولا للانسان اليهودى ، ولم أعثر فى أى نص قرأته من أدب المقاومة على حديث يكشف أو حتى يشير من بعيد الى نزعة عنصرية متعصبة عند شعراء المقاومة ، فهم يكرهون الظلم ويحاربونه سواء كان هذا الظلم من أمريكا أو من اسرائيل . ان الدعوة للعداء الشامل لليهودية ليست موجودة عند شاعر المقاومة ، فالعدو عند شاعر المقاومة محدد ومعروف بمنتهى الوضوح ... انه الاستغلال والاحتلال والصهيونية

يقول محمود درويش فى قصيدة له هى « بطاقة هوية » التى أشرنا اليها من قبل :

سـجل
أنا عربى
سلبت كروم أجدادى
وأرضا كنت أفلحها
أنا وجميع أولادى
ولم تترك لنا ... ولكل أحفادى
سوى هذى الصخور
فهل ستأخذها
حكومتكم ... كما قيلا
اذن !
سجل .. برأس الصفحة الأولى
أنا لا أكره الناس
ولا أسطو على أحد
ولكنى اذا ماجعت
آكل لحم مغتصبى

حذار .. حذار .. من جوعى
ومن غضبى !

فهذا المنطق الذى يسود قصيدة محمود درويش هو منطق انسانى سليم ، ليس هو منطق هتلر الذى يكره اليهود ورائحة اليهود واسم اليهود وعنصر اليهود فى أى مكان أو زمان .. ولكن محمود درويش فى قصيدته يكره الاستغلال ، ويرفض موقف اسرائيل من العرب ومن أرضهم وحقوقهم المغتصبة . انه يكره الاستغلال مهما كان مصدره . ثم يعلن أنه كعربى لايكره الناس ، وانما يكره المغتصبين ... لأنهم مغتصبون لا لأنهم يهود .

لم تخرج اذن عواطف شاعر المقاومة عن الحدود الانسانية على الاطلاق ... لم تخرج الى الحقد والثأر والكراهية الشاملة للعنصر اليهودى مثلما نجد فى موقف هتلر ... انها روح انسانية تقف عند حدود المقاومة والتصدى للعدو .

بل اننا نجد فى قصيدة رائعة أخرى لمحمود درويش عنوانها « جندى يحلم بالزنابق البيضاء » حديثا نبيلا ومثيرا عن جندى يهودى . فالشاعر يصور هذا الجندى اليهودى انسانا له أحلام عادية كأى انسان طبيعى ولكنه ضحية من ضحايا العنصرية الصهيونية التى جرته وجرت الكثيرين غيره من اليهود العاديين الى موقف سىء وخاطىء أدى به الى أن يتحول الى جزار للعرب كما كان النازيون جزارين لليهود ... لقد تمزقت نفسية هذا الجندى وتلوثت بسموم الروح العسكرية الاسرائيلية ففقد انسانيته الكامنة فى أعماقه .. يقول محمود درويش على لسان هذا الجندى اليهودى :

انني أحلم بالزنابق البيضاء
بشارع مغرد ومنزل مضاء
أريد قلبا طيبا ، لا حشو بندقية
أريد يوما مشمسا ، لا لحظة انتصار

مجنونة .. فاشية

أريد طفلا باسما يضحك للنهار

لا قطعة فى الآلة الحربية

جئت لأحيا مطلع الشمس

لا مغربها

واننى أرفض أن أموت

أن أحارب النساء والصغار

كى أحرس الكروم والآبار

لأثرياء النفط والمصانع الحربية

وهكذا يستبعد محمود درويش الشاعر العربى الانسان كل عداء بينه وبين هذا المواطن اليهودى العادى ؛ ليصل الى مشاعره الانسانية العميقة ، ويكشف محمود درويش فى قصيدته عن الجانب الانسانى فى هذا الجندى اليهودى الذى شوهته العجلة الحربية وحولته الى سفاح بينما هو فى الحقيقة يحمل قلبا انسانيا وأحلاما انسانية ، ويود لو لم يكن حارسا « للكروم والآبار من أجل أثرياء النفط والمصانع الحربية » .. ويشير محمود درويش الى أن اسرائيل تخدم بوضوح الأثرياء والرأسماليين الغربيين الذين يتاجرون بالمصير الانسانى ولا يهمهم سوى أن تزيد ثروتهم وتزدهر ولو كان ذلك على حساب اشعال الحروب واسالة دماء الملايين

ويكشف محمود درويش فى هذه القصيدة الرائعة نفسها عن التشويه الذى أصاب نفسية هذا الجندى اليهودى ، حيث يصوره لنا الشاعر وقد جلس معه جلسة مصارحة ومكاشفة وجدانية صادقة

يصور لنا محمود درويش فى مقطع من قصيدته كيف اسنطاعت الروح العدوانية أن تسيطر على نفسية عذا الجندى ... فعندما وجه اليه الشاعر سؤالا عن عدد قتلاه قال هذا الجندى :

ـ يصعب أن أعدهم
لكننى نلت وساما واحدا
سألته ، معذبا نفسى ، اذن
صف لى قتيلا واحدا ...
أصلح من جلسته ، وداعب الجريدة المطوية
وقال لى كأنه يسمعنى أغنية :
كخيمة هوى على الحصى
وعانق الكواكب المحطمة
كان على جبينه الواسع تاج دم
وصدره بدون أوسمة
لأنه لم يحسن القتال
يبدو انه مزارع أو عامل أو بائع جوال
كخيمة هوى على الحصى ... ومات
كانت ذراعاه
ممدودتين مثل جدولين يابسين
وعندما فتشت فى جيوبه
عن اسمه ، وجدت صورتين
واحدة ... لزوجته
واحدة ... لطفلته
سألته : حزنت ؟
أجابنى مقاطعا : ياصاحبى محمود
الحزن طير أبيض
لايقرب الميدان . والجنود
يرتكبون الاثم ثم يحزنون
كنت هناك آلة تنفث نارا وردى
وتجعل الفضاء طيرا أسودا !

لقد أصاب التشويه المسموم نفسية هذا الجندى اليهودى ... فلم يعد يعرف الحزن ... ولم يعد يتأثر بمنظر الدم .. ولكن هذا كله يخفى تحته استعدادا انسانيا آخر ، فمن الممكن ولاشك أن يتحول هذا الجندى الى انسان عادى ، يحلم أحلاما عادية .. بعيدة عن القتل والدماء ، وطريق اعادة هذا الجندى الى انسانيته هو انتزاع السموم الصهيونية من نفسه ، وابعاده عن التعصب وذلك بالطبع لن يتم الا بتقويض جميع المبادىء الصهيونية العنصرية التى تقوم عليها دولة اسرائيل . فهذا الجندى اليهودى لاتربطه بفلسطين روابط عميقة ... فلا هو من هذه البلاد ، ولا هى أرض أهله وأجداده ... وكما يقول محمود درويش فى نفس هذه القصيدة على لسان الجندى اليهودى فى حديثه عن علاقته بفلسطين :

وكل مايربطنى بالأرض من أواصر
مقالة نارية ... أو محاضرة
قد علمونى أن أحب حبها ،
ولم أحس أن قلبها قلبى
ولم أشم العشب والجذور والغصون ...

وقد أثارت هذه القصيدة من قصائد محمود درويش اعتراض بعض النقاد ، فهاجمها الأستاذ يوسف الخطيب واعتبرها نوعا من التصوير الزائف للنفسية اليهودية ، وذلك فى مقدمته « لديوان الأرض المحتلة » الذى جمع فيه مجموعة ضخمة من قصائد شعراء المقاومة ... يعلق يوسف الخطيب على هذه القصيدة فيقول :

« أى نمط انسانى ، عجيب حقا ، ذلك الذى جاء من بولندة ، أو رومانيا ، أو اتحاد جنوب افريقيا ، من أجل أن يبحث عن زنابق بيضاء فى الجولان ، أو فى الغور الأردنى أو فى سيناء ... ان هذا الانسان ،

سواء كان فى هيئة عامل أو فى هيئة مزارع ، أو فى هيئة جنـدى يحلم بالزنابق البيضاء ، لايكاد يختلف شيئا عن أيما ضابط هتلرى قام بواجبه العسكرى على أكمل وجه فى ساحة القتال ، أو فى أحد أفران الغاز ثم عاد الى نفسه ليسكر ويبكى ، ويتأمل صورة زوجه وطفله الرضيع اللذين تركهما فى برلين »

ورغم قيمة اعتراض يوسف الخطيب وذكائه ، فاننى لا أوافق عليه ، فالنزعة الانسانية التى يعبر عنها محمود درويش فى شعره تبرر مثل هذه القصيدة وتجعل منها عملا فنيا وفكريا ممتازا ... وموقف محمود درويش هنا يناقض تماما الموقف النازى والموقف الصهيونى ... انه موقف عربى انسانى يريد القضاء على الظلم والعدوان ولا يريد أن يخوض فى دماء اليهود ، كبشر ، أو كأصحاب ديانة ... فليس بينه وبين اليهود مشكلة ، ولكن المشكلة كل المشكلة بينه وبين الصهيونية التى اغتالت مصـالح العرب وضللت نسبة كبيرة من اليهود العاديين أنفسهم

وفى قصيدة محمود درويش الى جانب ما تكشفه من عناصر انسانية فى شخصية الجندى اليهودى كشف للتشويه الذى أصاب هذه العناصر الانسانية وأخفاها ، وحول هذا الانسان اليهودى البسيط الى سفاح ... فليس فى قصيدة محمود درويش اذن سذاجة فنية أو فكرية تدفعه الى أن يثير فى نفوسنا تعاطفا مع الجندى اليهودى ..كلا..ان الشاعر هنا يكشف لنا ذلك الجندى اليهودى بجانبيه : الانسانى وغير الانسانى معا ... ليقول لنا فى النهاية بايحاء فنى عميق ... ان الجانب الانسانى ضاع تحت ضغط الجانب الآخر ، غير الانسانى .. وان هذا الجندى كان من الممكن أن يصبح زوجا وأبا طيبا وعاملا من العمال المنتجين ولكن الصهيونية حولته الى مجرم وقاتل وعدو من أعداء الانسان والحياة .

ومن الضرورى أن نلتفت الى أن محمود درويش قد استفاد من ثقافته الاشتراكية فى تدعيم نظرته الانسانية هذه ، وهى النظرة البعيدة عن أى

عنصرية ترفع الجنس العربى فوق بقية الأجناس والشعوب ، وبعيدة عن أى تعصب ضد اليهود كجنس أو كديانة ... والاشتراكية ترفض كل مظاهر العنصرية والتعصب ، انها نظرية تدعو الى الانسانية والعدالة والاخوة البشرية بكل ما فى هذه القيم من معان رحبة واسعة .

ولا شك أن الثقافة الاشتراكية عند محمود درويش قد قادته الى هذه النظرة الانسانية الشاملة وساعدته على التزام هذا الموقف البعيد عن أى تعصب أو حقد عنصرى .

وموقف محمود درويش هو موقف كل شـعراء المقاومة فى الأرض المحتلة ... انهم انسانيون لا متعصبون .. دعوتهم هى الحرية والعـدل وليست هى الانتقام أو العدوان على الآخرين أو التعالى على شعب من الشعوب .

بدلاً من الحب القاسي

محمود درويش شاعر غزير الانتاج بصورة واضحة ، ومن الطبيعى فى مثل هذه الحالة من الغزارة الفنيـــة أن نلتقى بعـــدد من ظواهر الضعف فى قصائده المختلفة ... ان شاعرية محمود درويش أشبه بالحـــديقة المليئة بالورود ، ولكنها فى نفس الوقت لا تخلو من الأشواك والأعشاب والنباتات الطفيلية المختلفة ،و لعل كثرة الانتاج وسرعته فى الفترة الأخيرة هما المأخذ الرئيسى على محمود درويش من جانب النقاد المختلفين ، فشاعر فى مثل موهبته وأصالته ينبغى عليه أن يرعى هذه الموهبة ويستثمر هذه الأصالة بحرص وحذر وانتباه لكل نبضة من نبضات قلبه وفنه ، ان وفرة الانتاج وسرعته سوف يستتبعان حتما نوعا من الضعف يتسرب الى مثل هـــذا الانتاج ، ولقد كانت هذه ملاحظة عامة ترددت أخيرا حول شعراء الأرض المحتلة جميعا لا حول محمود درويش وحده ... فقد لاحظ الكثيرون أنه منذ سنة ١٩٧٠ والحياة الأدبية تتلقى قصـــائد الأرض المحتلة بوفرة غير مألوفة ، وأنه من خلال هذه الوفرة الشعرية لا يحتفظ الفن بمستواه الجيد على الدوام .

على أن محمود درويش له كشاعر عيوبه الفنية المحـــددة التى ينبغى الاشارة اليها فى أى بحث بعد أن انتهت مرحلة التعرف الأولى على شعره ، ولعل محمود درويش نفسه يطالبنا بذلك فى مقالة مشهورة له بعنـــوان « انقذونا من هذا الحب القاسى » ..

وفى هذه المقالة ينادى بالنظر الى شعر المقاومة بقدر أكبر من الموضوعية والحياد والتخلى عن العاطفية المسرفة ... يقول محمود درويش فى هـــذه المقالة الهامة عن موقف الناقد خارج الأرض المحتلة من الشعر العربى داخل

اسرائيل . « ان الناقد لايزال مشغولا بالفرح الذى يملأه نتيجة اكتشافه هذا الشعر دفعة واحـدة ، ولايزال العطف على الشباب الذين يكتبون الشعر ، فى ظروفهم السياسية الخاصة هو المعيار الأول فى عملية نقـد شعرنا ، وقد يكون لهذا الدافع ما يبرره فى فترة ما ، ولكن امتداد هذه الفترة محاط بالمحاذير التى تخلق نتائج ضارة قد تتطـور الى ما يشبه الخداع ... خداع القراء العرب ، وخداع شعرائنا أنفسهم ... الذين يواجه بعضهم خطر الاحساس بالكمال . ولذلك فان الضرورة تلح على وضع حركة الشعر فى بلادنا فى مكانها الصحيح . والضرورة تلح ، بادىء ذى بدء ، على معاملة هذا الشعر على أنه شعر ، بالتخفيف من تسليط الضوء على شخصيات الشباب الذين يكتبونه ، ولا نعنى بذلك اسقاط الرابطة بين النماذج الشعرية وبين الظروف التى فرزتها أو التى جرت فيها عملبة خلق هذه النماذج ، وانما نعنى أنه آن الأوان لاجراء عملية موازنة ، بالتأكيد على استخدام المعايير الفنية لا السياسية وحدها ، فان الموضوع المطروح على بساط البحث فى آخر المطـاف هو الشعر لا الاخلاص ولا النوايا الطيبة » .

« ... وملخص القول أنه آن الأوان لأن توضع حركتنا الشعرية فى مكانها الصحيح بصفتها جزءا صغيرا من حركة الشعر العربى المعاصر عامة . وذلك يستدعى تخلص الناقد العربى من الخضوع التام لدوافع العطف السياسى وحدها على أصحاب هذه الحركة فلا يكفى هذا الشعر أنه يكتب فى اسرائيل ، ان وضع الحركة فى مكانها الصحيح هو خير طريقة لنموها وتطورها لارتياد آفاق أوسع ، خاصة اذا تذكرنا دائما أنها ما زالت فى المراحل الأولى من الطريق الطويل » .

هذا هو ما ينادى به محمود درويش ويدعو اليه ، وهو نداء صـادق ودعوة حقيقية ... فماذا نجد ــ بعد ذلك ــ فى شعر محمود درويش من أخطاء وعيوب ؟ .. اننا اذا تركنا ديوانه « عصافير بلا أجنحة » ، وهو فى

الجملة ديوان ضعيف سـواء فى تعبيره الفنى أو فيما يضـمه من أفكار وتجارب ، فاننا نلتقى ببعض ظواهر الضعف فى دواوينه الأخرى التى نضج فيها واكتملت له أدواته الفنية والفكرية .

وهذه العيوب والأخطاء نلخصها فيما يلى :

١ ـ فى بعض قصائد محمود درويش نلتقى بنوع من التقريرية التى تشبه أشعار الحكمة المعروفة فى الأدب العربى القديم . ومن أمثلة هذه النزعة التقريرية ما نقرأه فى قصيدة « أمل » المنشورة فى ديوان « أوراق الزيتون » حيث يقول الشاعر :

ما زال فى صحونكم بقية من العسل

ردوا الذباب عن صحونكم لتحفظوا العسل

هنا صـورة تقريرية مباشرة خالية من الجمـال الفنى ، وهى تذكرنا بالتعليمات الأخـلاقية المدرسية مثـل « نم مبكرا واستيقظ مبكرا » و « لا تؤجل عمل اليوم الى الغد » . ان الشرارة الشعرية منطفئة فى مثل هذا اللون من الشعر التقريرى الجاف . ونحن نلتقى بهذا اللون من التقريرية هنا وهناك فى قصـائد محمـود درويش المختلفة وأحيانا تختلط هـذه التقريرية بالخطابة والموسيقى الشعرية الصاخبة ... فتصبح هتافا أو شعارا من الشعارات مثل قوله فى قصيدته « عن الصمود » من ديوانه « أوراق الزيتون » :

الأرض والفلاح ، والأحرار

قل لى : كيف تقهر

هذى الأقانيم الثلاثة ،

كيف تقهر ؟

٢ ـ يخطىء محمود درويش أحيانا فى الأوزان الشعرية رغم حاسته الموسيقية الجميلة الواضحة ... يقـول فى قصـيدة له بعنـوان « عن انسان » :

أخذوا طعامه والملابس والبيارق
ورموه فى زنزانة الموتى
وقالوا : أنت سارق
والبيت الأول مكسور وبه خطأ واضح فى العروض الشعرى .

٣ ــ هناك ألوان أخرى من هذه الأخطاء الصغيرة نجـدها فى شعر محمود درويش ، وخاصة أخطاء اللغة ... فعندما يقول فى قصيدته « قشور البرتقال » :

ــ لا تسكب الصودا بكأسى !
ــ هل تخاف من الفقاعة ؟

هنا نجد الخطأ فى كلمة «الفقاعة» ... فلابد من تشديد القاف حتى تصبح الكلمة عربية صحيحة ، ولكننا اذا نطقناها بهذه الطريقة الصحيحة انكسر وزن البيت ولذلك فلابد أن تنطق بضم الفاء وفتح القاف مع الغاء تشديد هذه القاف ... وهذا خطأ ، فليس فى اللغة العربية كلمة بهذه الصورة .

وفى قصيدته المشهورة « عاشق من فلسطين » يقول محمود درويش :
سأكتب جملة أغلى من الشهداء والقبل :
« فلسطينية كانت ... ولم تزل »

والخطأ هنا فى كلمة « الشهداء » ، فالشاعر يقصد كلمة « الشهد » ومعناها كما تقول المعاجم العـربية « عسل النحل ما دام لم يعصر من شمعه » ... و « الشهداء » بضم الشين وتسكين الهاء لا وجود لها فى اللغة العربية بهذا المعنى .

٣ ــ تلك نماذج من الأخطاء الصغيرة فى شعر محمود درويش ولـكن هناك بعد ذلك مجموعة من الملاحظات الأساسية التى تتصل بجوهر الفن الشعرى .

من هذه الملاحظات أن محمود فى شعره الرومانسى العاطفى ، وخاصة فى المرحلة الأولى من انتاجه الفنى ، يقدم لنا قصائد تكاد تكون تكرارا فى

صورها ولغتها وجوها لما كتبه شعراء الرومانسية القدماء ، فروح التقليد
تسيطر على هذه النماذج بحيث تواجهنا من خلالها أرواح شعراء الرومانسية
من أمثال ناجى وعلى طه والياس أبو شبكة وغيرهم ، ولا يقتصر الأمر
هنا على التقليد العادى ، بل هو تقليد للنماذج الرديئة عند الشعراء
الرومانسيين ... ومن هذه النماذج قصيدة « وهم » المنشورة فى « أوراق
الزيتون » وفيها يقول :

يا ضحكة العينين ، لا تتجبرى
لا ... لن يصدق قلبى الموهوم
أرجوك ! غطى بالوعود بدايتى
ودعى المصير ... كما المصير يروم
أنا عارف أن الرماد نهايتى
مادمت حول لظى الشفاه ... أحوم
لكننى — وحياة أبخل بسمة
يعتز فيها عمرى المهزوم
راض بأى نهاية ما دام فى
حضن الملاك ضريحى المرحوم

فى هذه القصيدة تقليد واضح للرومانسيين فى نماذجهم الضعيفة ، حيث
يعتمد الشاعر على الألفاظ البراقة والصور المزخرفة والمبالغات العاطفية
دون أن تكون لديه تجربة وجدانية حقيقية وصادقة ... فالمرأة ملاك ،
والشفاه ملتهبة كاللظى ، والقلب موهوم ... الخ تلك الصور الرومانسية
العامة الخالية من العمق والايحاء الشعرى والرؤية الوجدانية الخاصة

٤ — ملاحظة أخرى تتصل باستخدام محمود للرموز والأساطير ، فهناك
طريقتان لهذا النوع من الرمز ، الطريقة الأولى هى استخدام الرمز على
أنه نوع من « الاستعارة المحدودة » بحيث يتحول الرمز داخل القصيدة ،
الى رمز جزئى لا يشع على القصيدة ككل ... وهذا طبعا استخدام ضعيف ،

وجزئى للرموز ، أما الاستخدام الآخر فهو أعمق وأكثر شاعرية ، حيث يتجه الفنان الى جعل الرمز محورا لبناء قصيدته كلها ، فعندما نقرأ مثـلا قصيدة بدر شاكر السياب « مدينة بلا مطر » نجد أن الشاعر قد بنى قصيدته الرائعة على رمز أساسى هو رمز مدينة بابل التى تخلى عنها اله الخصب « تموز » ولم يسقط عليها المطر فذبلت المزارع ومات الناس من الظمأ وانتشرت المحنـة ... ان القصيدة كلهـا مبنية على محنـة المدينة المأزومة المحرومة التى تتوسل الى الاله الغاضب ، لتحل النعمة من بين يديه محل اللعنة . والرمز يشمل القصيدة كلها ويشيع فيها كثيرا من النور والفن .

وفى هذا المجال نجد أن محمود درويش من شعرائنا الذين يوفقـون كثيرا فى استخدام الرمز بصورته الثانية ... فيبدو الرمز عنده رئيسيا تدور حوله حركة القصيدة كلها ، ومثال ذلك قصيدته عن « أثينا » بعد اعتقال الموسيقار « تيودوراكس » ... فالمدينة التى اعتقل ملحنهـا تبدو كئيبة مجدبة مختنقة بالشقاء والتعاسة ، وتمتلىء القصيدة بعـد ذلك بالصور المستمدة من هذه الفكرة ، أو من هذا الرمز الذى هو اعتقال الفنان فى المدينة ... ما دام الفنان معتقلا فالحب ممنوع والقهر يفرض سلطانه على كل شىء حتى الأغانى والياسمين والقمر .

ولكن محمود درويش يقع فى أحيان أخرى فى الاستخدام المحـدود السريع للرموز ، ويكتفى باستخدام الرمز الكبير فى صورة جزئية داخل القصيدة ... ويترك الرمز تماما بعد بيت أو بيتين ، وتبدو الصور الجزئية فى ذاتها جميلة ... ولكنها ــ على جمالها ــ تعتبر درجة أقل من درجات الشعر ... ودرجة أقل من درجات الرمز الشعرى الناجح .

يقول محمود درويش فى قصيدته « فى انتظار العائدين » :

وأنا بن عويلس الذى انتظر البريد
من الشمال

ناداه بحار ولكن لم يسافر
لجم المراكب ، وانتحى أعلى الجبال
يا صخرة صلى عليها والدى ، لتصون ثائر
أنا لن أبيعك باللآلى ... لن أسافر
لن أسافر ... لن أسافر !!

فعوليس هنا هو « أوليس » بطل ملحمة الأوديسة المعروفة ، وهو غائب عن أرضه بسبب من السحر الذى نزعه من هذه الأرض وأبعده عنها ، وبعد خروج « أوليس » عاشت زوجته « بنيلوب » وواصلت الانتظار ، رغم الألم والمشقة ومرور الأيام واغراء العاشقتين لها بأن تنساه ، وكان ابن « أوليس » : « تيلماك » يصحب البحار « منتور » للبحث عن أبيه فى شتى المجاهل ... أما بنيلوب فهى تنتظـر : وفية مخلصة لا تنسى بطلهـا وزوجها الغائب الحبيب .

والرمز كما استخدمه محمود درويش ينطبق على قضية فلسطين ... فمحمود هنا وكل عربى فى الأرض المحتلة هو ابن « أوليس » : ابن الشعب المطرود الغائب عن أرضه التى تنتظره وتستعد لعـودته رغم بعد الزمن وشدة القهر والاغراء بالنسيان . والمفـروض أن يرحل الابن وراء أبيه ليبحث عنه ولكن محمود يرفض أن يخرج بحثا عن أبيه ويدعو الى ضرورة التمسك بالأرض والبقاء فوقها ... ولسوف يعود الأب حتما الى أرضه وزوجته الحبيبة وينتصر على الغاصبين .

الأبيات جميلة ولا شك ، والفـكرة الشعرية نفسها خصبة ... ولكن محمود درويش أضاع خصوبة الرمز الذى كان يمكن أن يعطيه قصيدة كاملة تستمد وهجها الشعرى من صـورة أوليس ومحنته ، لقـد اكتفى محمود درويش بالاستعارة فى حدود أبيات ثلاثة ... فأضاع بذلك فرصة استخدام الرمز بصورة شاملة كأساس للقصيدة كلها ... أين وفاء بنيلوب لزوجها الغائب ؟ ولماذا غاب الزوج ورحل ؟ .. لقد كان باستطاعة محمود

بحثا عن الشعر الأفضل ، وعن الاستخدام الأعمق والأدق للرمز أن يبنى قصيدته أساسا على هذا الرمز ، خاصة وأنه يقدم لنا تطويرا فى الأسطورة ... فالابن فى الأسطورة الأصيلة يخرج ليبحث عن أبيه ، ولكن الابن كما يصوره محمود درويش يرفض الخروج ، وهذا الابن يذكرنا من ناحية أخـرى بابن نوح الذى رفض أن يركب مركب أبيـــه وينجو من الطوفان ، فبقى فى أعلى جبل بمدينته وغرق مع هذه المدينة ... وصورة ابن نوح تطل علينا خاصة من هذا البيت « نجم المراكب وانتحى أعلى الجبال » .

هذا الاستخدام الضعيف المحدود للرمز يواجهنا فى عدة قصائد أخرى لمحمود درويش ... انه يكتفى باستخدام الرمز الكبير استخداما عرضيا وجزئيا دون أن يجعل منه محورا وبذرة أساسية للتكوين الشعرى كله . ولو التفت محمود درويش الى هذا العيب فى استخدامه للرموز والأساطير فلسوف يقفز بشاعريته الخصبة قفزات رائعة الى الأمام .

٥ ــ من عيوب محمود درويش الفنية أيضا أننا فى بعض قصائده نحس بوجوه شعراء آخرين تطل علينا وتكون بالنسبة لنا أبرز من وجه محمود نفسه . ويعود هذا الأمر الى سرعة تأثر محمود بما يقرأ ، والمفروض أن يتخلص الشاعر من كل الأصوات الخارجية حتى يبقى له على الدوام صوته الخاص المستقل .

ففى قصيدة « آه .. عبد الله » من ديوان « العصافير تموت فى الجليل » نحس فى بعض الأبيات صوت صلاح عبد الصبور أكثر مما نحس بصوت محمود درويش ، والقصيدة فى جملتها من أرق وأعذب قصائد محمود درويش ، ولا يعيبها الا ما نشعر به أحيانا من تأثير قصيدة « شنق زهران » لصلاح عبـــد الصبور على بعض أجزاء القصيدة ، والفـــكرة العامة فى القصيدتين متشابهة ، « فزهران » هو فلاح مصرى بسيط أعدمه الانجليز فى حادثة دنشواى المعـــروفة . وعبـــد الله أيضـــا هو فلاح عربى قتله الاسرائيليون فى الأرض المحتلة :

يقول محمود درويش بعد شنق عبد الله :

... وتدلى رأس عبد الله
فى عز الظهيرة

ويقول صلاح عبد الصبور بعد شنق زهران :

صنعوا الموت لأحباب الحياة
وتدلى رأس زهران الوديع

وفى فقرة أخرى من قصيدة محمود درويش يقول :

كان عبد الله حقلا
لم يرث عن جده الا الظهيرة
وانكماش الظل والسمرة
عبد الله لا يعرف الا
لغة الموال ، والموال مفتون بليلى
أين ليلى ؟
لم يجدها فى الظهيرة

ويقول صلاح عبد الصبور فى شنق زهران :

كان زهران غلاما
أمه سمراء والأب مولد
وبعينيه وسامة
وعلى الصدغ حمامه
وعلى الزند أبوزيد سلامه
ممسكا سيفا ،وتحت الوشم نبش كالكتابة
اسم قريه
« دنشواى »
شب زهران قويا
ونقيا
يطأ الأرض خفيفا

وأليفا
كان ضحاكا ولوعا بالغناء
وسماع الشعر فى ليل الشتاء

الروح فى المقطعين متشابهة الى حد بعيد...فعبد الله عند محمود درويش لايعرف الا لغة الموال وزهران عند صلاح عبد الصبور « كان ضحاكا ولوعا بالغناء » ... على أننا للانصاف اذا كنا نشعر بروح قصيدة صلاح عبد الصبور فى بعض مقاطع قصيدة محمود درويش ... فان قصيدة محمود فى آخر الأمر تعطينا ــ ككل ــ طعما مختلفا مستقلا رغم التأثر الجزئى بقصيدة صلاح ، وهو تأثر ينبغى على شاعر موهوب أصيل مثل محمود درويش أن يتخلص منه .

نموذج آخر لهذا التأثير بصلاح عبد الصبور أيضا أحسست به فى هذه الأبيات من قصيدة « الموعد الأول » لمحمود درويش :

سنلتقى غدا
ولفها الطريق
حلقت ذقنى مرتين
مسحت نعلى مرتين
أخذت ثوب صاحبى وليرتين
لأشترى حلوى لها وقهوة مع الحليب

هنا لمسة من التأثر بقصيدة « الحزن » لصلاح عبد الصبور :

ورجعت بعد الظهر فى جيبى قروش
فشربت شايا فى الطريق
ورتقت نعلى
ولعبت بالنرد الموزع بين كفى والصديق

والتأثر هنا تأثر « تعبيرى » لأن تجربة الشاعرين مختلفة كل الاختلاف وان كان الشاعران يستمدان صورهما من الاهتمام بتصوير الحياة اليومية

وهو اهتمام شائع فى الشعر الجديد .

ومن نماذج التأثر بالأصوات الشعرية الأخرى ما أحسست به فى بعض مقاطع قصيدة « نشيد الرجال » من تأثر محمود الواضح ببعض قصائد « السياب » حيث يقول محمود درويش :

ذليل أنت كالأسفلت
ذليل أنت
يا من يحتمى بستارة الصخر
غبى أنت .. كالقمر

وفى مقطع آخر من القصيدة نفسها يقول محمود :

سبايا نحن ، نعطيهم بكارتنا
وما شاءوا
لأنهم أشداء
ونرقد فى مضاجع قاتلى أبطال طروادة

فى هذه المقاطع أحسست بشىء من أنفاس قصيدة « مدينة بلا مطر » التى أشرت اليها من قبل وهى قصيدة مشهورة للسياب ... يقول السياب فى هذه القصيدة :

ونحن نهيم كالغرباء من دار الى دار
لنسأل عن هداياها
جياع نحن ... وا أسفاه ؟ فارغتان كفاها
وقاسيتان عيناها
وباردتان كالذهب

فقول محمود درويش « غبى أنت ... كالقمر » يذكرنى على الفور بقول السياب « باردتان كالذهب » وقول محمود « سبايا نحن ، نعطيهم بكارتنا .. وما شاءوا » يذكرنى بقول السياب « جياع نحن وا أسفاه ! فارغتان كفاها » ... النغم واحد وروح التعبير واحدة ، وان كانت

التجربتان بعد ذلك مختلفتين كل الاختلاف .

وهناك بيت لمحمود درويش فى قصيدته « قصائد عن حب قديم » يقول فيه « وقلبى بارد كالماس » وهذه الصورة قريبة جدا من قول السياب « باردتان كالذهب » .

على أن تأثر محمود درويش بالسياب يتضح أكثر أمامنا فى قصيدة محمود درويش « تموز والأفعى » ففى هذه القصيدة نفس الفكرة والعلاج الفنى الذى نجده فى قصيدة « مدينة بلا مطر » للسياب حيث تقوم القصيدتان على فكرة واحدة هى فكرة المدينة التى تخلى عنها اله الخصب « تموز » فأجدبت وأقفرت وأخذ نساؤها وأطفالها يتوسلون الى الاله أن يعيد الخصب الى الأرض ، وتنتهى القصيدة عند السياب بعودة الخصب ، أما قصيدة محمود درويش ففيها تبقى المدينة مقفرة مجدبة بعد أن تخلى عنها تموز ... وروح القصيدتين متشابهة تماما وان كانت قصيدة السياب أكثر عمقا وأرقى فى بنائها الفنى من قصيدة محمود درويش .

قد تبدو شبهة التأثر فى هذه النماذج كلها محدودة بل ومقبولة ومبررة أيضا ، ولكن ما أعنيه عموما هو أن الشاعر القادر ينبغى أن يتخلص من الأصوات الشعرية التى تفرض نفسها عليه من خارجه ... وهذه الأصوات الخارجية تبدو واضحة فى بعض قصائد محمود درويش وهو الأمر الذى ننتظر منه أن ينتبه اليه ويقضى عليه .

٦ ــ يستسلم محمود درويش أحيانا للاستطراد أو مانسميه باسم « التداعى الحر » بصورة تحتاج الى المراجعة ، يقول محمود فى قصيدته عاشق من فلسطين :

خذينى تحت عينيك
خذينى ، أينما كنت
خذينى ، كيفما كنت

أرد الى لون الوجه والبدن
وضوء القلب والعين
وملح الخبز واللحن

ان الشاعر هنا يستسلم لدعوته الى أرضه أو حبيبته أن تأخذه ... فيكتب بيتا من الشعر الحقيقى هو « خذينى تحت عينيك » ولكنه يكتب بعد ذلك ـ استطرادا ـ بيتين لا شعر فيهما ولا ضرورة لهما هما : «خذينى أينما كنت» و « خذينى كيفما كنت » ... فهذا البيتان خاليان من الشعر ، ولا ضرورة لهما ، بل انهمـا يبددان التركيز الجميل الذي يتمتع به البيت الأول : خذينى تحت عينيك ـ الشاعر هنا مطالب بأن يبقى على الشعر ويحذف أى شىء سواه ... والشاعر مطالب بألا يستسلم للكلمات أو للانغام ففى ذلك ضرر فنى واضح لا شك فيه .

وفى مطلع مشهور من نفس القصيدة يقول محمود :

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الأحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الكلمات والصمت
فلسطينية الصوت
فلسطينية الميلاد والموت

من الواضح هنا أن الشاعر « استعذب » كلمة فلسطينية . فكررها تكرارا كميا لا ضرورة له لأن التركيز هنا أجدى وأكثر قدرة على الايحاء بالمعنى الذى يريده الشاعر ، فلو استمر محمود فى أوصافه بهذه الطريقة لوضع بعد كلمة « فلسطينية ... » كل صغيرة أو كبيرة تتصـل بجسم حبيبته التى ترمز لوطنه ... كان يستطيع أن يضيف الى أوصافه أنهـا « فلسطينية الرموش والأجفان والشعر والأظافر ... » وهذا مايوحى به استطراده غير الدقيق ، فالشعر الحقيقى لايمكن أن يتوفر من خلال هذا

الاستطراد البالغ ، ولكن الشعر يولد من التركيز والانتقاء والاختيار ولو اكتفى الشاعر بقوله « فلسطينية العينين والوشم ... » لكان ذلك أكثر شاعرية وتأثيرا على النفس من كل ماجاء بعد هذا الوصف من صور أخرى ، والحقيقة أن محمود درويش قد انتبه فى انتاجه الأخير الى قضية التركيز هذه انتباها واضحا حيث يسيطر فى شعره الأخير على تداعى الصور والألفاظ ولا يستسلم لاغراء الاستطراد .

٧ ــ الملاحظة الأخيرة تتصل بغموض بعض أشعار محمود الجديدة ... فاذا كان الغموض عنده فى معظم أشعاره الأخيرة له دلالته العميقة كما ناقشنا ذلك فى فصل سابق عن « الغموض والتصوف » ، فان الغموض فى بعض نماذجه الشعرية لايعطى للقارىء شيئا على الاطلاق ، بل يبدو مغرقا فى جفافه وعتمته ، وهو غموض لايلقى علينا شعاعا واحدا من النور . وهذا النوع من الغموض ينبغى أن يتخلص الشاعر منه ... ومن نماذج هذا الغموض الخالى من الايحاء والنبض والعطاء الشعرى الانسانى قصيدة لمحمود بعنوان « الدانوب ليس أزرق » يقول فيها :

هى لا تعرفه
كان الزمان
واقفا كالنهر فى جثته
قالت له :
عندى مكان
كان ذاك اليوم صيفيا
وكان العاشقان
يستردان من الرزنامة الأولى
حساب الشمس
كان الأمس
والحاضر كان

هى لاتعرفه
قالوا لها : يأتى مع النهر
الذى يأتى مع الفجر
وكان التوأمان
ضفتى نهر ... يسيران معا
أو يقفان
وهما ... لايعرفان

هذه بعض مقاطع من القصيدة ... وهى قصيدة مغلقة سواء فى دلالتها الجزئية أو فى دلالتها العامة ... انها لاتعطينا سرها بسهولة ولا بصعوبة . وهذا النوع من الغموض يواجهنا فى بعض شعر محمود درويش ... وهو غموض ينبغى أن يتخلص منه الشاعر وأن يبقى على غموضه الآخر ... غموضه الصوفى العميق الذى يشدنا معه الى عالم من الجمال والاحساس الصادق ... وهو عالم له أسراره أيضا ولكنها أسرار مكشوفة أمام القلوب الحساسة والنفوس المرهفة .

اتهامات ظالمة

فى صيف عام ١٩٦٨[١] وجهت بعض الصحف العربية اتهامات عنيفة الى محمود درويش وزميله الشاعر سميح القاسم . وخلاصة هذه الاتهامات أن الشاعرين العربيين قد اشتركا فى الوفد الاسرائيلى فى مهرجان الشباب فى صوفيا عاصمة بلغاريا ، وهو المهرجان الذى عقد فى صيف عام ١٩٦٨ ، وقالت الاتهامات التى انصبت على رأس الشاعرين أنهما كانا يحملان « الباسبور » الاسرائيلى ويسيران وراء العلم الاسرائيلى وأنهما فى أحاديثهما المختلفة قد هاجما العدوان الاسرائيلى الأخير على الأراضى العربية ولكنهما لم يطالبا بازالة الكيان الاسرائيلى كله .

هذه هى التهم الموجهة الى محمود درويش وزميله سميح القاسم ، واذا كان محمود درويش وزميله يحتلان الان مكانا بارزا فى الحركة الأدبية العربية المعاصرة عموما ، ويحتلان مكانا بارزا فى أدب المقاومة العربى على وجه الخصوص ، كل ذلك لأنهما شاعران موهوبان يكتبان بحرارة وأصالة عن قضية فلسطين ، وهما يكتبان من موقع خاص يتيح لهما أن يعيشا هذه القضية بصورة عنيفة قاسية فهما من بين المواطنين العرب الذين يقيمون داخل اسرائيل .. اذا كان محمود درويش وزميله يمثلان هذا كله فان هذه التهم الموجهة الى الشاعرين تمثل نوعا من الصدمة العنيفة للمواطنين العرب الذين قرأوا محمود درويش وسميح القاسم ووضعوهما موضع التقدير والاحترام واعتبروهما مثالا للفنانين المناضلين المؤمنين بقضية العرب ايمانا عميقا .

---

(١) كتبت هذا الفصل فى الطبعة الاولى من الكتاب وكان محمود درويش آنذاك ما زال يعيش داخل اسرائيل ، وقد أبقيت على هذا الفصل كما هو باعتباره تصويرا لجانب من حياة محمود درويش قبل خروجه من الارض المحتلة .. أما قضية خروجه من اسرائيل فقد تعرضت لها بالمناقشة فى الفصل التالى من هذه الطبعة الجديدة

والواقع أننا اذا نظرنا نظرة دقيقة وأمينة الى التهم الموجهة الى محمود درويش وزميله فاننا سنجدها صادرة عن مصدرين لا ثالث لهما :-

المصدر الأول ، هو الرغبة الشائعة عند بعض الصحفيين والكتاب فى تحطيم النفسية العربية ، وذلك بتلطيخ كل الصور الجميلة المشرقة التى برزت فى حياتنا بعد نكسة ٥ يونيو ، وهذه النفسية .. نفسية التدمير والتحطيم والتشويه هى نفسية يغذيها أعداؤنا ويستسلم لها هؤلاء الذين فقدوا الثقة فى كل شيء وفقدوا الايمان بأى شيء ، واعتبروا أن كل شيء بعد النكسة « باطل الأباطيل » وأصبحوا خاضعين لشعور أشبه « بالرغبة فى الانتحار » .. كما يستسلم لهذا النوع من التفكير والشعور بعض العناصر المغرضة صاحبة الهوى والمصلحة والتى لاتحب أن ترى الأمة العربية وقد أفاقت من صدمتها ووقفت على قدميها بعد أن سقطت فى احدى معاركها القاسية .

أما المصدر الثانى ، الذى تصدر عنه هذه التهم الموجهة الى محمود درويش وزميله سميح القاسم فهو ولاشك مصدر كامن فى العقلية العربية نفسها . فكثيرا مايستسلم العقل العربى للعاطفة الهوجاء والانفعال الجامح ، وذلك بدلا من التزام التفكير الموضوعى الدقيق وقياس الأمور بحساب وشمول واحاطة بمختلف الظروف .

وقضية محمود درويش وزميله هى خير مثال على حاجتنا الكاملة الى رفض أصحاب النفسيات المشوهة الذين يريدون أن يحرموا أمتنا من أى بطولة ويستكثروا عليها أن يوجد بينها نموذج انسانى نقى ، أو زهرة ناضرة تنبت فى أى أرض عربية ، فهم ينزعجون من هذا كله ويسارعون الى تشويه كل شيء اذا أتيحت الفرصة لذلك التشويه ، كما أن قضية محمود درويش وزميله سميح القاسم هى فرصة أيضا لمواجهة طريقة التفكير العربى الذى يعتمد على الانفعال السريع لا على المنطق والفهم والاحاطة والشمول .

ونعود بعد ذلك الى أصل القضية التى خلقت هذه العاصفة من الاتهام

ضد محمود درويش وزميله .

وتبدأ القضية فى صوفيا ، فى مهرجان الشباب الذى عقد فى صيف ١٩٦٨ ، فقد رفضت ادارة المهرجان اشتراك أى وفد رسمى من اسرائيل فى هذا المهرجان بناء على طلب الوفود العربية المختلفة ، ولأن بلغاريا من ناحية أخرى قد قطعت علاقاتها السياسية باسرائيل بعد عدوان يونيو عام ١٩٦٧ . ولكن ادارة المهرجان قبلت أن تشترك اسرائيل بوفد شعبى لا علاقة له بالسلطات الاسرائيلية . وجاء هذا الوفد بالفعل ، وكان مكونا من الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، كما كان معظم أعضاء هذا الوفد من الشباب العربى المرتبطين بالحزب الشيوعى الاسرائيلى .

ونقف هنا لحظة لنتعرف على نوع العلاقة بين العرب فى الارض المحتلة وبين الحزب الشيوعى الاسرائيلى . فهذا الحزب هو أكثر الأحزاب السياسية اتصالا بالعرب المقيمين فى داخل اسرائيل ، وقد حدث بعد عدوان يونيو عام ١٩٦٧ أن انشق العرب أو معظمهم عن الحزب الشيوعى ليكونوا جناحا خاصا بهم فى هذا الحزب . والحقيقة أن العرب لم يرتبطوا بالحزب الشيوعى الا بعد أن ضاقت بهم الحياة السياسية فى اسرائيل ، حيث لم يستطيعوا تكوين تنظيم سياسى مستقل خاص بهم فقد رفضت السلطات الاسرائيلية — كما أشرنا فى الفصل الأول — أن تسمح بمثل هذا التنظيم السياسى العربى المستقل ، وعندما أقيم تنظيم « الأرض » وهو التنظيم الوحيد الذى أنشأه العرب والتفوا حوله ، قامت السلطات الاسرائيلية بحل هذا التنظيم وتحريمه تحريما كاملا مما اضطر معظم العرب المشتركين فى هذا التنظيم الى أن ينضموا للحزب الشيوعى الاسرائيلى مادام هو الحزب الوحيد الذى يمكن أن يسمح للعرب بالانضمام اليه وبذلك وجد العرب « غطاء شرعيا » لنشاطهم السياسى وتنظيمهم السياسى الممنوع .

ومن المعروف أن الجناح العربى فى الحزب الشيوعى الاسرائيلى يتكون فى معظمه من منظمة « الأرض » العربية ، وتحت لواء الحزب الشيوعى الاسرائيلى يعيش الشاعران محمود درويش وسميح القاسم حياتهما

السياسية مع عدد كبير غيرهما من الأدباء العرب فى اسرائيـــل ، ومن خلال ارتباط الشاعرين بالحزب الشيوعى الاسرائيلى ، خرج الشاعران فى الوفد الشـــعبى الاسرائيلى الى مهرجان صـــوفيا . والجناح العربى للحزب الشيوعى فى الأرض المحتلة يقوده شخصيتان عربيتان هما « اميل حبيبى » و « توفيق طوبى » كما يشترك بعض اليهود بنسبة ضئيلة فى تأييد هذا الجناح العربى وعلى رأس هؤلاء اليهود المؤيدين للجناح العربى فى الحزب الشـــيوعى فى اسرائيل الســـياسى اليهودى « فيلنر » الذى أدلى فى ٩ يونيو سنة ١٩٦٩ بتصريح مشهور قال فيه :

« ان رجال المقاومة الفلسطينية يشنون كفاحا عادلا فى جهودهم لتحرير الأراضى العربية التى احتلتها اسرائيل ، ومن الطبيعى أن تعمد أمة تقع أجزاء منها تحت يد الاحتلال الى مقاومة الاحتلال ، وآذا كانت منظمة فتح تكافح لتحرير الأراضى المحتلة فان كفاحها يكون كفاحا عادلا » .

ولا يمكن لأى تفكير سليم أن يرفض ارتباط محمود درويش وزملائه بالحزب الشيوعى الاسرائيلى ، مادام هذا الحزب — كما أشرنا — هو الحزب الوحيد الذى يفسح للعرب فرصة الانضمام اليه بسهولة ، ومادام تنظيم « الأرض » العربى ممنـــوعا من السلطات الاسرائيلية ومادام من الممنوع اقامة أى تنظيمات ســـياسية عربية أخـــرى ، ومادام العـــرب بانضمامهم الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى يستطيعون ان يجدوا فرصة للحركة السياسية بالنسبة لقضيتهم مهما كانت هذه الفرصة ضيقة ومحدودة مادام هذا كله صحيحا فلا معنى للاعتراض على انضمام محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من الشعراء والكتاب العرب الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى . ومن الواضح تماما أن انضمام هذا العدد من المثقفين والفنانين العرب الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى لم يطمس أبدا وعيهم بقضـــيتهم القومية الخاصة ، حتى بالنسبة لهؤلاء العرب الذين انضموا الى الحزب الشيوعى ايمانا منهم بالعقيدة الماركسية نفسها ، فالماركسية فكرة عالمية

ولها أنصارها فى شتى أنحاء العالم ولا يوجد مايمنع من أن يكون بين العرب فى الأرض المحتلة من آمن بهـذه الفكرة واعتنقهـا وانضم على أساسها للحزب الشيوعى الاسرائيلى .

على أننا نستطيع أن نعرف حقيقة العلاقة بين العرب فى الأرض المحتلة وبين الحزب الشـيوعى الاسرائيلى عندما نقرأ ماكتبه أحـد المثقفين والثوريين العـرب فى داخل الأرض المحتلة ، وهو صـبرى جريس المحامى ، وذلك فى كتابه المعروف عن « العرب فى اسرائيل » .. حيث يقول عن الحزب الشيوعى الاسرائيلى : « لقد لعب الحزب الشـيوعى الاسرائيلى دورا فريدا من نوعه فى التاريخ السياسى لعرب اسرائيل ... فباتخاذ هذا الحزب جانب المعارضة بعد وقت قصير من قيام الدولة ، أصبح المدافع الرئيسى عن حقوق العرب فى البلاد ، فلقد استولى الحزب على زمام المبادرة فيما يتعلق بكل النشاطات السياسية والاجتماعية التى أيدتها المعارضة العربية تجاه سياسة الاضطهاد التى اتبعتها حكومات اسرائيـل المختلفة تجاه العرب خاصة فى فترة سنوات الفوضى الثلاث أو الأربع بعد قيام اسرائيل . ولقد استعان الحزب أيضا بأوساط عربية مختلفة اضطرت لعدم وجود سبيل آخر وبقصد مجابهة مؤامرات السلطات للتعاون مع هذا الحزب غير أن نصيب الأسد من هذا النشاط نظمته ونفذته مؤسسات هذا الحزب الخاصة كما أن صحف الحزب الشيوعى ، خاصة الناطقة بالعربية تعبر بصدق عن مشاكل عرب اسرائيل » .

ويواصل صبرى جريس حديثه عن الحزب الشيوعى الاسرائيلى فيقول: « ومما لاشك فيه أن الحزب الشيوعى وصل الى أعلى مراتب تأثيره بين العرب فى اسرائيل عام ١٩٥٨ ذلك أنه فى تلك الفترة أيدت الشـيوعية الدولية تأييدا كاملا الحركة القومية العربية التى انتصبت فى ذلك الوقت لتكافح الاستعمار الغربى وعملاءه فى الشرق الأوسط وخاصة بعـد اقامة الجمهورية العربية المتحدة « وحدة سوريا ومصر » ففى تلك الفترة رفع

الحزب الشيوعى الاسرائيلى أغلب شعارات الحركة القومية العربية بما فى ذلك حق تقرير المصير لعرب اسرائيل حتى الانفصال » ويواصل صبرى جريس حديثه فيقول : « ان هناك أسبابا خارجية أدت الى تغيير الصورة تغييرا جذريا والى قلب الأمور رأسا على عقب .. ففى تلك الفترة « أى عام ١٩٥٨ وما بعده » غيرت الأحزاب الشيوعية فى البلاد العربية موقفها من الحركة القومية العربية وخاصة الشيوعيين السوريين ، برئاسة خالد بكداش الذين بدأوا نشاطهم ضد الجمهورية العربية المتحدة مما أدى الى شقاق بين الطرفين .. هذا الوضع الجديد أدى فى الحال الى تغيير فى موقف عرب اسرائيل ، وهكذا بدأ أكثر القادة العرب والجماهير العربية يتركون الحزب والتعاون السياسى معه من هـذا الموقف الذى يشرحه صبرى جريس يتضح لنا أن معظم العرب فى داخل اسرائيل يضعون قضيتهم العربية القومية فى الاعتبار الأول ، وهم اذا انضموا الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى فانما يفعلون ذلك من أجل خدمة هذه القضية والدفاع عنها ، واذا اختلفوا مع الشيوعيين حول هذه القضية فانهم ينسحبون من الحزب كما حدث فى عام ١٩٥٩ أو يحاولون تكوين جناح مستقل لهم كما حدث عام ١٩٦٧ عندما وجدوا أن نضالهم يجب أن يكون أشمل وأوسع مدى وأقل قيودا فى المرحلة التى تلت عدوان يونيو عام ١٩٦٧ .

هذه الحقائق كلها تكشف لنا عن طبيعة الظروف السياسية التى تحيط بالعرب والتى تفرض عليهم التعاون مع الحزب الشيوعى فى سبيل خدمة قضيتهم القومية ، وهذا هو الوضع السياسى الذى يعيش فى ظله محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من الشعراء العرب الشبان فى الأرض المحتلة فهم لايستطيعون الحركة الا فى اطار « شرعية سياسية » لا تتوفر لهم الا تحت حماية الحزب الشيوعى الاسرائيلى بصورة أو بأخرى ..

وفى ظل هـذا الارتبـاط بالحزب الشـيوعى الاسرائيلى خـرج الشاعران الى صوفيا للاشتراك فى مهرجان الشباب ، وكان هدفهما كما

قالا لعدد من الشبان العرب الذين اتصلوا بهما هو أن يتعرفا على غيرهما من الشباب العربى ، وأن يتصلا بشباب العالم ، ليشرحا قضية العرب ويلفتا النظر اليها وليس من المعقول أن يطلب من الشاعرين أن يظلا داخل أسوار اسرائيل اذا ما أتيحت لهما مثل هذه الفرصة ليخرجا الى العالم ، ففى هذا الخروج مزيد من التجربة بالنسبة لمحمود درويش وزملائه ، كما أنه فرصة واضحة لخدمة القضية العربية الفلسطينية من خلال هذا المهرجان العالمى .

وتتركز التهم بعد ذلك فى أن محمود درويش وزميله كانا يسيران وراء العلم الاسرائيلى ويحملان « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيليه « ليسيه باسيه » وفى مجال الرد على هذا الاتهام ينبغى أن نسأل : ماذا يحدث لو رفض الشاعران أن يسيرا وراء العلم الاسرائيلى ؟ .. الاجابة ببساطة هى أن الشاعرين سوف يمنعان من دخول اسرائيل بعد ذلك ، وكان عليهما فى هذه الحالة أن يلجآ الى احدى العواصم العربية ، ولاشك أن أى عاصمة عربية سترحب بمحمود درويش وزميله ، لأنها تعرف قيمتهما ، وتعرف نضالهما وتعرف أن كل حرف يكتبانه هو من أجل فلسطين وحريتها ومن أجل شعبها العربى ، وتعرف أيضا أن الشاعرين قد « تخرجا » فى سجون اسرائيل ، وأنهما تعرضا بكثرة للاضطهاد السياسى والأدبى والجسدى من السلطات الاسرائيلية .

كان من الممكن أن يجىء محمود درويش وسميح القاسم الى القاهرة أو يذهبا الى بيروت أو دمشق أو الى أى عاصمة عربية أخرى وسوف يلقيان بلا شك كل ترحيب وتقدير .

ولكن ماذا تكون قيمة هذا التصرف من جانب الشاعرين ؟ .. هل خروجهما من اسرائيل فى مصلحة القضية العربية أو أنه فى مصلحة اسرائيل ان هذين الشاعرين هما فى طليعة العناصر القيادية لثلاثمائة ألف عربى مازالوا يقيمون حتى اليوم داخل أسوار اسرائيل . فماذا تكون النتيجة

لو تخلى هذان الشاعران عن أرض المعركة الأصلية ؟ .. هل يكون خروجهما من اسرائيل ، حيث يقيمان الان ، نوعا من الكفاح والنضال أو أنه فى حقيقته نوع من الهروب ؟ .. ان أى تفكير سليم يقول ان خروج الشاعرين من اسرائيل هو خسارة كبيرة للقضية العربية ، واضعاف للعرب الذين يقيمون فى قلب المأساة الحقيقية ويدافعون عن البقية الباقية من الأرض العربية فى داخل اسرائيل ، وخروج الشاعرين من اسرائيل فيه راحة شخصية لهما وسلام وطمأنينة ، ولكن بقاءهما هناك حيث يتعرضان بين يوم وآخر للاضطهاد المستمر ، ويقاومان ويكتبان أشعارهما من واقع المأساة نفسها .. هذا البقاء وسط النيران الملتهبة هو النضال الحقيقى الذى من أجله احتل محمود درويش وزملاؤه مكانتهم فى قلوبنا وفى تاريخنا السياسى والأدبى .

وخروج محمود درويش وزميله من اسرائيل ، هو من ناحية أخرى ، هدف تسعى اليه اسرائيل نفسها ، انها تغرى العرب هناك بالخروج والهجره وترهبهم اذا فقد الاغراء جدواه فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، وخاصة اذا كان هؤلاء العرب من العناصر القيادية مثل محمود درويش . ان اسرائيل تبذل كل جهدها للتخلص من ثلاثمائة ألف عربى مازالوا باقين فى اسرائيل ، وللقضاء على وجودهم بصورة نهائية ، فهذا الوجود العربى داخل اسرائيل هو نقطة الانطلاق بالنسبة للمستقبل العربى ، انه البذرة الخصبة التى سوف تثمر فى المستقبل حرية لكل الأرض العربية الفلسطينية ولكل الشعب العربى الفلسطينى . والسلطات الاسرائيلية تسعى بكل جهدها لكى تقضى على هذه البذرة العربية ، حتى لا تثمر فى المستقبل أى نوع من الثمار . وحتى ينتهى الخطر الذى يهدد المستقبل الاسرائيلى ، وفى هذا المجال يكفى أن نتذكر ذلك التصريح الذى أدلى به أحد كبار الموظفين الاسرائيليين والذى أشرنا اليه فى الفصل الأول ، حيث يقول هذا الموظف الاسرائيلى عن العرب فى اسرائيل :

« يجب تضييق خطواتهم ، وأخذ الأراضى منهم ، واذا أنهى عربى مدرسة ثانوية أو جامعة يجب أن ندعه يتسكع ثلاث أو أربع أو خمس سنوات ، وأن يقع فريسة اليأس ويدرك ألا مكان له فى هذه البلاد ويبحث لنفسه عن بلد آخر » . هذه هى السياسة الاسرائيلية ازاء العرب كما يعبر عنها موظف اسرائيلى مسئول . فهل يخرج محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من اسرائيل ؟ .. أليس خروجهما مساعدة للسلطات الاسرائيلية على تحقيق أهدافها وتطبيق سياستها نحو العرب ؟ .. ان اسرائيل مستعدة أن تقدم جميع التسهيلات والمساعدات حتى يخرج منها شاعران لامعان مثل محمود درويش وسميح القاسم ، يرفعان صوت العرب فى الأرض المحتلة عاليا ويعبران عن مشاكل هؤلاء العرب تعبيرا أمينا وصادقا وثوريا، ويجسدان لأول مرة وبصورة رائعة أمام العالم وجود العرب فى الأرض الفلسطينية المحتلة ، بعد أن كان هذا الوجود معنى غامضا لاتجسيد له .

وتحضرنى فى هذه المناسبة قصة معروفة فى التاريخ الأدبى العالى وهى قصة غزو نابليون لألمانيا فى القرن الماضى ، لقد دخل نابليون « ويمار » احدى الأمارات الالمانية ، حيث كان يقيم الاديب الالمانى الكبير « جيته » .

وكان باستطاعة « جيته » أن يهرب من « ويمار » ومن وجه نابليون الذى احتل بلاده وغزاها ، وكان باستطاعة « جيته » أن يجد حياة مناسبة واستقبالا رائعا لو أنه هرب الى انجلترا مثلا وهى عدوة نابليون الأولى ، ولكنه رفض ذلك رفضا كاملا وفضل البقاء فى بلده المهزوم ، بل لقد التقى بنابليون الغازى والمحتل لبلاده . ومع ذلك لم يقل أحد عن «جيته» انه خان بلاده بلقائه مع نابليون ، وانه عاون الاحتلال الفرنسى لأنه رضى أن يبقى فى وطنه فى ظل هذا الاحتلال . ولاشك أن « جيته » قد شاهد العلم الفرنسى يرفرف فوق كل مكان فى بلاده ، ولاشك أنه التقى بنابليون فى مكان ارتفعت فوقه الراية الفرنسية لا الالمانية .. ومع ذلك لم يكتب عنه أحد أنه خائن لألمانيا وعميل للفرنسيين ، وذلك لأن موقف « جيته »

أتيح له أن يجد الذين ينظرون اليه بالعقل والتفكير المنطقى السليم لامن ينظرون اليه بالانفعال السريع المتشنج . القضية كلها واضحة تمام الوضوح أمام الشاعر محمود درويش وزملائه . فيكفى أن نقرأ شعر محمود وشعر زملائه بشيء من الفهم والوعى حتى نجد أن موضوع « التمسك بالأرض الفلسطينية » والبقاء فوق التراب الفلسطينى هو موضوع أساسى وعزيز عند هؤلاء الشعراء الى أبعد الحدود . انهم يتمسكون ببقائهم فوق هذه الأرض ، حتى ولو فرضت عليهم الظروف القاسية أن يحملوا « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيلية وأن يمشوا وراء العلم الاسرائيلى . فهذا كله أهون عليهم من أن يتركوا الأرض العربية للاسرائيليين ويرحلوا عنها .

فمحمود درويش عندما يتحدث عن حبيبته يقول :

فلسطينية كانت ولم تزل .

فهو يعتز بحبيبته لأنها متمسكة بأرضها متمسكة بصفتها الفلسطينية ، ولم تتخل عنها لترحل الى أرض أخرى ، وحتى لو كانت أرضا عربية قريبة وشقيقة لأرض فلسطين . ومحمود درويش عندما يحدثنا عن شخصية الأب فى شعره فهو يؤكد لنا أن شخصية الاب تجد رسالتها فى منع أولاده من الهجرة ، وفى دعوتهم للبقاء .. ففى قصيدته « أبى » التى أشرنا اليها من قبل يقول محمود درويش :

غض طرفا عن القمر
وانحنى يحفن التراب
وصلى . . .
لسماء بلا مطر
ونهانى عن السفر
وأبى قال مرة
حين صلى على حجر !

غض طرفا عن القمر
واحذر البحر ... والسفر
وأبى قال مرة
الذى ماله وطن
ماله فى الثرى ضريح
ونهانى عن السفر

والتمسك بالأرض والحرص عليها نغمة أساسية فى شعر محمود درويش فهو يقول عن وطنه وأرضه :

وطنى ليس قصة أو نشيدا
ليس ضوءا على سوالف فله
هذه الأرض جلد عظمى .. وقلبى
فوق أعشابها يعيش كنحلة ...
وهو يقول أيضا فى قصيدة أخرى :
يا صخرة صلى عليها والدى ، لتصون ثائر
أنا لن أبيعك باللآلى .. لن أسافر
لن أسافر ... لن أسافر

فمحمود درويش هو « شاعر الأرض المحتلة » ، شاعر التمسك بالأرض ، شاعر العشق لكل أعشابها وصخورها ، شاعر الأظافر المغروسة فى التراب حرصا عليه وايمانا به وتمسكا بكل ذرة فيه .. انه ابن هذه الأرض ، وقصائده تنبت فوقها كما ينبت الزيتون ، ومشاعره كلها ، وعقائده كلها مرتبطة كل الارتباط بهذه الأرض .. فكيف يتركها للعدو ، وكيف يرحل عنها وهو يغنى لها بكل هذا الحب والعمق ، والولع والعشق الصوفى الأصيل .. اننا لا نكاد نجد شاعرا غنى للارض الفلسطينية مثلما غنى لها محمود درويش .. انه شاعر هذه الأرض المحتلة التى تريد أن تتحرر . والتى ينبض كل حرف من قصائده بدعوة التمسك بها وتحريرها فى

آن واحد .

على أننا نجد عند سميح القاسم زميل محمود درويش وصديقه صدى لتلك النغمة .. نغمة التمسك بالأرض الفلسطينية والبقاء والاستمرار فوقها وان كان الاهتمام بالأرض قد بلغ ذروته الفنية والفكرية عند محمود درويش بالذات ، حيث يهتم سميح بقضايا أخرى مختلفة وحيث تتفجر موهبته مع قضايا أخرى أرجو أن أشير اليها فى دراسة مستقلة . ومع ذلك كله ففى شعر سميح القاسم تعبير واضح عن التمسك بالأرض، ففى الهجرة من هذه الأرض تبدأ الكارثة العامة ، ولقد كان خروج العرب عام ١٩٤٨ أمام الارهاب الاسرائيلى عنصرا من أكبر العناصر التى خلقت المأساة الفلسطينية فى البداية .

وأحب قبل أن نقف مع شعر سميح القاسم وهو يعبر عن تمسكه بالأرض مهما كانت العواصف والزوابع ، أن نقرأ هذه الكلمة التى كتبها سميح عام ١٩٦٥ ونشرتها احدى الصحف الاسرائيلية ، وكانت هذه الرسالة تعليقا على ديوان سميح الثانى « أغانى الدروب » .. يقول سميح فى كلمته

« أصدرت فى الآونة الأخيرة مجموعة شعرية عن حياة العرب فى اسرائيل وعن النضال فى سبيل الحرية عامة . وكنت أتوقع أن قصائدى هذه ستحدث رد فعل منعكسا لدى فريق من القراء : تقدميين ورجعيين وقد صدق ظنى . اذ راحت بعض الصحف اليومية تحذر القارىء اليهودى من تلاوة قصائدى التى تدعو الى الكراهية والثورة • وكان من جراء ذلك أن سرحت من عملى فى التعليم ... ولكننى لا أرهب أحدا » . هذه هى نفسية الشاعر سميح القاسم ، وهذه مواقفه ، ومع ذلك تتهمه بعض الصحف العربية فى كرامته الوطنية لأنه خرج الى مهرجان عالمى وهو يحمل « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيلية ويمشى وراء العلم الاسرائيلى .

أما شعر سميح القاسم ، ودعوته الصريحة القوية الى التمسك بالبقاء

فى أرض فلسطين فتبدو لنا بوضوح فى قصيدته التى جعل عنوانها « اليك هناك حيث تموت » وهى رد على رسالة كتبها اليه صديق فلسطينى من أصدقاء طفولته يعيش فى بيروت ، وفى هذه الرسالة يدعو الصديق سميح الى أن يترك مايعانيه من هم وشقاء ويسافر ليعيش معه فى بيروت حيث الراحة والطمأنينة والبعد عن مشاكل الاحتلال الاسرائيلى . ويرد سميح القاسم على هذه الرسالة فى قصيدته الممتازة ، وهو يقول أولا على لسان صاحب الرسالة :

أخى الغالى !
لماذا أنت لا تأتى الى بيروت ؟
وتترك جرحك المقوت !
وتهجر وجهك المغموس فى الوحل
وتنسى عيشة الذل
فحقلك لم يكن أرحب من حقلى
وبيتك لم يكن أجمل من بيتى
لماذا أنت لا تأتى ؟

وفى فقرة سابقة على هذه الفقرة فى نفس القصيدة يصور له هذا الصديق مغريات الحياة بعيدا عن الشقاء فى ظل الاحتلال الاسرائيلى ، فيقول :

أنا أصبحت انسانا جديدا ..
غير ما تعهد
ختمت دراستى العليا .. ونلت
شهادة المعهد ..
وأصبح مكتبى أكبر
وصار اسمى هنا أشهر
ولى صاحبة شقراء .. جدتها .

فرنسية
وأخرى جدها قاد الفتوحات
الصليبية
ومثل بقية الأسياد
تربض فى فناء الدار .. فارهة
خصوصية !

ولكن سميح القاسم رغم كل هذه الاغراءات يرد على صديقه فيقول فى نفس القصيدة :

اليك هناك فى بيروت
اليك هناك حيث تموت
كزنبقة بلا جذر
كنهر ضيع المنبع
كأغنية بلا مطلع
كعاصفة بلا عمر
اليك هناك حيث تموت كالشمس
الخريفية
بأكفان حريرية
اليك هناك .. ياجرحى وياعارى
وياساكب ماء الوجه فى نارى
اليك اليك من قلبى المقاوم جائعا
عارى ..
تحياتى وأشواقى
ولعنة بيتك الباقى !

وهكذا يرفض سميح القاسم ، ويرفض محمود درويش أن يتركا أرضهما مهما كانت الاغراءات ، فالكفاح الحقيقى هو البقاء فوق الأرض الفلسطينية

ومن أجل هذا الهدف العزيز ، ومن أجل مستقبل جديد ، يحتمل سميح ومحمود وزملاؤهما بعض القيود وكل القيود .. ومن بينها أن يحمــلا « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيليــة ويســيرا وراء العلم الاسرائيلى .. فهم أصحاب الأرض ، وأصحاب القضية العادلة رغم راية الاحتلال . ان جوهر النضال هو الباقى وليس الشكليات . وما أغلى نضال محمود درويش وزملائه من أجل البقاء فوق أرض تهددهم فيهــا مسدسات وسجون ومحاربة قاسية فى الرزق واغتيــالات . ولكنهم مع ذلك باقون بعد أن عرفوا أن مسألة المسائل بالنسبة للعربى الفلسطينى هى البقاء فى أحضان أرضه وزيتونه وأشواكه ، وليس الهروب الى الراحة والطمأنينة والتماس البعد عن الخطر ارضاء لأصحاب المظاهر والشكليات والنضال بالصخب الأجوف والشعارات .

لماذا خرج
من إسرائيل؟

فى أوائل فبراير ١٩٧١ ووسط موجة من الدهشة والاحساس بالمفاجأة وصل محمود درويش الى القاهرة بعد عام كامل قضاه فى موسكو للدراسة وفى ختام هذا العام قرر محمود درويش عدم العودة الى اسرائيل واختيار الاقامة بالقاهرة ، وفى تبرير هذا الموقف عقد محمود درويش مؤتمرا صحفيا فى مبنى التليفزيون العربى بالقاهرة فى ١١ فبراير ١٩٧١ ، وأود قبل التعليق على موقف محمود درويش أن أنقل هنا نص البيان الذى ألقاه فى مؤتمره الصحفى ، وذلك لأهمية هذا البيان من الناحية التاريخية ولأنه سيكون أساسا لمناقشة الشاعر بعد خروجه من الأرض المحتلة .

قال محمود درويش فى بيانه :

أريد أن أعلن منذ البداية أنى أعتبر مسألة وجودى الآن فى القاهرة مسألة شخصية أتحمل وحدى مسئولية اختيارها ، وسأبذل منتهى جهدى للحيلولة دون تحويلها الى موضوع للمناقشة والأخذ والرد ، وكان من الممكن وربما من الأفضل حصر المسألة كلها فى حدود ضيقة لولا أن الظروف التى خلقتنى والقضية التى قدمتنى للناس قد ربطت اسمى بقضية عامة ، وهذه القضية العامة هى العنصر الأساسى الذى دفعنى لاختيار موقع جديد فى الجبهة التى أحارب فيها ، ومن هنا ، لم يعد من حقى أن أتصرف كمسافر أو سائح ، ولهذا السبب أشعر بأنى مطالب أمام نفسى وأمام الرأى العام بتقديم بعض التحديدات العامة لأتابع بعدها طريقى :

اننى ألح كثيرا على أن يكون مفهوما لجميع الناس أن الخطوة الخطيرة التى اتخذتها نابعة من اعتبارات خدمة القضية من مواقع تبدو لى أكثر انطلاقا وحرية وقد تمنحنى مزيدا من القدرة على التعبير والعمل أكثر مما كنت

قادرا على عمله فى بلادى .. اننى قادم من منطقة الحصار والاسر الى منطقة العمل . ولا يساورنى أى شك فى أن الرأى العام العربى ــ وربما العــالمى أيضا ــ قد أصبح أكثر وعيا بواقع الاضطهاد الاسرائيلى للمواطنين العرب فى بلادهم .

وما جئت الى هنا لادانة هذا الواقع ، ولذلك فانى فى حل من عرض لائحة الاتهام الخطيرة . ولكن مايهمنا هو آن هؤلاء المواطنين يمارسون البطولة ممارسة يومية بتمسكهم بحق الانتماء الوطنى ، وبرفضهم المسئول الانضمام الى الغربة خارج الوطن . لقد آثروا الاغتراب وتحمل القهر داخل الوطن .. ولقد كنت شخصيا ولا أزال أحب الذين أعطوا شبابهم وطاقتهم لهذا الصمود ومازلت أعتبر نفسى واحدا من هؤلاء المواطنين الشجعان الذين يكافحون وظهورهم الى الحائط ويستمدون الطاقة والأمل من معركة التحرر والبناء والتقدم التى تخوضها شعوبهم خارج أسوار اسرائيل . واقول لكم ــ أيها الأصدقاء ــ بصراحة تامة اننى لاقيت من الحزن قدرا لايجوز الحديث عنه هنا عندما قررت ــ مرغما ــ الانفصال الجغرافى عن أولئك المواطنين . ولكننى أحاول أن أجد عذرى فى أننى أصبحت مليئا بالاحساس بأننى أقترب يوما بعد يوم من نقطة العجز عن القيام بواجبى كمواطن أولا وكشاعر ثانيــا بسبب ظروف الكبت الذى أتعرض له .

لقد أصبحت مشلول الحركة تماما ومشلول الحرية فى التعبير ، ولقمــة سهلة فى فك العنصرية الاسرائيلية وأصبحت مهددا بخطر التعلق على مطاط الصيغ الدبلوماسية لكى أنجو من القانون . اننى لا أشكو ولكننى أحاول القول أن شعرة معاوية بينى وبين القانون الاسرائيلى قد انقطعت وان طاقتى على الاحتيال والتجاوز قد نفدت ، خاصة أننى لم أعد منتميا الى شعب يطلب الرحمة ويتسول الصدقات ، ولكننى أنتمى الى شعب يقاتل ..

من أنا ؟

هل أنا مواطن أسرائيلى بمحض اختيارى ، أم أنا مواطن عربى فلسطينى

واذا كنت كذلك ففى أى صف أقف . ان قلوبنا واضحة الدقات ولكننى مطالب بتحويل مشاعرى الى كلمات .. من هنا ، أصبح تناقض الانتماءين أشد الحاحا وتعذيبا . لم يعد ممكنا أن أجاور بين هذين الانتماءين بسبب اصرار الحكم الاسرائيلى على السير فى المغامرة حتى النهاية وحرق أى جسر للعودة . اننى أتمزق مرتين : مرة على شعبى .. ومرة على المواطنين اليهود الذين يقودهم حكامهم الى كارثة .

ايها الأصدقاء ..

يصعب هنا وضع الفواصل بين الأدب والسياسة وأنا كاتب لايتفرج على الحياة بل يلتحم فيها . والوطن عندى ليس حقيبة ولكنه أيضا ليس جبلا وسهلا .. ان وطنى قضية يجب أن ندافع عنها من أى موقع ، ولست أول مواطن وشاعر يبتعد عن بلاده ليقترب منها . اننى أشعر الآن كما لم أشعر من قبل بنبض التربة التى أنبتتنى وأشعر بمزيد من الأمل المبرر والمشروع ، لأننى أعيش وأعمل مع شعبى بالمفهوم الأوسع ، لانى أدافع عن الخاص من موقع العام .

ان أهمية ما أكتبه ــ اذا كانت له أهمية ــ لا تنبغى أن تكون مستمدة من المكان الذى أكتب منه ، بل من القضية التى أعيشها أينما كنت .

ولا أبيح لنفسى أن أتكلم من موقع الدفاع عن النفس ، وانى أتحمل كامل المسئولية عن موقفى وقضيتى ، ورحيلى الذى أرجو أن يكون مؤقتا عن وطنى ليس تغييرا لموقف أو قضية ولكنه تغيير لموقع ، واختيار موقع راسخ وطيد حمله التاريخ مسئولية تاريخية ، وهى مستقبل منطقة الشرق الأوسط كلها . هذا الموقع هو القاهرة التى أصبحت ــ بحكم التطور التاريخى والظروف الموضوعية ــ المصدر الأساسى للحركة فى المنطقة .

وأنا مواطن فلسطينى ، لقد لقى شعبى من العذاب والقهر الجسدى والمعنوى مالا يوصف .. اننى لا أدير اسطوانة ، ولكن ملحمة اقتلاع شعب كامل وقذفه الى التيه ليست مسألة فلسطينية . انها خنجر فى كل

ضمير انسانى .

ولقد كنت أتمزق كل يوم وأنا أرى منازل أهلى يسكنها غرباء وأسمع منها أغانى انتصار الفاتحين الذين يلاحقون الضحية حتى منفاها ليقضــوا على آثارها . لقد رأيت كيف تتغير أسماء الشوارع والقرى والمدن ، ولقد رأيت كيف يحرث الناس فى أجساد الآخرين ويستخرجون القمح والتفاح ، ولقد رأيت كيف يترجم الشجر والحجر والقمر ، ولقد رأيت كيف يزيف التاريخ ، وكيف تجرى عملية التنفس من رئات الآخرين . وأكثر من ذلك رأيت كيف تتم عملية مطالبة الضحية بالاعتراف بأنها القــاتل . مازالت اسرائيل حتى الآن ، تقدم شعبى الى العالم بزى القاتل وتدعى أنها الضحية . ولم يكن شعبى يحسن الا الاستجداء والتسول ، ولايقدم نفسه الا ببطاقات الاغاثة .. ان الوقوف على باب المحكمة الدولية حق . ولكن الحق ليس حقا اذا كان صاحبه ضعيفا . هكذا الدنيا .. لقد تغيرت الآن صورة شعبى ولم يعد يقدم نفسه ببطاقة الاغاثة ، بل ببطاقة الاستشهاد . لقد وجد شعبى طريقه الى الحياة عندما اجتاز سرداب الموت وهذه هى المقاومة وهذا هو الحل .. فأين أقف ؟

وأنا مواطن عربى .. وقضيتى الخاصة جزء لايتجزأ من القضية العــامة للشعوب العربية ، ولا مستقبل لقضيتى اذا لم تعرف مكانها فى هذا التيار المعادى للتخلف والامبريالية والصهيونية والطامح الى التقــدم الاجتماعى والاستقلال والسيادة القومية والوحدة الاشتراكية . واذا ســمحتم لى بالتحدث عن مشاعرى الخاصة ، أقول لكم اننى أشعر بالانفعال الشديد والتأثر البالغ بسبب احساسى بالعلاقة المباشرة مع أبناء شعبى الذين كنت بعيدا عنهم أكثر من عشرين سنة . هذه أول مرة أزور فيها بلدا عربيا منذ طفولتى . اننى أشعر أن كتفى تتسعان ورئتى تكبران ، وألمس أسبابا مادية ومعنوية للتفاؤل العلمى والوجدانى .

وأنا مواطن عالمى .. وقضيتى جزء من الحركة الثورية العالمية وأفخــر

بانتمائي الى أسرة التقدم والتحرر والاشتراكية التى تمارس تأثيرها الفعال لتغيير العالم تغييرا جذريا .. اننا على الرغم من كل القهر والكبت ننتمى الى الجانب المضىء من وجه عصرنا ، ونشعر بسعادة غامرة وبفرح لاحد له بصداقتنا المصيرية مع الاتحاد السوفيتي الذى يمارس دورا رئيسيا فى الحركة الثورية العالمية ؛ ويقف فى جبهة الصدام الأولى مع أعداء الانسان ومعوقات ضرورات التقدم .

ولقد عشت فى الاتحاد السوفييتى طيلة العام الماضى ، وأشعر شخصيا بأننى مدين له لأنه أعطانى كل شىء .. من الخبز حتى الأمل والتفاؤل العظيم وانى واثق بأن حبى للانسان وللمجتمع السوفييتى بما يمثله من تجربة خلاص البشرية من العذاب هو من أحد مقومات نضالى وفرحى بالحياة .

أيها الأصدقاء

من المعروف لكم تماما ، أننى قادم اليكم من صفوف الحزب الشيوعى الاسرائيلى الذى يخوض معركة سياسية مليئة بالضنى والشرف وفى جو خانق من العنصرية والغطرسة الصهيونية والاعتداء المصلف على أبسط حريات الانسان .

ومعروف لكم تماما أن هذا الحزب يضم فى جبهة واحدة متلاحمة كل العناصر المناضلة من المواطنين العرب وخيرة العناصر المكافحة من المواطنين اليهود . انه يشير الى امكانية التعايش الحقيقى والحياة المشتركة السعيدة بين العرب واليهود ويرفع شعار : « مع الشعوب العربية ضد الاستعمار لامع الاستعمار ضد الشعوب العربية » وهو يحذر من الهاوية التى يقود الحكم الاسرائيلى المواطنين اليها ، اذا ماستمر فى تنكره لحقوق الشعب العربى الفلسطينى والاعتداء على الأراضى فى البلاد العربية وحقوقها وسيادتها .

ان من واجبى أن أعلن من هنا أن رحيلى عن بلادى ليس نابعا بأى شكل من الأشكال عن رغبة فى الانسلاخ عن انتمائى السياسى والفكرى . ومن ناحية أخرى أريد أن أعلن أن الحزب الشيوعى الاسرائيلى لا يتحمل مسئولية

قدومى الى القاهرة ولا علم له بذلك وعلى هذا الأساس فمن حقه الطبيعى أن يتحفظ من هذا السلوك الفردي الذى خالفت به أبسط قواعد التنظيم وعلى أي حال ، بودى أن أرسل تحيات حارة الى الشيوعيين العـرب واليهود في اسرائيل الذين يحتلون مكانهم فى الحركة الثورية العـالمية ، ومن هذا المكان فانهم يشكلون حلفاء أمناء لحركة التحرر العربية .

وبعد ..

اسمحوا لى أن أعبر عن عميق الشكر والامتنان الى الجمهورية العربية المتحدة ، رئيسا وشعبا وحكومة وحزبا ، لانها فتحت صدرها الواسع لى وأعطتنى من الحب والفرح والأمل مئونة معنوية ضخمة ، وأشعرتنى بأننى لم أغادر وطنى ، وانما انتقلت من الوطن الأصغر الى الوطن الأكبر ، انى احدق فى نهر النيل فأرى اعماق الظاهرة وجوهرها وأرى تدفق الحيـــاة اللامتناهى ورحلة التاريخ الصاعدة دائما . انى احدق فى نهر النيل فأسمع خرير نهر الاردن وبردى والفرات فى نغم واحد متدفق على الرغم مما يعترى الظاهرة من ركود ظاهرى .

واننا على يقين من أن نهر الحياة سيواصل المسير وانى على ثقة من أننى سأجد فى موقعى الجديد ، فى القاهرة ، امكانيات واسعة لمواصلة عملى فى سبيل القضية التى نعمل من أجلها جميعا .

ويسعدنى انى اخترت القاهرة لأنها القاعدة الأساسية نكفاح الشـعوب العربية من أجل التحرر والاستقلال والتقدم الاجتماعى والمستقبل الاشتراكى والسلام .

وأرجو أن يغنى هذا الموقع الجديد موقفى ونضالى بمزيد من الطـاقة والانطلاق لأن الاعتبار الأول والأخير لاختيار أى موقع هو خدمة القضية التى نحيا من أجلها ونموت من أجلها »

***

ذلك هو نص البيان الذى ألقاه محمود درويش بعد خروجه من اسرائيل واختياره للاقامة والعمل بالقاهرة ، فماذا يمكن أن يكون « التقييم »

الصحيح لهذا الموقف ؟ ... لقد صدرت تعليقات عديدة وخاصة من صحف لبنان ضد موقف محمود درويش ، ونشرت صحيفة الحـوادث صورة محمود على غلاف أحد أعدادها وكتبت فوق الصورة عنوانا كبيرا يقول « ليته يعود الى اسرائيل » ، وقد تضمن هذا العدد مقالا بتوقيع (١) « ربيع مطر » ينادى فيه كاتبه أن يعود محمود درويش الى الأرض المحتلة ويقول فى مقاله :

« يا محمود يا أحلى ابن تفتح له الأمة العربية ذراعيها ، لن نحدثك عن مأساة الواقع العربى الذى يوشك أن يعتصرك والذى لا شك أنك أحسست بشواظه ، حتى فى أيام المجاملة والترحيب .

ونحن لا ندرى ما هى المشـاكل القـانونية التى ترتبت على قرارك ، ولكنك ما زلت محتفظا بجنسيتك « المترجمة » كما تصفها ... ومن ثم نقول لك من قلب يحبك ويعتز بك :

نحن فى مرحلة العودة والاصرار على البقاء ، انتهت والى الأبد مرحلة الهجرة ... فليتك تعود الى اسرائيل ... الى السجن ، ليتك تعود مهما كان الثمن الذى ستدفعه من حريتك وحتى من فنك وشعرك ... عد فقد اخترت وليس لك أن تتراجع ... لقد عينت نفسك :

انني مندوب جرح لا يساوم
علمتنى ضربة الجلاد
أن أمشى على جرحى
وأمشى ثم أمشى ... وأقاوم
وفى مثل وظيفتك هذه ، الاستقالة ممنوعة »

هذا نموذج من الهجوم العنيف الذى لقيه محمود درويش نتيجة لموقفه بعد خروجه من اسرائيل ، وقد ترددت وجهة النظر هذه كثيرا فى صفوف الرأى العام العربى والرأى العام الأدبى على وجه الخصوص .

(١) أعتقد أن هذا الاسم هو اسم مستعار لكاتب معروف ... وأغلب الظن أنه الـكاتب الفلسطينى غسان كنفانى .

فأين الحقيقة فيما يتصل بموقف محمود درويش ؟ ..

لا أحد يستطيع من ناحية المبدأ أن يدافع عن موقف محمود درويش ، وقد حرص محمود نفسه فى بيانه على التأكيد بأن موقفه انما هو موقف « شخصى » ... أى أنه ليس موقفا عاما ، وليس دعوة من جانبه للآخرين فى الأرض المحتلة أن يرحلوا ويهاجروا الى المدن العربية خارج اسرائيل ، ولا يمكن لأحد على الاطلاق أن يوافق على مبدأ الخروج من الأرض المحتلة ، فلقد قضى العـرب فى الأرض المحتلة ما يزيد على عشرين عاما سجناء : لا أحد يسمع لهم صوتا فى الداخل أو فى الخارج رغم أنهم يبلغون أكثر من ربع مليون مواطن ، ويمثلون ١١٪ من نسبة السكان فى المجتمع الاسرائيلى ، وفى السنوات الأخيرة ظهرت مجموعة من المثقفين والأدباء والكتاب والسياسيين العرب كان فى طليعتهم محمود درويش ، واستطاع هؤلاء أن يرفعوا صوت العرب فى الأرض المحتلة عاليا ، وأن يشكلوا تهديدا معنويا لاسرائيل وأن يمارسوا ضغطا أدبيا وسياسيا عليها ... بدأ الصوت العربى يتردد ، وبدأ القلب العربى ينبض ، بعد أن كانت أسوار اسرائيل تبتلع تماما كل من فى داخلها من العرب ... وكأنهم كانوا غير أحياء ، وغير موجودين ... وكأنهم لايتنفسون ولا تنبض قلوبهم بالحياة .

ولاشك أن السلطات الاسرائيلية قد انزعجت بصورة واضحة من ظهور هذه القيادات العربية الجديدة ، وحاولت بكل وسائل الضغط والارهاب أن تقضى على هذه القيادات ، حتى يعود العرب من جديد الى حجمهم المطلوب وهو أن يصبحوا أقلية لا صوت لها ولا وزن ولا قيمة .

ان من أعز أهداف اسرائيل ولاشك أن تصفى القيادات العربية فى الأرض المحتلة وعلى رأسها القيادات الفكرية والأدبية. ومن ناحية المبدأ — كما أشرت — لايجوز أبدا أن نساعد اسرائيل على تحقيق هذا الهدف ، ولايجوز أبدا أن نرضى بابقاء العرب فى الأرض المحتلة وقد تحولوا الى أقلية مقهورة بصورة نهائية... لايسمع العالم منها أو عنها شيئا حتى ولا أنينها أو صوت

آهاتها ومواجعها المختلفة . وتلك كانت رسالة محمود درويش ورفاقه فى الأرض المحتلة : أن يرفعوا صوت العرب فى الأرض المحتلة عاليا . وليس من المعقول أو المقبول أن يتخلى أحد عن هذه الرسالة ..

هذه نقطة أولى فى مناقشة هذا الموضوع ، النقطة الثانية تتصل بمحمود درويش نفسه فشعره ملىء بتمسكه بأرضه ، حافل بالدعوة الحارة الى أن يبقى العربى فوق ترابه مهما كانت الظروف والأحوال ومهما كانت الصعوبات والشدائد ، وهذه الدعوة فى شعر محمود درويش تمثل شرارة فنية ووجدانية رائعة فى كل قصائده ... انها تشدنا اليه وتربطنا به ، وتكاد تدفعنا نحن الذين نعيش خارج أسوار اسرائيل الى أن نقتحم تلك الأسوار لنشارك محمود درويش وكل العرب هناك فى احتمال الآلام وما فيها من عذوبة وعذاب ... ومن هنا كان موقف محمود درويش الأخير من النظرة الأولى مناقضا لكل ما دعا اليه فى شعره بأصالة وعذوبة ولهفة كاملة .

فلماذا لجأ محمود درويش الى موقفه الأخير ... طالما أنه موقف ليس سليما من ناحية المبدأ العام ، وطالما أنه موقف يتناقض كل التناقض مع اصراره العظيم على البقاء كما نقرأه ونحسه فى شعره الجميل ؟

لست أنكر أننى ـ أساسا ـ أحد المتعاطفين مع محمود درويش ، شاعرا وانسانا وصاحب موقف ، ومن هنا فأنا لا أميل بسبب هذا التعاطف الى الأحكام القاطعة والقاسية فيما يتصل بمواقف محمود المختلفة ... ولا أعتقد أننى ـ ولا غيرى ـ نستطيع أن نلتمس أعذارا سهلة أو تبريرات ميسورة لموقفه الأخير ، ولكننى أرى أن هناك رغم كل شىء مبررات يجب أن نضعها فى الاعتبار ونحن نحكم على هذا الموقف . ويمكن تلخيص هذه المبررات الأساسية فى ثلاث نقاط محددة :

أولا : ان عمر محمود درويش فى الكفاح داخل الأرض المحتلة طويل وليس عمرا قصيرا ... بل اننا نستطيع أن نقول عنه انه ولد مكافحا ، فلم يكن الكفاح اختيارا بالنسبة له بل كان ضرورة فرضتها الظروف ، فقد

خرج مع أهله سنة ١٩٤٨ من فلسطين ثم عاد اليها متسللا بعد عام أو أكثر قليلا .. فهو منذ البداية يمارس حياة المقاومة والنضال . واذا تركنا هذه المرحلة من حياته لنتكلم عن فترة وعيه ونضجه فاننا نجد أنه قضى حتى الآن مايزيد على عشرة أعوام وهو يناضل بصورة مستمرة من أجل قضيته بالكتابة والعمل السياسى والاشتراك فى المؤتمرات ودخول السجون وما الى ذلك ، لقد صدر ديوانه الأول سنة ١٩٦٠ ورغم أنه كان ديوانا ضعيفا من الناحية الفنية الا أنه كان فى معظمه صرخات حادة من أجل وطنه وقضيته ، وواصل محمود كفاحه خلال السنوات التالية ، ولم يفتر ولم يهدأ ولم يأخذ عليه أحد مأخذا ما فى هذا الميدان النضالى ... معنى هذا كله أن محمود درويش منح أعوام عمره الثلاثين لقضيته التى لم يكن له قضية أخرى سواها ، ولم يربط نفسه بشىء آخر غيرها فى ميدان حياته الشخصية حيث عاش متفرغا للدفاع عن جرحه الكبير .

ثانيا : بلغ الاضطهاد الاسرائيلى لطليعة المثقفين العرب فى الأرض المحتلة فى الفترة الأخيرة درجة عالية من العنف ، وقد أصاب محمود من هذا الاضطهاد شىء كثير ، فلم يعد فى هذه المرحلة الأخيرة قادرا على أن يعمل أو يتحرك ، فهو محاصر فى بيته محاصر فى كتاباته محاصر فى اتصالاته وعلاقاته المختلفة ، وقد أشار المحامى العربى صبرى جريس المحامى العربى الذى كان مقيما فى الأرض المحتلة وخرج منها مثلما فعل محمود الى وقائع عديدة تثبت ارتفاع درجة الاضطهاد الاسرائيلى لهؤلاء المثقفين ، وذلك فى سلسلة المقالات التى نشرتها له الأهرام فى أعدادها الصادرة فى ١٩ و ٢٠ و ٢١ فبراير ١٩٧١ وحسبى أن أنقل هنا نص الخطاب الذى نشره صبرى جريس فى هذه المقالات والذى كتبته « حنا جريس » زوجة صبرى نفسه ونشرته فى احدى الصحف الاسرائيلية فى ٢٢ ابريل ١٩٧٠ ... تقول « حنا جريس » فى هذا الخطاب :

« ان زوجى المحامى صبرى جريس معتقل منذ شهر ونصف . وأنه منذ

سنوات عديدة وزوجى موجود تحت اشراف مستمر من هيئات الدفاع والأمن الذين زعموا أنه يشكل خطراً على أمن الدولة ، وقد تحددت حركته بواسطة القرار ١٠٩ و ١١٠ من لوائح الدفاع • وكان محظورا عليه ترك محل سكنه بدون تصريح ، وكان ملتزما « بالتواجد » فى منزله من ساعة غروب الشمس حتى شروقها ، وكان عليه أن يتوجه يوميا فى الساعة الرابعة مساء الى قسم الشرطة . ولقد طلبنا قبل اعتقاله تصريحا من هيئة الامن بترك اسرائيل ، لأنه من العسير علينا أن نعيش هذه الحياة غير الطبيعية ، ولقد أجابوا علينا بالايجاب ، ولكن فى ميعاد سفرنا اعتقلوا زوجى ، بدون تهمة ضده وبغير تقديمه للمحاكمة . وعقب ذلك أرسلت برقيات الى رئيس الحكومة ووزير الدفاع ووزير الداخلية ورئيس المحكمة العليا ، وقد أشرت فى هذه البرقيات الى أن الاعتقال جاء عقب أن أراد زوجى مغادرة اسرائيل وليس هناك أى سبب يتعلق بالأمن يبرر اعتقاله ، وأنه لو لم يطلق سراحه فسوف أضطر أن أوجه نداء لمساعدتى الى جميع العناصر الدولية التى من شأنها أن تساعدنى فى الدفاع عن حريتى » .

هذه الرسالة التى كتبتها « حنا جريس » زوجة المحامى « صبرى جريس » تكشف لنا عن الواقع اليومى الأليم الذى يعيش فيه المثقفون العرب فى الأرض المحتلة فى الفترة الأخيرة ... وقد تعرض محمود درويش لمثل هذه الاجراءات نفسها بل وتعرض لأقسى منها فى بعض الفترات ، بحيث أصبح عنصرا مشلولا داخل المجتمع الاسرائيلى وأصبح عديم الجدوى والتأثير والفعالية هناك .

ثالثا : عندما خرج محمود درويش من اسرائيل لم يخرج الى أمريكا مثلا أو الى أى بلد أخرى يلتمس فيها حياة هادئة مستريحة ويلقى عن كاهله عبء قضيته نهائيا ، وكان باستطاعته أن يفعل ذلك ، بل ان اسرائيل نفسها تقدم اغراءات عديدة ومساعدات كبيرة للعرب الذين يوافقون على الهجرة للحياة فى مجتمعات أجنبية والاندماج فيها ... لم يختر محمود درويش

شيئا من هذا وانمـا اختار أن يجىء الى القاهرة . وليست القاهرة مدينة محايدة بالنسبة لقضيته انها موقع من مواقع النضال الحى المستمر بالنسبة لهذه القضية ، وهى تقف فى مواجهة اسرائيل وتحاول بكل الوسائل أن ترد عدوانها على الأرض العربية ابتداء من فلسطين الى سيناء ولاشك أن موقع القاهرة بالنسبة لمحمود درويش ليس موقعا سلبيا ان أراد محمود ــ وهذا مانأمله وننتظره منه ــ أن يواصل نضاله وعمله من أجل قضيته ، فمحمود يفهم المجتمع الاسرائيلى فهما كاملا ويعرف العبرية بدقة وهو يعرف الظروف التى تعيش فيها الأقلية العربية فى اسرائيل ، كما أن محمود أصبح الآن صاحب سمعة عالمية بناها على أساس شعره وارتباطه بقضيته .. وباستطاعة محمود أن يقدم الكثير من أجل قضيته فى موقعه الجديد بالقاهرة

والخلاصة ... أن موقف محمود الجديد الذى لم يكن أحد يحبه له ولم يكن يحبه هو لنفسه ليس موقفا اختياريا ولكنه ضرورة فرضتها عليه الظروف القاسية التى عاشها فى الأرض المحتلة ، وليس هذاالموقف الذى اتخذه دعوة للآخرين حتى يتصرفوا بنفس الطريقةوالأسلوب ولايجوز أبدا أن يفهم أحد هذا الموقف بهذه الطريقة ... انه موقف شخصى أملته ظروف خاصة وليس موقفا مبدئيا يدعو الى هجرة العرب من الأرض المحتلة . وأخيرا فان محمود درويش مسئول بعد اقامته فى القاهره عن أن يجعل هذه الاقامة عملا كاملا من أجل قضيته ... وسوف يكون الحكم العادل له أو عليه من هذه الزاوية بالذات : هل هاجر من موقع كفاح ليعمل من موقع كفاح آخر ... أما هاجر من القضية كلها ليهدأ ويستريح ؟ .. ذلك هو السؤال المعلق الذى سوف تجيب عليه الأيام القريبة .

شيوعيون
وقوميون

هناك قضية تثار دائما حول منبع الثورية والالهام الفنى عند محمود درويش : هل منبعهما هو ارتباطه بقوميته كعربى فى الأرض المحتلة أم أن هذا المنبع هو ارتباطه بالماركسية كفكرة وبالحزب الشيوعي الاسرائيلى كتنظيم سياسى وقد اعتمد أصحاب الرأى الثانى على بعض أشعار محمود درويش وبعض أحاديثه الأدبية . فمحمود يقول فى قصيدته المعروفة « بطاقة هوية » :

أنا من قرية عزلاء منسية
شوارعها بلا أسماء
وكل رجالها ... فى الحقل والمحجر
يحبون الشيوعية
فهل تغضب ؟
سجل ..
أنا عربى

وفى البيان الذى أدلى به محمود درويش فى القاهرة ، والذى نشرناه كاملا فى الفصل السابق من هذا الكتاب يحدد محمود درويش بصورة واضحة أنه منتسب الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى .

فهل يكفى هذا كله لكى نقول انالالتزام الشيوعى هو الأساسالفكرى والوجدانى الذى يقوم عليه انتاج محمود درويش الشعرى ؟ كلا بالطبع . ان مثلهذه المسائل لاتدخل فى نطاقالميول والرغبات ولكنها مسألة دراسة موضوعية محايدة . فشعر محمود درويش يكشف بوضوح عن القضية الأساسية التى يعالجها هذا الشاعر والتى تملأ قلبه ووجدانه وعقله وهى

قضية الأرض العربية والانتماء العربى . والواضح فى شعره هو التعبير عن هذه القضية أولا وقبل كل شىء .

ان عروبة محمود وتمسكه بأرضه هما أهم الموضوعات التى تبرز فى قصائده ، والاتجاهات النضالية فى شعره هى اتجاهات انسانية عامة ، تتصل بكفاح البشر فى مختلف أنحاء الأرض ، ولا تتصل بكفاح الشيوعيين وحدهم هنا أو هناك . ولكى يتضح هذا الأمر يكفى أن نقارن قصائد محمود درويش بشاعر عربى آخر فى الأرض المحتلة هو توفيق زياد . منذ اللحظة الأولى التى نقرأ أشعار توفيق زياد نشعر أن نقطة إنطلاقه هى : الماركسية والالتزام السياسى بالحزب الشيوعى ، ففى ديوانه « أشد على أيديكم » مثلا نجد هذه القصائد :

« الى عمال موسكو » ــ و « كراسنايا بريسنايا » وهى حى « النهر الأحمر » فى موسكو ... وهذا الحى كما يقول الشاعر نفسه هو « حى صناعى عريق فى موسكو ، وكان النبض الحى لموسكو فى ثورة ١٩٠٥ حيث التهبت فيه حرب المتاريس فى تلك الثورة والانتفاضات الشعبية الأخرى » وفى ديوان توفيق زياد أيضا قصيدة أخرى عن « عبدان » تدور حول تأميم البترول فى ايران . وقصيدة رابعة عن « مانيلاس غليزوس » وهو كما يقول الشاعر نفسه « .. القائد والمناضل وبطل الشعب اليونانى الذى غامر بحياته ليمزق علم الاحتلال الهتلرى لبلاده الذى ارتفع فوق الاكروبول ... فأطلق بذلك الشرارة الأولى لحركة المقاومة الشعبية فى أوروبا الغربية .. يقف الآن وحبل المشنقة معقود حول عنقه ... » وهذا المناضل بالطبع شيوعى يونانى معروف ، وهناك قصيدة خامسة بعنوان « الى عمال آتا المضربين » .. وهكذا يمتلىء شعر توفيق زياد بالموضوعات والتجارب المستمدة من رؤية ماركسية صريحة للحياة والمجتمع . والمسألة لاتقف عند حدود العناوين ولكنها تمتد الى القصائد المختلفة فى فكرها وصياغتها ، فتوفيق زياد يقول فى قصيدته الى عمال موسكو :

يا اخوتى العمال فى موسكو
قلوبكم كبيرة
وبقدر ما أنتم جبابرة فأنتم طيبون
وسترسلون لنا الهدايا
دون عد
وستبنون مع شعبنا ، مليون حل
أنا أعرف العمال أعرف طبقتى [1]
وستشحنون لنا المكائن والمصانع :
فالصلب فى سيبريا
والقمح فى أوكرانيا
والسفن والأحواض من لينجراد
يا رفاق ...

هذه لغة توفيق زياد الشعرية ، وهى لغة واضحة فى انتمائها السياسى كل الوضوح فى كل انتاج توفيق زياد ، وهو شاعر كبير من شعراء الأرض المحتلة .

هل نجد مثل هذه اللغة عند محمود درويش ؟ كلا على الاطلاق . فلغة محمود الشعرية وموضوعاته وتجاربه المختلفة تدور فى فلك آخر هو فلك التمسك بالأرض والانتماء العربى ثم هو يتحدث عن النضال والكفاح بمعناهما الانسانى العام الواسع ولا يتوقف عند حدود كفاح طبقة معينة هى طبقة العمال والفلاحين فالانسان فى شعره ليس له سمات طبقية محددة ... الانسان عنده اما ظالم أو هو مظلوم . اما خاضع للاستغلال والعدوان أو صانع لهذا الاستغلال والعدوان .

ان لغة محمود درويش هى لغة النضال الانسانى العام :
سأقولها فى غرفة التوقيف

(١) هذا البيت مكسور ومختل من ناحية الوزن الشعرى وقد جاء هكذا فى النص الذى نشرته دار العودة ببيروت .

تحت السوط ... تحت القيد
فى عنف السلاسل
مليون عصفور على أغصان قلبى
يخلق اللحن المقاتل

وهو يغنى لتجربة التشرد والتمزق والطـرد والنفى بالنسبة لشعبه ووطنه :

رأيتك أمس فى الميناء
مسافرة بلا أهل بلا زاد
ركضت اليك كالأيتام
اسأل حكمة الأجداد
لماذا تسحب البيارة الخضراء
الى سجن الى منفى الى ميناء

وهواه الأكبر هو هوى الانتساب الى وطنه :

ياصخرة صلى عليها والدى لتصون ثائر
أنا لن أبيعك باللآلى
أنا لن أسافر ... لن أسافر

وهذه الملاحظة نفسها سجلها توفيق زياد .. هذا الشاعر الماركسى الكبير

ولكنه سجلها كعيب فى شعر محمود درويش ، وذلك فى مقال له عن ديوان محمود « عاشق من فلسطين » ... يقول توفيق زياد « ص ١٤٤ من كتاب عن الأدب والأدب الشعبى الفلسطينى ــ دار العودة ــ بيروت» :

« ... ولو كنا ننظر الى محمــود درويش كشاعر وطنى ديموقراطى فحسب ، لاكتفينا بما تقدم . ولكننا نطلب منه أكثر من ذلك . نطلب منه ما نطلبه من أى شاعر بروليتارى ... والتأكيد هنا على المحتوى . ونأمل أن يعمل فى كتاباته الشعرية القادمة على أن يعمق أكثر العناصر البروليتارية فى شعره » .

ثم يقول توفيق زياد عن محمود درويش أيضا :

« من حقنا أن نطلب منه أشياء أساسية : أن يتجاوب أكثر مع كفاح الشعوب الأخرى الذى يشكل مضمون مرحلتنا التاريخية وأن ينظر الى الأمور عموديا أكثر . وحتى يستطيع ذلك من الضرورى أن يعمق أكثر توجهه الطبقى ، حتى يشحذ مقدرته على الوصول الى قراءة أشرف المشاعر البشرية وأكثرها أصالة ، وأبعدها عن الشوائب » .

هذا هو نقد توفيق زياد ، الشاعر الشيوعى البارز ، لمحمود درويش ... وخلاصته أن محمود درويش لا يصدر فى شعره عن رؤية طبقية واضحة .. وهذا مأخذ فى نظر توفيق زياد ضد محمود درويش ، ولكنه فى اعتقادى ليس مأخذا ولا ينبغى أن يحسب من العيوب ، لا لأننا نرفض التفكير فى الكفاح الطبقى بل لأن قضية عرب الأرض المحتلة تكون محدودة اذا نظرنا اليها من هذه الزاوية . فمأساة شعب فلسطين هى قصة شعب يتم اقتلاعه من جذوره لا قصة طبقة مضطهدة . كما أن عرب الأرض المحتلة فى معظمهم فقراء لا يملكون شيئا ، وليست قضيتهم هى أن ينالوا حقوقا ضائعة لهم سلبتها طبقة أخرى تستغلهم ، بل ان هناك شيئا آخر غير الاستغلال الطبقى ... هناك الاستغلال العنصرى . والعامل اليهودى يختلف فى وضعه ومستوى حياته عن العامل العربى فى المجتمع الاسرائيلى . فالعامل العربى يعيش فى مستوى أقل ويتقاضى أجرا أقل .. والفارق بينه وبين العامل الاسرائيلى هو فارق عنصرى فرضته اسرائيل ، وليس هناك بين العاملين العربى والاسرائيلى أى وحدة طبقية بل ان العامل الاسرائيلى هو عنصر من عناصر استغلال العامل العربى .

هنا تكون النظرة القومية والانسانية الخالية من التعصب أشمل وأصح وهذا هو موقف محمود درويش فى جملته ، وهو موقف سميح القاسم أيضا . وهذا الموقف يختلف تماما عن موقف توفيق زياد ... الشيوعى الماركسى الملتزم لتفسيره الطبقى لكفاح شعب فلسطين .

تبقى هناك بعض التساؤلات... ماذا نقول مثلا فى القصيدة التى يتحدث فيها محمود درويش عن العرب فى الأرض المحتلة « .. وكل رجالها فى الحقل والمحجر يحبون الشيوعية » ؟ ..

من ناحية الحقيقة التاريخية نستطيع أن نقول ان هذا البيت من الشعر غير صحيح . فعرب الأرض المحتله فيهم الشيوعيون وغير الشيوعيين وقد كانت هناك حركة قومية منفصلة عن الشيوعيين تماما هى حركة « الأرض » فهذا البيت الشعرى اذن لا يصور حقيقة تنطبق على كل عرب الأرض المحتلة . أما من ناحية محمود نفسه فنحن نحس أن شعره أصدق تصويرا لموقفه من آرائه المباشرة سواء جاءت هـذه الآراء فى بعض قصائده أو فى تصريحاته المختلفة .

وليس فى شعر محمود درويش اهتمام بالرؤية الطبقية ، بل هناك رؤية قومية انسانية وليس معنى ذلك أن موقفه معاد للماركسية ، كما أنه ليس فى هذا القول أى قصد لمناقشة الفكر الماركسى أو الاعتراض عليه ، فالمجال هنا هو مجال تسجيل الحقيقة فيما يتصل بمحمود درويش شاعر الأرض المحتلة ... والحقيقة المستمدة من شعره هى أنه ــ بالدرجة الأولى شاعر قومى انسانى وأن هذه الرؤية القومية الانسانية هى ــ فى اعتقادى ــ رؤية أصح وأشمل بالنسبة لقضية عرب الأرض المحتلة وهى تشتمل على الرؤية الطبقية وتتجاوزها وتمثل تعبيرا عن الحقيقة أصدق منها ... ذلك لأن عرب الأرض المحتلة ليسوا ضحايا الصراع الطبقى بقدر ماهم ضحايا الصراع العنصرى ، كما أنه ليس المقصود بقيام اسرائيل هو القضاء على كفاح الطبقة العاملة العربية ولكن المقصود هو ابادة الشعب العربى فى أرض فلسطين .

ماذا نقول عن انتساب محمود درويش للحزب الشيوعى الاسرائيلى ؟.. يجب أن ننظر الى هذا الانتساب فى ظل عدة اعتبارات ، فليس هناك فى الأرض المحتلة أى تنظيم سياسى قومى وليس مسموحا باقامة مثل هـذا

التنظيم ، فليس هناك فرصة للاختيار أمام المناضل العربى فى الأرض المحتلة كى يحدد انتسابه السياسى بدقة ووضوح . ومن ناحية أخرى فان الحزب الشيوعى الاسرائيلى هو الحزب الوحيد القريب من الاهتمام بقضايا العرب فى الأرض المحتلة ، وهو المظلة الشرعية التى تنشط تحتها الصحف العربية والأفكار المختلفة التى تدافع عن عرب الأرض المحتلة ، ولذلك فانتساب أى عربى فى الأرض المحتلة للحزب الشيوعى الاسرائيلى لايعنى أن هذا العربى قد تخلى عن نظرته القومية والانسانية العامة لقضيته كما أن الانتساب الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى والمواقف الطيبة لهذا الحزب من القضية العربية لايمنعان من القول بأن هذا الحزب لايمكن أن يمثل وجهة النظر العربية بأمانة ودقة فهو فى نهاية الأمر حزب اسرائيلى ينظر الى الأمور من وجهة نظر استمرار دولة اسرائيل التى قامت على أساس طرد العرب من بلادهم . وهـذا ما أظن أنه ينطبق على موقف محمود درويش . لقد اختار الانتماء الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى من خلال الظروف السياسية الواقعية فى الأرض المحتلة . واذا تبين لنا فى آخر الأمر أن هناك بين عرب الأرض المحتلة قوميين وشيوعيين ، فان موقف محمود درويش ـ رغم انتسابه للحزب الشيوعى ورغم تصريحاته المختلفة التى تقول بأنه شيوعى ـ هو أقرب الى القوميين منه الى الشيوعيين... ولكن قوميته تنزع نزعة انسانية عامة شاملة واضحة لا أحسب أن هناك ماركسيا مستنيرا يمكن أن يقف فى وجهها أو يعترض عليها . كما أن ثقافة محمود درويش الاشتراكية مسألة لاشك فيها ، وهـذه الثقافة الاشتراكية تدعم نظرته القومية الانسانية تدعيما واضحا .

ماذا نتعلم
منه
ومن رفاقه؟

كانت طلقات الرصاص وانفجارات القنابل والألغام فى داخل فلسطين المحتلة هى البداية الصحيحة التى أيقظت الأمل فى نفوس المواطنين العرب بعد الهزيمة المادية والمعنوية التى حلت بالوطن العربى فى ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ان ظهور شخصية الفدائى العربى على سطح الأحداث هو الذى أشعل الشموع التى انطفأت فى نفوسنا بعد ٥ يونيو فامتلأت أرواحنا بالظلام . ولاشك أن ظهور شخصية الفدائى العربى بهذه القوة يعتبر نقطة تحول واضحة ودقيقة فى النفسية العربية ؛ وخلاصة هذا التحول هو الانتقال من اليأس الى الأمل ، وعودة ذكريات النضال العربى المنتصر الى ضمائر العرب ، فقد بدأنا نحس أن نفس الشرارة التى اشتعلت فى جبال الأوراس بالجزائر وانتهت بالنصر قد عادت لتشتعل فى فلسطين وتبدأ رحلة صعبة وطويلة ولكنها مليئة بالأمل .

هذا الذى حدث للنفسية العربية بعد ظهور الفدائى ، حدث أيضا فى الشعر العربى المعاصر ، بعد ظهور محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة فى فلسطين . وقد ظهر محمود درويش وزملاؤه بوضوح فى الحياة الادبية بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ . كانت هناك قبل ذلك معلومات محدودة عنهم ، وكانت هناك نصوص قليلة مبعثرة تظهر بين الحين والحين لهؤلاء الشعراء . كانوا قبل ٥ يونيو عام ١٩٦٧ أشبه بحركة الفدائيين نفسها . فالحركة الفدائية كانت حركة محدودة متقطعة ، نسمع صوتها خافتا غير متصل بين فترة وأخرى ، ولكن حركة الفدائيين ازدادت قوة وتنظيما بعد ٥ يونيو . وكذلك محمود درويش وزملاؤه : لقد ظهروا أمامنا بعد الهزيمة بوضوح أكثر ، وتجمعت أشعارهم الكثيرة وأصبحت مثل شلال هادر

يتدفق داخل الأرض المحتلة وخارجها . وأول مانلاحظه ، وما سبق تسجيله فى الفصول السابقة من هذا الكتاب هو أن محمود درويش وزملاءه لم يفقدوا الأمل ولم يفقدوا احساسهم بأن النصر سوف يتحقق . ولقد كان من المنتظر والطبيعى أن يكونوا هم أول اليائسين .. لأنهم يعيشون داخل أسوار اسرائيل ، وتسلط عليهم السلطات الاسرائيلية ارهابها المادى والمعنوى كل يوم ، وهم يعيشون ضمن اقلية عربية يعاملها الاسرائيليون أسوأ معاملة .

ولكن الذى حدث هو العكس كما أشرنا فى فصل سابق : انهم لم يفقدوا الأمل ، ولم تتحطم معنوياتهم ، ولم تمتلىء نفوسهم بأى لون من ألوان اليأس أو المرارة أو الاحساس بالتشاؤم . ان ماحدث لهؤلاء الشعراء هو نفسه ماحدث للفدائى الفلسطينى ، فلقد كان من المنتظر أيضا ومن الطبيعى أن يحس الفلسطينى بعد الهزيمة أن كل شىء قد ضاع ، وانه لم يعد أمامه أى أمل على الأقل خلال عشر سنوات قادمة أو أكثر من ذلك بكثير . ولكن الهزيمة على العكس أعطت الفدائى قوة ومنحته حرارة وحيوية وحماسا قريبا من الحماس الدينى ، وأصبح الفدائى بعد الهزيمة يحس أن عليه أن يلعب دور البطولة دفاعا عن أطفاله وأرضه وبيته .

ان الشاعر محمود درويش وهو يقف فى طليعة شعراء المقاومة فى الأرض المحتلة يتفجر بالشعر بعد هزيمة ٥ يونيو . وعندما نقرأ هذا الشعر نحس أن الشاعر المناضل لم يفقد ايمانه العميق بأن المعركة مستمرة ، وبأن النصر لابد أن يتحقق فى النهاية لأن القضية العربية قضية عادلة . ان كل بيت من الشعر كتبه محمود درويش بعد ٥ يونيو يثبت أن أكثر الناس تعاسة هم أكثرهم قوة ونضالا ، وان المواطن العربى الذى يتعرض داخل أسوار اسرائيل لأقسى أنواع الاضطهاد هو فى نفس الوقت أكثر المواطنين صلابة واصرارا على النضال .

اننا نتذكر ونحن نقرأ أشعار محمود درويش تلك العبارة الشهيرة التى

تقول : « انكم لن تخسروا سوى قيودكم » فهذه العبارة تنطبق بصدق ودقة على المواطن العربى داخل اسرائيل .. فماذا يخسر هذا المواطن العربى هناك من النضال والثورة والتمرد ؟.. انه يعيش فى ظل ظروف قاسية مريرة حيث نهب الاسرائيليون أرضه وسدوا فى وجهه أبواب العمل والأمل .. فما الذى يخشاه هذا المواطن بعد ذلك كله . ان النضال هو الحل الوحيد أمامه ، والمقاومة هى الرؤية الصحيحة الوحيدة لهذا المواطن العربى فى ظل ظروفه القاسية .

ان محمود درويش لا يبكى بعد ٥ يونيو ولا يقول ان كل شىء قد انتهى ولم يبق أمامنا سوى الدموع . انه على العكس يشعر بمزيد من القوة ، ويشعر بأن الهزيمة قد فجرت عاصفة كبيرة سوف تقتلع ما أمامها من الصعاب والعقبات :

أخذوا بابا .. ليعطوك رياح
فتحوا جرحا ليعطوك صباح
هدموا بيتا لكى نبنى وطن

ويقول محمود درويش أيضا :

علمتنى ضربة الجلاد
أن أمشى على جرحى
وأمشى ثم أمشى .. وأقاوم

ويقول أيضا :

الموت والميلاد فى وطنى المؤله توأمان

ويقول :

أغمدت فى لحم الظلام هزيمتى
وغرزت فى شعر الضياء أناملي
فاذا احترقت على صليب عبادتى
أصبحت قديسا بزى مقاتل

هذه الأبيات التى كتبها محمود درويش بعد هزيمة ٥ يونيو ان دلت على شيء فانما تدل على قوة الاصرار وعمقه فى قلب هذا الشاعر ، وهو نفس الاحساس الذى يملأ وجدان زملائه من شعراء المقاومة الذين يتعرضون لأقسى المحن وأكثرها صعوبة ، ومع ذلك فانهم يمتلئون بروح النضال والتفاؤل والايمان بالمستقبل والاحساس بأن الهزيمة ليست نهائية وانما هى خطوة على طريق النصر الذى لابد منه . وهذه الروح النضالية الأصيلة التى تملأ شعر محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة ، هى التى صورها أحد هؤلاء الشعراء وهو « توفيق زياد » فى قصيدة له عن أدباء المقاومة فى الأرض المحتلة عنوانها « عشرون » ، وهو يعنى فى هذا العنوان تحديد عدد (١) هؤلاء الشعراء والأدباء الذين يمثلون حركة المقاومة فى الأدب العربى الفلسطينى داخل الأرض المحتلة ، ويتكون من بينهم تجمع أدبى كبير له تأثيره السياسى والنضالى عند الجماهير العربية الخاضعة للاحتلال الاسرائيلى ، وهم فى نفس الوقت يمثلون قوة من قوى المقاومة العربية العنيدة بالنسبة للسلطات الاسرائيلية ، وقد استطاع بعضهم أن يحقق لنفسه سمعة خاصة فى الدوائر الثقافية فى أوربا ، مثل محمود درويش وسميح القاسم وراشد حسين وتوفيق زياد نفسه ، ولذلك فان السلطات الاسرائيلية تخشى منهم جميعا ، وتفرض عليهم ألوانا من الاضطهاد ولكنها فى نفس الوقت تخشى كل الخشية من أن تقتل أحدهم أو تفرض عليه النفى خارج البلاد بعد أن أصبحوا قوة ذات صوت مسموع ومرهوب ، ولاشك أن هؤلاء العشرين يمثلون مشكلة أساسية من مشاكل السلطات الاسرائيلية لم تجد لها بعد حلا نهائيا وهى لاتملك أمامهم أكثر من مصادرة مايكتبون ، واعتقالهم وتحديد اقامتهم ، وفصلهم من أعمالهم .. ومع ذلك فانتاجهم الأدبى يتسلل الى المواطنين العرب داخل الأرض المحتلة ويتسلل بعض هذا

---

(١) هناك تفسير آخر لعنوان هذه القصيدة وهو « عشرون » ، ويقول هذا التفسير ان الشاعر توفيق يقصد الاعوام العشرين التى قضاها العرب صامدين فى الارض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٦٨ .

الانتاج خارج الأرض المحتلة ليمثل تيارا كهربائيا فكريا وفنيا يهز الضمير العربى ويثيره باستمرار .

من هم هؤلاء العشرون .. زملاء محمود درويش ورفاق طريقه فى الفن والنضال ؟ .. لقد عرفنا انتاج بعضهم وقرأناه ولكننا لم نعرف انتاج الآخرين بعد ، أما أسماؤهم فقد أصبحت كلها معروفة لنا وهم : محمود درويش ، سميح القاسم ، نايف سليم ، حنا أبو حنا ، محمود دسوقى ، حبيب قهوجى ، توفيق فياض ، فوزى الأسمر ، سالم جبران ، فهد أبو خضرة ، أحمد حسين ، راشد حسين ، عصام العباسى ، عطاالله منصور ، ابراهيم مؤيد ، زكى سليم درويش ، جمال قعوار ، أبو اياس ، أحمد يونس ، توفيق زياد .

هؤلاء العشرون يحدثنا عنهم وعن دورهم النضالى وعن صمودهم واصرارهم واحد منهم ، هو توفيق زياد فيقول :

كأننا عشرون مستحيل
فى اللد .. فى الرملة .. فى الجليل
هنا على صدوركم باقون كالجدار
وفى حلوقكم كقطعة الزجاج
وفى عيونكم
زوبعة من نار

وهو يؤكد أنهم سوف يقبلون أشق الأعمال وأقلها قيمة ، ولكنهم لن يتركوا وطنهم ولن يتركوا أقلامهم ولن يتخلوا عن ايمانهم بقضيتهم :

هنا على صدوركم باقون كالجدار
ننظف الصحون فى الحانات
ونملأ الكؤوس للسادات
ونمسح البلاط فى المطابخ السوداء
حتى نسل لقمة الصغار

من بين أنيـــابكم الزرقـــاء
هنا على صدوركم ، باقون كالجدار
نجوع
نعرى
نتحدى
ننشد الأشعار

ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملأ الســـجون كـــبرياء
ونصنع الأطفـــال ... جيـــلا ثائرا

وراء جيل
اننا باقون
فلتشربوا البحرا

نحرس ظـل التين والزيتـــون
ونزرع الأفكار كالخمير فى العجـين
اذا عطشـــنا نعصر الصـــخرا
ونأكل التـــراب ان جعنـــا
ولا نرحل

يا جذرنا الحى تشبث
واضربى فى القـاع يا أصول

هذه هى الروح التى تسيطر على شعراء المقاومة ، انها روح التمسك بالجذور ، روح الصلابة الثورية والاستشهاد والايمان القـوى بعـدالة القضية ، روح الاستبسال الحقيقى الصادق ، روح النضـال ذى النفس الطويل الذى يحتمل الهزائم ، ولا يستسلم لها ، وانما يقف على قدميه كل مرة ليبدأ من جديد .

والحقيقة أن محمود درويش ورفاقه من شعراء المقاومة وأدبائها يمثلون

« ظاهرة نفسية » جديدة لها قيمتها وأهميتها بالنسبة للأدب العربى المعاصر كله ، فهم ليسوا مجرد ظاهرة فنية وحسب ، انهم خميرة نضالية صادقة تنقل عدواها الى الآخرين وتمسهم بقوتها السحرية الأصيلة . والحقيقة أن الشعر العربى المعاصر قد تأثر تأثرا واضحا بهؤلاء الشعراء ، وتعلم منهم الكثير . لقد ترك هؤلاء الشعراء بصماتهم على الحركة الشعرية العربية المعاصرة .. وخاصة من الناحية الموضوعية والنفسية .

والحق أن روح المقاومة التى يمثلها الفدائى والشاعر معا سوف تقدم للأمة العربية قوة جديدة تمنحها مزيدا من القدرة على الحركة والانتقال من الموقف الراهن الى موقف آخر أكثر أملا وأكثر اشراقا .

وسوف نقف أمام ثلاثة نماذج يمثل كل منها نوعا من التأثر بشعراء المقاومة . ولولا شعراء المقاومة .. لولا أشعارهم ومواقفهم لما ظهرت هذه النماذج الشعرية الجديدة ذات الدلالة العميقة .

والنموذج الأول تقدمه الشاعرة فدوى طوقان ، وهى الشاعرة الفلسطينية التى ولدت وعاشت فى نابلس فى الضفة الغربية للاردن ، وقد بقيت الشاعرة فى مدينتها بعد الاحتلال الاسرائيلى ، وعانت مايعانيه أهل الضفة الغربية من ظروف الضغط والارهاب . وفدوى طوقان كانت فى كل شعرها قبل ٥ يونيو عام ١٩٦٧ تعبر عن قلب حزين متشائم يائس تملأه دموع غزيرة . وكما أشرت فى فصل سابق من هذا الكتاب كان وراء شعرها الحزين تجربة شخصية وتجربة عامة ، أما التجربة الشخصية فتتمثل فى موت شقيقها الشاعر الكبير ابراهيم طوقان عام ١٩٤١ فى زهرة شبابه ، ثم موت شقيقها نمر بعد ذلك فى حادث طائرة . أما التجربة العامة فهى تجربة وطنها فلسطين . فلقد تركت المأساة الفلسطينية فى قلب هذه الشاعرة الحساسة جرحا عميقا ، هو الجرح الذى جعل من شعرها دموعا وأحزانا دائمة ... ولقد كان من المنتظر أن تزيدها هزيمة ٥ يونيو حزنا فوق حزن ، ولكن الذى حدث هو العكس ، لقد انطلقت من أعماق الشاعرة الحزينة شرارة

نضالية . فقد ذهبت الشاعرة الى يافا بعد عدوان ٥ يونيو ، ولأول مـــرة ترى هذه المدينة العربية منذ عام ١٩٤٨ ، حينما أقيمت دولة اسرائيل ، واختفت المدن العربية العزيزة واحدة بعد الأخرى خلف الأسوار التى أقامتها اسرائيل . وفى يافا وبعد عدوان ٥ يونيو بعدة شهور التقت فدوى طوقان بالشعراء الشبان الذين يقيمون فى الأرض المحتلة ، شعراء المقاومة والنضال .. التقت بمحمود درويش ورفاقه .. وبعد هذا اللقاء كتبـــت الشاعرة قصيدة بعنوان « لن أبكى » :

على أبواب يافا يا أحبائى
وفى فوضى حطام الدور بين الردم والشوك
وقفت وقلت للعينين
قفا نبكى
على أطلال من حلوا وفاتوها
تنادى من بناها الدار
وتنعى من بناها الدار
وكان القلب منسحقا ..
وقال القلب :
ما فعلت
بك الأيام يادار ؟

ولكن الشاعرة رغم كل هذه الأحزان التى هاجمتها عندما رأت يافا ، قد وجدت فى نفسها أملا جديدا مشرقا بعد لقائها بهؤلاء الشعراء الشبان الذين يقيمون فى الأرض المحتلة ، وانطلقت الشاعرة تقول :

أحبائى ...
مسحت عن الجفون ضبابة الدمع الرمادية
لألقاكم وفى عينى نور الحب والايمان
بكم ، بالأرض ، بالانسان

فواخجلى لو أنى جئت ألقاكم
وجفنى راعش مبلول
وقلبى يائس مخذول
وهأنا يا أحبائى هنا معكم
لأقبس منكم جمرة
لآخذ يا مصابيح الدجى من زيتكم قطرة
لمصباحى ، وها أنا يا أحبائى
الى يدكم أمد يدى
وعند رؤوسكم ألقى هنا رأسى
وأرفع جبهتى معكم الى الشمس
وها أنتم كصخر جبالنا قوة
وها أنتم كزهر بلادنا الحلوة
فكيف الجرح يسحقنى
وكيف اليأسِ يسحقنى
وكيف أمامكم أبكى
يمينا بعد هذا اليوم لن أبكى

ثم تقول فدوى طوقان فى نفس القصيدة مخاطبة محمود درويش وزملاءه من شعراء المقاومة :

أحبائى ، مصابيح الدجى ، ياإخوتى فى الجرح
وياسر الخميرة ، يابذار القمح
يموت هنا ليعطينا
ويعطينا
ويعطينا
على طرقاتكم أمضى
وها أنا بين أعينكم

ألملمها دموع الأمس
وأزرع مثلكم قدمى فى وطنى وفى أرضى
وأزرع مثلكم عينى فى درب السنى والشمس

وهكذا ، ولأول مرة على وجه التقريب بين عشرات القصائد التى كتبتها فدوى طوقان خلال مايقرب من ربع قرن من حياتها الفنية نحس بروح التفاؤل الثورى ، والأمل فى الغد ، بعد أن كان شعرها كله حزنا ودمعا وتعبيرا عن نفسية يائسة ممزقة خالية من أى أمل فى المستقبل ، ان الشاعرة فدوى طوقان تجسد فى هذه القصيدة بداية من بدايات التحول الكبير فى نفسية الشعراء العرب ، وهو التحول الذى يعود الفضل الكبير فيه الى ظهور محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة فى الأرض المحتلة والى تأثيرهم على نفسية المواطنين والشعراء العرب على السواء .

أما النموذج الثانى الذى يكشف لنا أثر شعراء المقاومة على غيرهم من الشعراء العرب فيمثله الشاعر الفلسطينى « أبو سلمى » ، وأبو سلمى هو أحد كبار الشعراء الفلسطينيين الذين ينتسبون ـــ كما أشرنا من قبل فى فصول سابقة ـــ الى جيل الثورة التى اشتعلت على أرض فلسطين عام ١٩٣٦ . وهى الثورة التى تآمرت عليها انجلترا مع الاسرائيليين ومع عدد من السياسيين الرجعيين من أمثال نورى السعيد ، واشتركت فى هـــذه المؤامرة بعض القيادات الفلسطينية التقليدية من أمثال الحاج أمين الحسينى ولكن هذه الثورة مع ذلك كله كانت تمثل أعلى موجة من موجات المقاومة الفلسطينية قبل قيام اسرائيل . وفى ظل هذه الثورة اشتعلت روح المقاومة فى الشعر العربى الفلسطينى ، وهى الروح التى نجدها واضحة فى شعر « أبو سلمى » الذى كتبه فى مرحلة الثورة « ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ » وفى الأعوام القليلة التالية للثورة . على أن « أبو سلمى » بعد أن رأى المأساة تزحف على وطنه تغير موقفه النفسى ، فبدأ الأسى يملأ وجدانه ، وأصبح شعره مليئا بالحزن والبكاء على أرضه وشعبه ، وقد ظل « أبو سلمى »

يمثل هذا الصوت الحزين المتفجع الباكى على اللاجئين فى خيامهم ، وعلى المدن والقرى الفلسطينية التى بدأت تغيب عن العين فى ظل الاحتلال الصهيونى ، حيث تغيرت أسماء هذه المدن والقرى بأسماء اسرائيلية ، فقد تحولت يافا الى « يافو » وعكا الى « عكو » وحدثت تغييرات أخرى شاملة لكل الأسماء العربية الغالية على قلوبنا جميعا ، كذلك تغيرت الملامح العربية للقرى والمدن واكتست بطابع يهودى وامتدت يد الهدم والتغيير الى الشوارع والكنائس والجوامع .

وقد ظل أبو سلمى يعبر فى شعره عن هذا الحزن الكبير العميق ، حتى اشتعلت المقاومة فى فلسطين بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، وحتى ظهر هؤلاء الشعراء الشبان الذين يمثلون الوجه الثانى من وجوه المقاومة العربية ، حيث يعتمد الوجه الأول على القوة الفدائية المسلحة .

واستطاع هؤلاء الشبان أن يدفئوا قلب الشاعر الكبير الذى قضى أكثر من ثلاثين عاما يحمل القضية الفلسطينية فى قلبه ، ويضمها بين جناحيه ، وقضى منها مايقرب من عشرين عاما لايجد لشاعريته زادا الا الحزن والأسى واليأس . وهكذا امتلأت نفسية « أبو سلمى » بعواطف جديدة ، وازدهرت فيها آمال حارة ، وتغير موقفه الوجدانى من اليأس الى التفاؤل . وهاهو يقول فى قصيدة أخيرة له بعنوان « من فلسطين ريشتى » حيث يخاطب شعراء المقاومة الشبان :

شعراء الجليل والشاطىء الغربى
أنتم طلائع الفرسان
شعركم مثلكم خلودا ويسرى
من فلسطين فيه نفح الجنان
زنتم الليل بالحروف نجوما
يا أحباى فى أحب مكان
تتحدون بالقوافى المدماة
نضالا عصابة الشيطان

طلع الشعر فوق أرضكم الخضراء
عرسا مخضب الأغصان
كل شعر سواه تلوى به الريح
ويطويه عالم النسيان
شعركم وحده يعمق فى الأرض
جذور الصمود والعنفوان
شعركم وحده المجلجل فى الساح
رفيق السلاح فى المعمعان

وهكذا يعود الأمل الى قلب الشاعر الكبير الحزين ، فيحس باقتراب النور والخلاص ، بعد أن كان يحس بأن الظلام يحيط به وبقضيته من كل جانب ، ولذلك فهو يخاطب الفدائيين والشعراء من أبناء الأرض المحتلة فيقول :

عندما تخطرون تزدهر الأرض
وتهدى غلائل الريحان
نحن أسرى وأنتم أنتم الأحرار
خلف السجون والقضبان

ولكن الأسير الذى يمثله « أبو سلمى » يتحرر من أسره وينطلق فى عالم كبير من الأمل عندما يرى الأسرى الحقيقيين من أمثال محمود درويش يشعرون بالقوة والأمل الكبير فى الغد ولا يستقر اليأس القاتم فى قلوبهم على الاطلاق .

والنموذج الثالث الذى يمكن أن نقدمه فى هذا الميدان ، كأثر من آثار محمود درويش وزملائه من شعراء الأرض المحتلة وصمودهم الكبير سواء فى مواقفهم ضد السلطات الاسرائيلية أو فى أشعارهم الثورية التى تنبض بالأمل وبروح النضال الحقيقى .. هذا النموذج الجديد يمثله الشاعر نزار قبانى الذى أحس بصوت الهزيمة فى ٥ يونيو احساسا مدويا عنيفا ، فانفجر

فى عدد من قصائده يصب غضبه على شعبه ، ويحمل فى هذه القصائد سكينا يمزق بها نفسه وقومه معا ، ويحاول أن يضع اصبعه أو سكينه بقسوة على مناطق الداء ويطالب بالقضاء عليها ، ولقد كان معظم شعر نزار قبانى قبل النكسة يدور حول المرأة وحول تجارب الشاعر العاطفية بل والحسية أيضا .

ولكن صوت الهزيمة أيقظه من أحلامه الناعمة الهادئة ، فانطلق ليغنى فى شعره بطريقة جديدة وأسلوب جديد ، وكان من أكبر التجارب النفسية والفنية التى أثرت فى نفسه تجربة لقائه مع شعر المقاومة وتأثره بشعراء المقاومة ومواقفهم المختلفة ، لقد اهتز نزار قبانى من أعماقه أمام هؤلاء الشعراء الشبان المناضلين ، ووقف أمامهم يعطيهم العهد الصادق أن يتعلم منهم ويجعلهم مثلا أعلى لدور الفنان فى حياتنا العربية ، بل وأخذ يطالب بصوت مرهف وعنيف بأن يقف كل الشعراء أمام محمود درويش وزملائه ليتعلموا منهم كيف يكون الشعر وكيف يكون الانسان . يقول نزار قبانى فى قصيدته الى « شعراء الأرض المحتلة » :

شعراء الأرض المحتلة
يا أجمل طير يأتينا من ليل الأسر
يا حزنا شفاف العينين ، نقيا مثل صلاة الفجر
ياشجر الورد النابت من أحشاء الجمر
يامطرا يسقط رغم الظلم ورغم القهر
نتعلم منكم كيف يغنى الغارق من أعماق البئر
نتعلم كيف يسير على قدميه القبر
نتعلم كيف يكون الشعر

وفى فقرة سابقة على هذه الفقرة يقول نزار :

نتعلم منكم منذ سنين
نحن الشعراء المهزومين

نحن الغرباء عن التاريخ وعن أحزان المحزونين
تتعلم كيف الحرف يكون له شكل السكين

اذن فقد استطاع شعراء المقاومة أن يخلقوا نغمة نفسية جديدة فى أعماق الشاعر العربى خارج الأرض المحتلة ، وهذه النغمة الجديدة هى الخروج من الحزن والبكاء كما خرجت فدوى من عالمها الباكى الحزين على يد شعراء المقاومة ، لتنضم الى موكبهم الصامد المملوء بالأمل والتفاؤل والاصرار على النضال . وهذه النغمة النفسية الجديدة هى نغمة العودة الى التفتح والانطلاق وروح النضال عند شاعر مثل « أبو سلمى » ... لقد أعاده هؤلاء الشعراء الشبان الى روح ثورة عام ١٩٣٦ ، وهى روح المقاومة والاصرار لا روح الحزن والاستسلام .. لقد عاد أبو سلمى الى حرارة شبابه ، بعد أن كان قد يئس وسلم وجدانه لأحاسيس المشرد الضائع، والنغمة النفسية الجديدة أيضا هى الخروج من التجارب الذاتية الناعمة التى كانت محور قصائد نزار قبانى فى معظمها ، ثم هذا الوعد الذى يقدمه نزار بالالتزام فى الموقف الشعرى .. الالتزام بالقضية العربية حتى النصر ، فهى وحدها منبع الشعر ومصدر الهامه عند نزار منذ ٥ يونيو الى اليوم .

وهكذا .. لقد أعاد شاعر المقاومة الأمل الى النفس العربية وانتقل بالشعر والشعراء الى عالم جديد وموقف جديد من الحياة . ليس فيه يأس ولا بكاء بل فيه أمل وتفاؤل ونظرة الى الأمام . ان يد الشاعر فى الأرض المحتلة تمسح على نفوس الشعراء خارج هذه الأرض لتمحو آثار الهزيمة المعنوية التى ملأت نفوسهم بعد ٥ يونيو .

وهكذا فالجريح الآن هو الذى يعطينا الدواء ويقدم الينا العلاج الروحى، لأن نفسه رغم الجرح أقوى من نفوسنا وأشد عزما واصرارا من الجميع .

كلمة
أخيرة

بعد هذه الرحلة مع محمود درويش وفنه نستطيع أن نخرج بمجموعة من الملامح الرئيسية التى يتكون منها فن هذا الشاعر ووجدانه ، وان كنت أشعر أن من الصعب أن يقول النقد كلمة نهائية فى فن محمود درويش وذلك لأنه ما زال شابا أمامه فرصة واسعة للتطور الفنى ، رغم أنه ، وهو فى الثلاثين من عمره الآن « ١٩٧١ » ، قد قدم الينا انتاجا فنيا غزيرا يسمح لنا بدراسته والوقوف أمامه كشخصية واضحه المعالم وعلى درجة كبيرة من النضج والعمق والحرارة .

وخلاصة ما يمكن أن نقوله بعد هذه الرحلة مع محمود درويش ومن خلال المجموعات الشعرية التى أصدرها حتى الآن هو أنه تأثر فى تكوينه الفنى والفكرى بعدة عوامل منها :

أولا : العقيدة الاشتراكية التى خلقت فيه نزعة انسانية عميقة ، وفتحت أمامه آفاقا واسعة يطل منها على ثورة الانسان المعاصر ضد الظلم والاستغلال ... لقد ساعدته هذه العقيدة الاشتراكية على النضج المبكر والتفتح والفهم الصحيح لمشاكل الانسان والمجتمع .

ثانيا : عقيدته القومية ... فهو عربى مؤمن بعروبته كل ذلك فى غير ما تعصب أو استعلاء أو محاولة للرد على المأساة التى يعيشها العرب فى فلسطين بأفكار عنصرية مليئة بالحقد والكراهية للشعوب الأخرى ... انه عربى انسانى يطلب العدل والخلاص من الظلم والقضاء على الاستغلال .

ثالثا : شعر محمود درويش ليس وليد التأمل الشخصى والحجرات المغلقة، فهو شاعر مرتبط بالناس .. بمشاكلهم وقضاياهم ، وكثيرا ما ألقى قصائده على الجماهير، وأحس دائما أن الكلمة لامعنى لها « اذا لم تحمل المصباح

من بيت الى بيت » ، فشعره كله يحمل نبضا صادقا هو ثمرة الاتصال بالناس والمحبة الغامرة لهم والمشاركة الصادقة غير المفتعلة لآلامهم وظروفهم المختلفة التى هى آلام محمود درويش وظروفه فى نفس الوقت :

رابعا : من ناحية الثقافة الفنية استطاع محمود درويش أن يكون نفسه تكوينا ثقافيا ممتازا ومتكاملا ، فمحمود درويش وثيق الصلة بالثقافة العربية القديمة ، ووثيق الصلة بالثقافة العربية المعاصرة ، يتابعها بأمانة ودأب ويتأثر بتياراتها المختلفة ، ولذلك لا يبدو محمود درويش ظاهرة منفصلة عن التطورات الأدبية العربية ... بل نجد انه قد تأثر بحركة الشعر الجديد واستفاد منها فائدة واسعة وأضاف اليها فى نفس الوقت اضافات حقيقية . أما ثقافته العامة فقد امتدت الى الأدب العالمى عن طريق اللغة الانجليزية واللغة العبرية التى يجيدها محمود درويش ويقرأ بها ما يترجمه الاسرائيليون من الأدب العالمى .

واذا كانت هذه هى العوامل الرئيسية التى أثرت فى شخصية محمود درويش الفنية بالاضافة الى عامل العوامل كلها والذى يتجسد فى المأساة الفلسطينية نفسها ... فمحمود هو تلميذ هذه المأساة ، وابنها ، وشاعرها ، ومغنيها الكبير... بالاضافة الى هذه العوامل كلها فاننا نلتقى فى شعره بملامح أخرى لنفسيته وموقفه الفكرى ، فهو شاعر « التفاؤل الثورى » بكل معنى الكلمة ... انه يؤمن ايمانا « صوفيا » بعدالة قضيته وضرورة انتصار هذه القضية ، ولا يعبر فى شعره عن يأس أو روح عدمية قاتمة ، وكثيرا ما يترك الواقع ويرفرف بجناحيه فى عالم الأحلام .. ذلك لأنه يعيش فى حلم كبير متوهج هو حلم النصر الكامل للقضية المظلومة التى يعبر عنها .

وهو شاعر الأرض ... يتمسك بها ، بأعشابها وصخورها وترابها وترابها الى أبعد الحدود ... وقضية ارتباطه بالأرض تبدو قضية مقدسة عنده ... فهو يلح الحاحا وجدانيا عميقا على نغمة التمسك بالأرض ومن هنا استحق

ـ فيما أتصور ـ أن نسميه « شاعر الأرض المحتلة » ... لأنه يغنى دائما لهذه الأرض ويتمسك بها ويحنو عليها :

يا نوح
لا ترحل بنا
ان الممات هنا سلامة
انا جذور لا تعيش بغير أرض
ولتكن أرضى قيامة !

وهو شاعر « الحنان » و « الأسرة الممزقة » ... ان قلبه ملىء بالحنان الغامر الدافىء ، يحاول أن يجمع بين جناحى قصائده كل ما تبعثر وتمزق من أسرته التى هى نموذج لشعبه أيضا ، والأسرة تحتل فى شعره مكانا بارزا ... الأب والأم والأخت والجد والبيت بمدفأته وقهوته وخبزه وحبل غسيله ... انه يعبر عن الأسرة بالحب العميق واللهفة الصادقة ، والحنان الحقيقى الأصيل ... ذلك لأن جرح وطنه قد أصاب الأسرة فى بلاده فمزقها وفرقها وأبعد الأم عن طفلها والأب عن زوجته وأولاده ... وهكذا

ان حنان محمود درويش ، نحو شعبه وأهله ، ونحو أسرته على وجه الخصوص هو عاطفة أساسية تحس بها كالتيار المتدفق الجارف فى شعره ... انه يقول عن أخته :

حرير شوك أيامى على دربى الى غدها
حرير شوك أيامى
وأشهى من عصير المجد ما ألقى ... لأسعدها
وأنسى فى طفولتها عذاب طفولتى الدامى
وأشرب كالعصافير الرضا والحب من يدها

ويقول عن أمه بنفس الحنان والحب والحرارة :

أحن الى خبز أمى
وقهوة أمى
ولمسة أمى

وتكبر فى الطفولة
يوما على صدر يوم
وأعشق عمرى لأنى
اذا مت
أخجل من دمع أمى

انه حنان صادق وحقيقى ، يكشف لنا مدى مايحمله قلب الشاعر من عاطفة أصيلة تهدف الى تجميع شعبه المشرد من جديد ... بحيث تعود الأسرة العربية والبيت العربى الى الحياة السعيدة التى يلتقى فيها الأب والأم والابن والأخت ... وبحيث ترفرف تلك العاطفة الحنون التى تملأ الأسرة على كل مكان ... وبحيث ترتوى هذه العاطفة الصادقة الأصيلة التى مزقها اليهود !

ان محمود درويش صاحب شاعرية خصبة وعاطفة عميقة وقلب كبير ونظرة انسانية مليئة بالحب للآخرين .. ولا شك أن ما حققه هذا الشاعر حتى الآن على قيمته ونبله — انما يبشر أيضا بالكثير الذى يمكن أن يحققه فى المستقبل .

وأخيرا ... أحب أن أشير الى بعض المراجع الرئيسية التى أفادتنى فائدة كبيرة فى هذا البحث ... هناك دراسات الأستاذ غسان كنفانى القيمة عن أدب المقاومة ، ثم « ديوان الأرض المحتلة » الذى أصدره الشاعر الأستاذ يوسف الخطيب وجمع فيه نسبة كبيرة من نصوص الشعر فى الأرض المحتلة كما قدم له بمقدمة شاملة وممتازة وهناك المجموعة الكاملة لشعر محمود درويش والتى أصدرتها دار العودة فى بيروت ، وكتابه « شىء عن الوطن » وهو مجموعة مقالات وأحاديث لمحمود أصدرته دار العودة أيضا ، وهناك الدراسات التى قدمها مركز الأبحاث الفلسطينية الذى يرأسه العالم العربى اللامع الدكتور أنيس صايغ ، ان هذه الدراسات هى دليل ثقافى وافر الغنى والخصوبة لأى باحث فى القضية الفلسطينية من جوانبها السياسية أو الفكرية أو الفنية . وأذكر هنا على وجه

الخصــوص كتاب « العرب فى اسرائيل » للمحــامى العــربى صبرى جريس . وقد أصــدره مركز الأبحاث منــذ أكثر من سنتين . وأحب أن أشير أيضا الى كتاب « العرب فى الأرض المحتلة » للأستاذ ربحى كمال والى دراسات الدكتور عبد الرحمن ياغى عن شعر المقاومة . هذه كلها كانت مراجع ممتازة أفادتنى وساعدتنى فى اعداد هذا البحث عن محمود درويش .

***

ولنتذكر فى النهاية ان محمود درويش ليس مجرد شاعر كبير وانما هو مناضل كبير أيضا ، ولذلك فان أى دراسة له كان يجب أن تمتد الى التعرض لظروف الأرض المحتلة وشعبها العربى ... ولعل خير ما يصور محمود درويش ، ذلك الشــاعر المناضل الانسان ، فى كلمــات قصيرة وصادقه هو قوله :

مليون عصـــفور
على أغصــان قلبى
يخلق اللحن المقاتل

ملحق :

وثيقتان

الوثيقة الاولى :

نص قرار الحزب الشيوعى الاسرائيلى بفصل
محمود درويش بعد خروجه من اسرائيل

١ ـ بحثت سكرتارية منطقة حيفا للحزب الشيوعى الاسرائيلى فى ترك الشاعر محمود درويش ـ عضو الحزب الشيوعى الاسرائيلى ـ البلاد وانتقاله الى القاهرة ، الأمر الذى جرى بدون معرفة الحزب .

٢ ـ ان الحزب الشيوعى الاسرائيلى ينتقد هذه الخطوة التى قام بها محمود درويش ويعتبرها خطوة غير صحيحة ومخالفة لواجباته .

٣ ـ تقرر سكرتارية منطقة حيفا للحزب الشيوعى الاسرائيلى فصله من الحزب .

٤ ـ ان الحزب الشيوعى الاسرائيلى يناضل ضد سياسة التمييز القومى والاضطهاد البوليسى الذى تقوم به الأوساط الحاكمة فى اسرائيل والموجهة ضد المثقفين العرب الديموقراطيين .. هذه السياسة التى قاسى منها محمود درويش بشكل خاص ، فلمدة متواصلة فرض عليه الاعتقال المنزلى والاقامة الجبرية فى حيفا . كما اعتقل من وقت لآخر ، بشكل تعسفى الى حد عدم الاعتراف بأنه ذو جنسية اسرائيلية .

ولكن هذه السياسة وهذه الاجراءات التعسفية التى تقوم بها الأوساط الحاكمة لاتبرر خطوته هذه وهى هجر البلاد وترك ساحة النضال من داخل اسرائيل .

الوثيقة الثانية :

نص كلمة جريدة « الاتحاد » العربية التى تصدر فى حيفا عن خروج محمود درويش من اسرائيل

محمود درويش لم يرحل

ظهر هذا المقال فى جريدة « الاتحاد » بدون توقيع ، ولكن من المعتقد أن كاتبه هو « اميل حبيبى » احد كتاب الارض المحتلة البارزين ومؤلف رواية « سداسية الأيام الستة » المعروفة والتى نشرتها روايات الهلال فى شهر يونيو ١٩٦٩ ، واميل حبيبى هو عضو عربى فى البرلمان الاسرائيلى « الكنيست » كما أنه عضو المكتب السياسى للحزب الشيوعى الاسرائيلى « راكاح » .. واميل حبيبى ايضا هو واحد من ابرز المناضلين من اجل قضية العرب فى الارض المحتلة « ر.ن »

« أقول للناس ، للأحباب : نحن هنا
أسرى محبتكم فى الموكب السارى »
محمود درويش

من الطبيعى أن يشعر الناس هنا ، الذين ذهب محمود درويش ورفاقه الى السجون مرات ومرات « أسرى محبتكم » بالمرارة وبالأسى حين فوجئوا برحيله الى القاهرة ، لقد ظل باسمهم سنين طويلة يهتف ، متحديا أقسى الضنى ومجهزا على عثرات اليأس :

« ياصخرة صلى عليها والدى لتصون
ثائر
أنا لن أبيعك باللآلى
أنا لن أسافر
لن أسافر
وأنا مع الأمطار ساهد
عبثا أحدق فى البعيد
سأظل فوق الصخر ، تحت الصخر
صامد .. !

حتى أصبح التعبير ، الذى أدهش العالم .. عن أمل شعب من الصعب أن يلومه أحد اذا مافقد الأمل . ففى أصعب الأوقات ، حين ادلهم ليل وأصبح من العسير على الكثيرين التنفس ، وجد محمود درويش تعزية وتحديا فى « قوة صمت المقبرة » ! ومع ذلك لم نصمت . ولكم أثار

صرخة الناس الطيبين فى البلاد العربية ... قوى التقدم وسلام الشعوب العادل الذين أرادت الأيدى السوداء ، مستغلة مأساة ١٩٦٧ ، أن تقتل فى نفوسهم أملهم بالتحرر وبالسلام وبالتقدم الاجتماعى : فاذا لم يفقد الأمل هؤلاء ، كيف نفقده نحن ؟

باسمنا يهودا وعربا ، نعم . يهودا وعربا . بل لأننا معـا سرنا يهودا وعربا . باسم صمودنا خلال أطول ليل ، هتف محمود درويش :

« خسرت حلما جميلا
خسرت لسع الزنابق
وكان ليلى طويلا
على سياج الحدائق
وما خسرت السبيلا

ولا نبوح بالسر ، الذى تعرفه السلطة ، اذا ذكرنا الآن آن المنكوبين فى القدس العربية المحتلة طبعوا وتناقلوا وحفظوا عن ظهر قلب ، مجففين دموعهم ، أبيات محمود درويش المهداة الى مدينة القدس واخواتها :

« واذا كنت أغنى للفرح
خلف أجفان العيون الخائفة
فلأن العاصفة
وعدتنى بنبيذ
وبأقواس قزح »

فكان من الطبيعى أن يدرك محمود درويش .. كما سمعناه فى بيانه فى مؤتمره الصحفى فى القاهرة ، انه مهما حاول حصر رحيله فى اطار التصرف الشخصى الصرف ، ومهما بذل من منتهى الجهد « للحيلولة دون تحويله الى موضوع للمناقشة وللأخذ وللرد . فان رحيله يظل قضـية عامة . وليس من حقه كما اعترف هو نفسه ، « بأن أتصرف كمسـافر وكسائح » وبأنه مطالب كما قال هو نفسه ، « أمام نفسى وأمام الرأى

العام بتقديم بعض التحديات العامة لأتابع بعدها طريقى » .

ونحن أيضا نرغب فى الحيلولة دون تحويل رحيله الى موضوع للمناقشة وللأخذ وللرد . وذلك لادراكنا مغدن محمود درويش وان رحيله كما أعلن فى مؤتمره الصحفى ، ليس نابعا عن رغبته فى الانسلاخ عن انتمائه السياسى والفكرى . وأنه لا يزال يؤمن بحزبنا وبمبادىء هذا الحزب الذى ، كما قال عنه فى مؤتمره الصحفى يضم فى جبهة واحدة متراصة كل العناصر المناضلة من المواطنين العرب وخيرة العناصر المكافحة من المواطنين اليهود ..

وانه يشير الى امكانية التعايش والحياة المشتركة السعيدة بين العرب واليهود ، ويرفع الشعار : مع الشعوب العربية ضد الاستعمار لا مع الاستعمار ضد الشعوب العربية ، وهو يحذر من الهاوية التى يقدم الحكم الاسرائيلى المواطنين اليها اذا ما استمر فى تنكره لحقوق الشعب العربى الفلسطينى والاعتداء على الأرض العربية وحقوقها وسيادتها . واذا ما استمر تحالفه العضوى مع الامبريالية العالمية . ومع هذا فمن الواضح أننا نعارض رحيله ولا نقبل الحجج التى قدمها لتبرير هذه « الخطوة الخطيرة » كما سماها هو . وهو نفسه يدرك أنه بتصرفه الفردى هذا ، الذى أخفاه عن حزبه ، لم يبق أمام الحزب أى طريق سوى اتخاذ الاجراءات التنظيمية الملائمة تجاه تصرفه هذا .

وهو نفسه أعلن فى مؤتمره الصحفى فى القاهرة أن الحزب من حقه الطبيعى « أن يتحفظ من هذا السلوك الفردى الذى خالفت به أبسط قواعد التنظيم الحزبى » .

ويبقى رحيل محمود درويش قضية فردية فى معنى معين ، وقضية عامة فى معنى آخر :

أما انها قضية فردية فلأنه مهما يشتد القهر لايستطيع جميع عرب اسرائيل الرحيل الى القاهرة أو غيرها ، ولا القاهرة أو غيرها تفتح أبوابها

لجميع العرب فى اسرائيل ، فهذا ليس حلا واقعيا لا بالنسبة الى الناس العاديين ولا بالنسبة الى الناس المكافحين .

وأما انها قضية عامة فلأنها تعبير مؤلم عن قسوة وغباء السياسة الرسمية تجاه العرب فى اسرائيل ... (١) الذين يملأون الدنيا صراخا عن رغبتهم فى السلام وفى التعايش السلمى مع الشعوب العربية ، لم يفكروا فى يوم من الأيام أن يثبتوا فى علاقتهم بالأقلية العربية التى تعيش فى وطنها فى ظل الحكم الاسرائيلى أكثر من ٢٢ عاما .

بل عاملوها معاملة الشعب المغلوب على أمره ، ان محمود درويش ، مثل كثيرين غيره . هو « لاجىء » فى وطنه .

ان قريته « البروة » وقد هدمت وقامت مكانها مستوطنة يهودية . فالتجأ مع عائلته الى قرية جديدة مجاورة فاعتبر « لاجئا » ومنعت السلطات عنه الجنسية الاسرائيلية .

ان محمود درويش شاعر كبير وأى حكم يتحلى بذرة من المسئولية كان يجب أن يترك هذا الشاعر الكبير وشأنه ان لم يحاول احتضانه ، ولكن الحاكمين المتغطرسين فى بلادنا ، الذين أعمتهم عنصريتهم ، كانوا أشد غباوة من بومة فى محاولتهم تنغيص الحياة على محمود درويش ورفاقه وجعلها غير محتملة ، ان من سخرية القدر أنه ماكان يفجر لغم فى اسرائيل الا وتسرع الشرطة الى اعتقال محمود درويش .. بدون محاكمة . ولمدة طويلة فرضت عليهم الاقامة الجبرية فى بيوتهم أثناء الليل ، يغيبون مع الشمس ويشرقون معها .

ومحمود درويش المحروم من زيارة قريته الأصيلة حرم من زيارة أهله فى منفاهم فى قرية جديدة .

لقد قال محمود درويش انه برحيله الى القاهرة لم يرحل عن المعركة التى كرس حياته وشعره من أجلها بل انتقل الى موقع جديد أرحب صدرا وغنى بامكانيات الحركة .

(١) يقصد الكاتب هنا حكام اسرائيل .

اننا على ثقة بأننا أشد حاجة الى محمود درويش هنا ، بيننا . ولكن حكام بلادنا يجب ألا يلوموا الا أنفسهم للنتيجة التى توصل اليها محمود درويش ، وفرحتهم على أنهم تخلصوا منه هى مثل فرح التيس الذى حين يأكل جذور الشجر ويفرح لايفكر بغذاء السنة القادمة .

وأما نحن هنا . الباقون أبدا هنا . والمتفائلون مهما طال ليل فان « خلف شباكنا نهار » . ونصر على أن ندافع عن حقنا بأن ندافع « وعن دفاعى أدافع » كما قال محمود درويش لنحقق بقوة الشعب الكادح الذى لايمكن أن يكون اليأس بديلا عن واقعه النفسى ، أمنياتنا الكفاحية .

فهرس

صفحة

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال
١٩٧١